السلفية

بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية

د. مصطفى حلمي

أستاذ بكلية دار العلوم / جامعة القاهرة

دار الدعوة

للطبع والنشر والتوزيع

١ شارع منشا - محرم بك (الاسكندرية)

الســـلفية
بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية



الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م
الطبعة الثانية ١٤١١هـ ـ ١٩٩١ م

رقم الايداع
١٩٨٣ ــ ٤٧٥١

بسم الله الرحمـن الرحيم

« السلفية » بين العقيدة الاسلامية والفلسفة الغربية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين سـيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته واهتدى بهـديه الى يوم الدين وبعـد ...

فان من اوليات المنهـج الصحيح فى الدراسات الاسـلامية ضرورة الفصل بين الاسلام فى أصوله وبين المسلمين أثنـاء عصـور التدهـور والضعف ــ لا سيما فى العصر الحاضر ــ ولا ينبغى لباحث منصف تحميل الاسلام أوزار المسلمين ، حيث تثبت الدراسـة الواعيـة الامينـة ، ان القاعدة عكسية ــ أى أن الاسلام فى عصور الصحابة والتابعين ومن اقتدى بهم ــ كان سببا فى ارتقاء الامة ومنعتها وسيادتها ، فلما ضعفت صلتها به أو انحرفت عن عقيدته الصحيحة التى اعتنقها السلف ، انحدرت الى سفح الحضارة وخضعت لغيرها من الامم الطامعة فى بلادها وثرواتها .

ويسهل استقراء هذا القانون الذى تعبر عنه أحداث تاريخية ثابتـة ومدونة ، بحيث يؤلف هـذا القانون قضـية منطقية صـادقة بمقـدماتها ونتـائجهـا .

ومحور قضيتنا يدور حول تحليل مفهوم (السـلفية) فى التصـور الاسلامى بالمقارنة بنفس المفهوم فى الفلسفة الغربية وتاريخها وحضارتها لنبين الاختلاف الجذرى والتضاد الاساسى بين مصـطلح السـلفية بين العقيدة الاسلامية والفلسفة الغربية ، ولنقنع أصحاب دعوة (العصرية) و (التجديد) فى فهم الاسلام وتطبيقه شريعة ونظما ، أو النظر اليه كنوع

من تراث الاباء والاجداد ، بينما هو فى حقيقته وحى الله تعـالى اختتم به رسالاته الى أهل الارض قاطبة .

ونلحظ أول ما نلحظ كمقدمة وقبـل الشروع فى الموضـوع انرئيسى للكتاب ــ ان كثيرا من الكتاب والباحثين قد تأثروا بالتصـورات الفلسفية المنتقلة الينا من الغرب ــ سواء عن عمد فى شكل غزو ثقافى للتشـويه أو بسبب القابلية للتغريب بسبب فقدان الثقة بالنفس خضوعا لقوة جـذب الحضارة الغربية ، ونعنى بذلك مثلا تقسيم عصور التاريـخ الى قـديم وعصور وسطى وحديثة ، والذى يبدو فى ظاهره مجرد تقليد ومحاكاة ولكنه فى الحقيقة يحمل فى طياته دلالات بالغة الاهمية على تاريخنا وفهم عقيدتنا الاسلامية ، اذ ان له آثارا عميقة على العقـل والوجـدان والشـخصية الاسلامية لانه يدعو الى نبذ تراث المـاضى وبذلك يشـكل أحـد أدوات الغزو الثقافى الهادف الى قطع صلة الامة بتراثها بخطة محـكمة التـدبير متعددة الوسائل كأذرع الاخطبوط تمسك بزمام فريستها بأكثر من ذراع ولكن الغرض هو الاجهاز عليها .

كذلك فى ضوء الصراعات الايديولوجية فى عصرنا يجب الحرص على معرفة العقيدة الاسلامية الصحيحة ، اذ نعتقد أن هذه المعرفة تعد حجـر الزاوية اذا أردنا مقاومة غزو الفلسفات والنظـريات المعاصرة المعـادية للاسلام ، وعندئذ سيتضح للمسلم المعاصر فى ضوء عقيدته المطابقة لعقيدة السلف بعد الشـقة بينه وبين دعاة مزج الاسـلام باتجـاهات حـديثة كالاشتراكية والقومية والوطنية والديمقراطية وغيرها .

واننا نقرر عن ثقة انه لا خلاص من هذه التصـورات المختلطـة الا بالاستمساك بعقيدة السلف . وآية ذلك أن بعض خصوم الاسـلام عندما

أعيتهم الحيل بمهاجمة الاسلام صراحـــة ، لجـــأوا الى التنفيس عمـــا فى صدورهم بمهاجمة الاتجاه السلفى .

واتباعا لمنهج المقارنه سنناقش فى الفصل الاول بعض الاراء الفلسفية المعادية للسلفية فى الغرب بالمدلول التاريخى أو الفلسفى والحضارى .

وليس شرطا أن نجد لفظ (الســـلفية) واردا فى كتابات الفلاســـفة والمؤرخين فى اوروبا . اذ أحيـــانا نســـتخلصه من روح بعـــض النماذج فنستخلص عداءا ونفورا لكل ما يشير الى السلف بالمدلول التاريخى .

فمثلا ورد لفظ (السلفية) صراحه فى كتاب توينبى عن تاريخ العالم ، كما ظهر فلاسفة (سلفيون) فى القرن الثامن عشر الميلادى كرد فعل لمآسى الثورة الفرنسية وآثارها المدمرة على الدين والاخلاق والمجتمع فى أوربا .

ولكن ظهـــر المعنى مستورا فى افتراضـــات أوجست كونت بتقسيمه للمراحل التى مر بها التطور الفلسفى وفقا لقانون الحـــالات الثـــلاث اذ يحمل مدلول افتراض أن تاريخ العالم يسير قدما الى الامام وأن المرحلة القادمة أرقى من الحالية أو السابقة [1] .

---

(١) اولا : الحالة الدينية وتتلخص فى تفسير الظواهر المختلفة بعلل اولية تتشخص بصفة عامة فى الالهة .

ثانيا : الحالة الميتافيزيقية ويسيطر فيها على حياة الدول مذهب فلسفى تعسفى .

ثالثا : الحالة الوضعية التى تتلخص فى تفسير الظواهر بالعلل الاخرى التى تقوم على الملاحظة العلمية .

ولكنه عاد فى نهاية حياته فأراد أن يؤسس نوعا من الدين يقوم على عبادة (البشرية) باعتبار أنها (الكائن الاعظم) .

ينظر كتاب جاستون بوتول : تاريخ علم الاجتماع ص ٥٧ــ٦١ ترجمة د. محمد عاطف غيث والاســـتاذ عبـــاس الشربينى ــ الدار القـــومية للطباعـــة والنشر ١٩٦٤م

ونفس المدلول تقريبا تعبر عنه الفلسفة الماركسية التى تصوران تحقيق نظمها فى الاقتصاد والاجتماع والسياسة يمضى قدما الى الامام على أثر الصراع بين الطبقات وخلافه يعنى الرجعية •

وسنعرض لتفاصيل ذلك كله توطئة لتفنيده من وجهة النظر الاسلامية وعلى الاخص السلفية •

لذلك ناقشنا فى الفصل الثانى من الكتاب بعض الظنون الخاطئة عن المناهج التى اتبعها السلف •

اذ أن استقراء دراسات المستشرقين بصفة خاصة لتدلنا على خططهم فى تشويه صورة السلف فى الاذهان ، فاذا علمنا أن هؤلاء المستشرقين كانوا طلائع الغزو الثقافى الغربى ، أيقنا أنهم ما فعلوا ذلك الا لعلمهم صعوبة التغلب على الامة الاسلامية ما دامت مستمسكة بالعقيدة التى كان عليها السلف ، فأخذوا يصيغون الاساليب ويتفننون فى الطرق المؤدية الى الاساءة اليها بالتشويه المتعمد للعلماء المعبرين عن الاتجاه السلفى — من المحدثين وغيرهم — مع كيل المدح والاطراد لمخالفيهم ، وابتداع نحل جديدة باسم الاسلام ، بينما الاسلام برىء منها كالقاديانية والبابية والبهائية كما سيتضح ذلك تفصيلا فى هذا الكتاب •

وسنرى أيضا كيف قامت الحضارة الاسلامية على عقيدة التوحيد حيث مهما طالع المرء من كتب ومهما قرأ من مؤلفات لتاريخ الاسلام بحثا وتعليلا وتفسيرا ، فسيتأكد لديه أن حضارة التوحيد — أن صح التعبير — ما قامت الا على العقيدة التى عرفها السلف وحافظوا عليها وتقيدوا بالتزاماتها •

ولهذا تطلب البحث فى الفصل الثانى مناقشه ما يدور فى دوائر خصوم السلفية ولعل فى مقدمتها اتهام أصحابها بانهم يعتمدون اكثر ما يعتمدون على السمع أو النقل وينبذون طريق العقل،ومن هناكان عزوفهم عن(الكلام) وكان هذا الاخير هو المنهج العقلى الوحيد الكفيل بالمحافظة على العقيدة والدفاع عنها .

وسيظهر لنا خطأ هذا الرأى أيضا ، لانه ليس من الضرورى استخدام مناهج المتكلمين والفلاسفه حيث تنبه علماء السلف الى الاستدلالات العقلية فى النصوص الشرعيه .

ولفهم حقيقة الفرق المخالفة لاهل القرون الاولى ، خصصنا الفصل الثالث لتناول بعضها بالدراسة المقارنة يحدونا الحرص على اقناع المخالفين فى الرأى الى صحة المنهج السلفى بالادلة والبراهين وخلاصة القول فى هذا الصدد أن أعمدة حضارة المسلمين قامت على تطبيقهم لتعاليم دينهم فى أصولها الاولى . فكانت عقيدة السلف هى ركن الاساس ، ومنها انطلق علماء الاسلام فى مجالات الفقه تنظيما للحياة الاسلامية فى جوانبها التشريعية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية كلما جدت مشاكل تحتاج الى اعمال الذهن اجتهادا .

وكأن خط سير حضارتنا له معالمه المتميزة ، لان الامة مكلفة بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر وقادها الرسول ﷺ مقتحما عقبات جسام من رفض وعناد داخلى وعناد وحروب خارجية ، فاقتحمها جميعا ، وعاد الى مكة منتصرا فكان الفتح ايذانا بنشر الرسالة على العالم أجمع ، بعد معرفة المسلمين ــ وفى مقدمتهم الخلفاء الراشدين ــ لمهام رسالتهم وأهدافها ، فلا الغزو والفتح فى ذاته أرادوا ، ولا استعباد الشعوب واذلالها راموا ،

وما زعموا انهم سادة الارض بل حددوا رسالتهم وأهدافهم فى كلمات قليلة، هى الاحتكام الى شرع الله تعالى واقامته .

وربما كان أدق ما يعبر عن ذلك قول ربعى بن عامر لقائد الفرس رستم حينما سأله عن سبب مجىء المسلمين فأجاب (الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عباده العباد الى عبادة الله . ومن ضيق الدنيا الى سعة الاخرة ، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام ، فأرسلنا بدينه الى خلقه لندعوهم اليه)[٢] .

بهذا الوضوح والقطع ، تميزت حضارة المسلمين عن غيرها من الحضارات بعلاقاتها مع أمم العالم وقامت أصولها فى الداخل على أعمدة العقيدة أيضا ، فما تحقق من تقدم عمرانى وازدهار معمارى ومؤسسات ذات كيان انسانى كان صدى للعقيدة الاسلامية بجوانبها المتعددة والامثلة كثيرة : منها نظام الوقف الاسلامى الذى شمل قطاعات كبيرة من الناس ، كرعاية المرضى والإنفاق على طلاب العلم وانشاء المساجد وتربية اليتامى وغير ذلك من أعمال البر والخير ، وكلها كانت مظهرا من مظاهر نبض قلوب المسلمين ووجدانهم بما يحملونه من عقيدة تحثهم على ذلك كله .

وكان خط سير التاريخ يتعرج مع أحداثه الجسام منذ تحول الخلافة الى ملك ، وانقسام الدولة الاسلامية فى عصر العباسيين الى امارات وممالك مستقلة ، وتعرض المسلمين لحروب ضارية من الصليبيين والتتار[٣] ،

---

(٢) تاريخ الطبرى اخبار سنة ١٤هـ (ابتداء امر القادسية) .

(٣) يقول لوثروب ستودارد :

وكانت بغداد مدينة عظيمة وعاصمة كبيره ، فيها كرسى الخلافة ومركز الحضارة العربية ، فانقض عليها المغول سنة ١٢٥٨م واعملوا فيها ايدى التخريب والتدمير فذبحوا اهلها تذبيحا . .

. وكانت هذه الحضارة قد أصيبت ، من قبل نازلة المغول ، بضربة اخرى فى الغرب ، وهى نازلة الاندلس .

(حاضر العالم الاسلامى جا ص ١٧) .

ومؤامرات داخلية على يد الباطنيين كالاسماعيلية والزنج ، وظهور أنبياء كذبة وأئمة مضــلين ، بدءا بمسيلمة الكذاب والاســود العنسى ، وانتهاء بالبهاء والقادبانى •

لذلك فاننا سنتكلم عن بعض المخالفين لمنهــج الســلف كالخــوارج والشيعة الامامية داخل دائرة الاسلام ، والفرق الاخرى التى مرقت من الدين نفسه كالباطنية والبابية والبهائية والقــاديانية والنصــيرية ، ليميز المسلم المعاصر بين عقيدة الاسلام الصحيحة المتلقاة عن الســلف مــؤيدة بالحجج والبراهين ، وبين هذه العقائد النابعــة من تأويــلات خاطئــة ، وليحترس من الوقوع فى حبائلها •

اننا فى حاجة الى تعديل طرق حياتنــا لكى (ترتــقى) الى المستوى الاسلامى الذى كان عليه السلف بعقيدته ونظمه فى الاجتماع والاقتصاد والسياسة والشئون التعليمية والتربوية والثقافية ، فضلا عن تحقيق القيم الاخلاقية على مستوى الافراد والمجتمعات ، وهذا أمر متاح لان المقومات التى شكلت ذلك كله فى تاريخ حضارتنا ما زالت باقية حية وهى :

ــ كتاب الله تعالى المحفوظ بعنايته ما زال قائما بين أيدينا وســيظل كذلك الى قيام الساعة ، وسنة نبينا محمد ﷺ تتضمن سيرته مدونة بأمانة ودقة كاملتين فى شتى دروب الحياة الانسانية وتراث العلماء واجتهاداتهم يعبر عن ذخيرة حية تفاعلت مع نبض الحياة وما زالت منبعا وزادا للمسلمين المعــاصرين •

أضف إلى ذلك وسيلة الاقناع التى لا تقبــل الجــدل ، ان التاريــخ الواقعى المطبق لتعاليم الاسلام قد تحقق بصورة تــكاد تكون مثالبــة فى

العصور الاولى المفضلة ، وظلت تتكرر بصورة أو بأخرى كلما قام المسلمون بالاستمساك بما كان عليه الاوائل فى العصور المفضله .

والمنهج السلفى يحمل طابع (المعاصرة) الدائمة لاننا عندما نتبعه عندئذ يمكننا شجب دعاوى التطور فى فهم العقيدة أو مراعاة روح العصر ، أو المرونة والتآخى مع عقائد الامم الاخرى ، الى غير ذلك من شعارات تؤدى الى (تذويب) الفوارق بين عقيدة التوحيد الاسلامية وغيرها ، ومن ثم نفقد أقوى أسلحتنا لاعادة تكوين شخصية الامة على الاصل الجوهرى لحضارتها . يحول دون التبعية والانقياد وراء حضاره العصر والتلاشى فى ثقافتها وانماط سلوكها ونظمها المخالفة لنا .

كما لا نشك فى أن الضوابط والمقاييس الثابتة التى تحددها السلفية كفيلة بتخريج طلائع فذة لقيادة الحضارة الاسلامية من جديد .

لذا فان اهتمامنا باجلاء عقائد السلف ومناهجهم يرجع الى اقتناعنا بأنها أهم أصول حضارتنا، ونأمل اذا مافهمناها وعملنا بمقتضاها يتحقق استئناف الأمة لقيادة العالم من جديد ، ولن يتحقق ذلك الا بأوليات ينبغى التفاف المسلمين حولها ، فنبدأ أول ما نبدأ بالعقيدة كما فعل سيد الخلق محمد ﷺ تعليما وتثبيتا وتنشئة . ثم المحافظة على كيان الامة من (الذوبان) فى غيرها من الامم الاخرى .

تلك نقطه البداية لانها متعلقة بجذور حضارتنا اذا ما اصطلحنا على تعريف الحضارة بأنها تلك المتعلقة بالاسس الثقافية والاصول المعنوية ــ كالعقيدة والثقافه والقيم وطرق الحياة ــ دون المظهر الخارجى المعبر عنه بالمدنية[٤] .

---

(٤) د. فؤاد زكريا ــ الانسان والحضارة فى العصر الصناعى ص ١١٤ مركز كتب الشرق الاوسط سنة ١٩٥٧م .

ولعل فهم هذه النقطة الدقيقة يعفينا من تكرار الرد على خصوم السلفية الذين يظنون بأننا ندعو الى العودة الى الوراء والحياة وفق نمط الحياة المدنية السائدة فى العصور السالفة .

ان الفهم للاختلاف الثقافى بين الحضارات لا يحول دون الافادة بمنتجات الغرب العلمية التقنية ، أو محاكاة شعوبه فى التنظيم والادارة وتخطيط المدن والجدية فى العمل واقامة المصانع وتجهيز الجيوش والعناية بالتربية والتعليم فى مراحل العمر المختلفة ، ومجاراتهم فى تطوير نظم العلاج الطبى واقامة المستشفيات والمصحات ، واقامة شبكات المواصلات على أحدث المبتكرات فى البر والبحر والجو .

يضاف الى ذلك تقليدهم فى الاخلاق العلمية التى تميزهم فى دقة التخطيط والامانة فى متابعة التنفيذ .

كل ذلك وغيره أدى بهم الى الخطوات الواسعة التى قفزها الغرب قفزا الى الامام فسبقنا بقرون فى المجال العلمى التكنولوجى .

لذلك فاننا مطالبون ، بل نقول :

انه فرض كفاية كفروض الكفايات التى يأمر بها الاسلام ، ولم لا والقرآن والحديث يأمران صراحة بالعمل والسعى والانتشار فى الارض تعلما وبحثا وتنقيبا ودراسة ؟.

لم لا وقد نفذت أجيال السلف هذه الاوامر فشادت صرح حضارة ظلت مؤثرة وفعالة لمدة نيف سبعة أو ثمانية قرون حتى تسلمت رايتها حضارة الغرب وخطت بها الى النتائج التى نراها جميعا ؟.

ولن نسأم من اعادة القول وتكراره المرة تلو الاخرى ، ان التحذير

الذى نرفع عقيرتنا به قاصر فقط على التقليد العقدى والثقافى والايديولوجى وعلى المثل والقيم الغربية فى النظر الى الدين والقيم والاخلاق ، وتقييمهم الفسلفى للانسان أصولا ونشأة ومصيرا ونهاية .

وبعد فاننا نسـأل الله تعالى أن يفيد هذا الكتاب المسـلمين عامـة وأصحاب الدراسات المتخصصه فى الجامعات والمعاهد العلمية خاصة كمنهج ارشادى فى البحوث المتصلة بدراسة أصول الدين (علم الكلام) . أو قضية التراث والعصرية وتقويم الحضارة الغربية من وجهة النظر الاسلامية ، أو المناهج التاريخية وفلسفة التاريخ .

والله نسأل أيضا أن يجعل عملنا خالصا لوجهه وابتغاء مرضاته .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

مصطفى حلمى

الاسكندرية فى :

٢٢ من ذى الحجة سنة ١٤٠٣هـ .

٢٩ من سبتمبر سنة ١٩٨٣م .

قال تعالى :

« وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ » ١٠٠ التوبة

قال تعالى :

« وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ » ١٥٣ الانعام

بسم الله الرحمـن الرحيم

تمهيـــد :

سبق أن عرضنا لقواعد المنهج السلفى فى الفكر الاســلامى وشرحنا أبرز معالمه[١] وسنعالج فى هذا الكتاب أسـباب العـدوى المنتقلة الينا من الغرب فى تقسيمه للتاريخ الى قديم وأوسط وحديث[٢] لنبين الاختـلاف الجذرى بين مفهوم (السلفية) بين العقيدة الاسلامية والفلسفة الغربية .

ان المصطلح — من وجهة نظر الفلاسـفة الغـربيين — له مـدلوله الخاص ، كما سنوضح بعـد قليل ، ولا صـلة له بمثيـله فى دائرة الفكر الاسلامى ، لا من حيث المصطلح ولا من حيث المضمون .

فمن حيث المصطلح ، أصبحت « السلفية » علما على أصحاب منهـج الاقتداء بالسلف من الصحابة والتابعين من أهل القرون الثـلاثة الاولى ، وكل من تبعهم من الائمة ، كالائمة الاربعة وسفيان الثـورى وسـفيان بن عيينه ، والليث بن سعد وعبد الله بن المبارك ، والبخارى ومسـلم وسـائر أصحاب السنن ، وشمل شيوخ الاسلام المحافظين على طريقة الاوائل ، مع تباين العصور وتفجر مشكلات وتحديات جديدة أمثال ابن تيمية وابن القيم

---

(١) ينظر كتاب (قواعد المنهج السلفى) حيث اجتهدنا فى استقراء هـذه القواعد وحددناها بما يلى :

ا — اتباع السلف الصالح فى تفسير النصوص وفهمها .

ب — رفض تاويلات المتكلمين من المعتزلة والاشاعرة والفرق الاخرى .

جـ — الاستدلال بالاساليب والبراهين المستخرجة من الايات القرآنية بدلا من استحداث الطرق المبتدعة بواسطة علماء الكلام والفلاسفة وغيرهم .

(من ص ٣٥ الى ص ٤٦ — بالكتاب الانف الذكر ، ط دار الانصار بالقاهرة ١٣٩٦ هـ — ١٩٧٦م) .

(٢) تقسيم التاريخ الى قديم ومتوسط وحديث تم بواسطة اساتذة جامعة كامبردج . (كولون ولسون . سقوط الحضارة ص ١٣٤) .

ومحمد بن عبد الوهاب وكذلك أصحاب أغلب الاتجاهات السلفية المعاصرة بالجزيرة العربية والقارة الهندية ومصر وشمال أفريقيا وسوريا (وكانت ذو أثر واضح فى تنقية مفاهيم الاسلام ودفعه الى الامام لمواجهة الحضارة والتطور ، والكشف عن جوهر الثقافة العربية الاسلامية الاصلية القادرة على الحياة فى كل جيل وكل بيئة)[٣] .

ومن حيث المضمون ، تعنى السلفية فى الاسلام التعبير عن منهج المحافظين على مضمونه فى ذروته الشامخة وقمته الحضارية ، كما توجهنا الى النموذج المتحقق فى القرون الاولى المفضلة ، وفيها تحقق الشكل العلمى والتنفيذ الفعلى ، ومنه استمدت حضارة المسلمين أصولها ومقوماتها ممثلة فى العقيدة خضوعا للتوحيد ، وبيانا لدور الانسان فى هذه الحياة ، وتنفيذا لقواعد الشريعة الالهية بجوانبها المتعددة ، فى الاجتماع والاقتصاد والسياسة وروابط الاسرة وفضائل الاخلاق .

والسلفية كمصطلح تعنى أيضا فى مدلولها الخاص — الاقتداء بالرسول ﷺ ، فان أمتنا تنفرد بمزية لا تشاركها فيها أمة أخرى فى الماضى أو الحاضر أو المستقبل — تلك هى تحقق القدوة فى شخصه — صلوات الله عليه — اذ حفظت سيرته كاملة محققة بكافة تفاصيلها فنحن نعلم عنه كل شىء وفقا لما نقل الينا فى كتب وعلوم مصطلح الحديث بأدق منهج تاريخى علمى عرفه المؤرخون .

وهكذا فان السيرة النبوية حية فى كياننا ، ونحن نعيشها كل يوم[٤]

(٣) أنور الجندى — الاسلام والثقافة العربية فى مواجهة تحديات الاستعمار وشبهات التغريب ص ٤٩ — مطبعة الرسالة بدون تاريخ .
(٤) حسين مؤنس — الحضارة ص ١٢٥ — من سلسلة (عالم المعرفة) — المجلس الوطنى للثقافة والفنون والاداب بالكويت ١٣٩٨هـ — ١٩٧٨م .

وهى تمثل القمة للسلفيين • وتطبيق الشريعة الاسلامية ممتد على طــول الزمن لا يتعلق بعصر دون آخر ، بل أن كل جيل من المسلمين مطالب بتنفيذ أصولها النصية مع الاجتهاد فيما لم يرد فيه نص عند مواجهة أحوال الحياة المتغيرة كما هو معروف فى أصول الفقه •

وقد ظهر الاصطلاح فى مقابل انحرافات كانت تأخذ مجراها فى تاريخنا العقدى والثقافى . فبدأ التمييز بين المثبتين للصفات الالهية وبين النافين لها • كما ذكر مؤرخ الملل والنحل — الشهرستانى — وظهر أيضا للتعبير عن أهل الفقه والحديث للمفارقة الواضحة بينهم وبين المتكلمين أو الصوفية أو الفلاسفة • كما أصبح علما فى العصر الحديث على أهل التوحيد منذ حركة محمد بن عبد الوهاب • وعندما اشتدت المقاومة ضد الاستعمار الغــربى ، فان مما يلفت النظر أن ماسينيون — المستشرق الفرنسى الشهير — وكان تابعا لوزارة الخارجية الفرنسية — أخذ يرقب الحركة السلفية بواســطة الامام عبد الحميد بن باديس ، ثم حذر قومه فى فرنسا مما سماه بحــركة (السلفيين المتشددين) وما هى فى حقيقتها الا انتفاضــة اســلامية تبغى التخلص من نير الاستعمار الغربى ، وقد أعطت هذه الحركة لمفهوم السلفية بعدا جديدا فى عصرنا الحاضر ، اذ أخذت على عاتقهــا كما فعلت الاجيال السابقة من أصحاب نفس المنهج — المحافظة على أصالة الامة الاسلامية فى عقيدتها وشريعتها وأخــلاقها حتى لا تتميع أو تهتز تحت ضربات الغــزو الاجنبى •

ولم تكن هذه المرة الاولى لظهور السلفيين بهذا المظهر ، اذ حدث أيام الاشتباك العقلى مع خصوم الاسلام ، وكان الاسلام حينذاك فى الموضــع المهاجم المكتسح بفضل استمساك أتباعه به ، ويملكون العناصر الحضارية الاسمى ، اذ عندما نقل الفكر الغربى اليونانى ، أخذوا فى دراسته وتحليله

ومناقشته ورد أباطيله ثم قيس ذلك كله مقياس العلم الاسلامى ومحك النقد الدينى ، فما وافقه قبله البعض وما خالفه رفض[٥] وكان الرفض ظاهرا أكثر من غيره فى دوائر علماء السلف ، محافظة على شخصية الامة وأصالتها .

أما هذه المرة — أى فى العصر الحديث — فقد جاءنا الغرب فاتحا مستعمرا وحاكما مستعبدا ، ففرض علينا لغته وفلسفته وتشريعاته ونظمه فى الاجتماع والسياسة والاقتصاد .

وكان من أبعد الخطوات أثرا فى حربه ضدنا أن أخذ علماؤه فى تقليب صفحات تاريخنا لاستخراج كل ما يسىء الى الاسلام كما عرفه سلفنا الصالح وطبقوه ونفذوه ، فأعلوا شأن الفرق المنشقة كالخوارج والشيعة والمعتزلة والصوفية المنحرفين والفلاسفة وغيرهم ، الى احياء أو تحبيذ نحل ومذاهب مختلفة ، اما بأسمائها المعروفة بها كالاسماعيلية أو الباطنية أو تحت أسماء جديدة كالبهائية أو القاديانية والعلوية[٦] ، وبعث الالحاد من جديد وراء ستار العلمانية والماركسية والداروينية ، مع نشر فكرة وحدة الاديان أو التقريب بينها وازالة الحواجز بين الحق بصورته الوحيدة ، والباطل بصوره المتعددة المتضاربة .

وازاء كل هذه الخطط والمحاولات ، فلن يظهر زيف هذه العقائد والنحل الا بطريقة السلف أنفسهم ، مهما تغيرت الازمنة والاعصار ، لانها طريقة موضوعية ذات أسس علمية منهجية ، تعتمد على النصوص الشرعية الموثقة ، فهناك مسائل ثابتة لا تتغير ، كفطرة التوحيد ومخاطبة العقول

---

(٥) علال الفارسى — دفاع عن الشريعة ص ٨٧ — منشورات العصر الحديث — بيروت ١٩٧٢م .

(٦) سيجد القارىء فى الفصل الثالث بيانا وافيا لهذه النحل .

البشرية للبرهنة على النبوات بعامة ونبوة محمد ﷺ بخاصة ، والرد على أهل الكتاب من اليهود والنصارى فى كل ما انحرفوا به عن الشرع المنزل ، مع دحض شبهات الملحدين والمشركين .

هذا فضلا عن ثبات الفضائل الاخلاقية ، وقواعد التحليل والتحريم فى المأكل والمشرب والملبس ، وتنظيم العلاقات الاجتماعية فى الاسرة والمجتمع ، واقامة العلاقات الدولية مع سائر الامم وفقا لاصول الشرع ، ولقد أصبحت الحركة السلفية ، هى الحركة الكبرى التى جددت الدعوة الاسلامية ، ولولاها لهان على الغرب أن يستعبد الشرق روحيا وفكريا الى أمد بعيد[٧] .

وفى ضوء ما تقدم سنعرض للموضوعات المثارة حول السلفية منهجيا وموضوعيا على امتداد أربعة فصول وهى :

الفصل الاول — السلفية وفق التصور الغربى .

الفصل الثانى — السلفية والحضارة الاسلامية .

الفصل الثالث — المفارقون لطريقة السلف والسنة .

الفصل الرابع — هدف السلفية وضوابطها .

---

(٧) انور الجندى — الفكر والثقافة المعاصرة فى شمال افريقيا ص ٣١ الدار القومية للطباعة والنشر — القاهرة ١٣٨٥ — ١٩٦٥م .

الفصـــــل الاول

السلفية وفـق التصـــور الغربى

— مقــــدمة

— السلفية فى التفسير الحضارى (أرنولد توينبى)

— فى التاريخ والاجتماع البشرى (كونت وقانون الاحوال الثلاثة

— السلفية والايديولوجية المـــاركسية

— السلفية فى الفكر الفلسفى الغربى

مقـــدمة :

تتضافر عدة فلسفات ونظريات على معاداة كل ما هو (سلفى) عندهم فى الغرب بالمدلول التاريخى أو الفلسفى أو الحضارى •

وليس شرطا أن نجد لفظ (السـلفية) واردا فى كتابات الفـلاسفة والمؤرخين فى الغرب ولكن نستخلص من (روح) بعض المذاهب وايحاءاتها عداء ونفورا — كما سيتضح لنا — لكل ما يشير الى السلف بالمعنى التاريخى مع تفاوت فى التعبير عن هذا المضمون اما صراحة أو ضمنا •

ويقتضى عرض أفكار أبرز آراء الغربيين تبويبها وفقا للبيان التالى :

ورد لفظ (السـلفية) صراحـة فى كتابات أرنولد توينبى وبعـض الفلاسفة الفرنسيين فى القرن الثامن عشر الميلادى كرد فعل لمآسى الثورة الفرنسية وآثارها المدمرة على المجتمع والدين والاخلاق •

ولكن ظهـر المعنى مستورا فى افتراضـات (أوجست كونت) فان تقسيمه للمراحل التى مرت بها الانسانية وفقا لقانون الاحوال الثلاثة يحمل مدلول افتراض أن تاريخ العالم يسير قدما الى الامام ، وأن المرحلة القادمة أرقى من الحالية أو السابقة ، وبتأثير ذلك الافتراض ظهـر اصـطلاحات (انسان القـرن العشرين) ، والرقى المتوقـع للعـالم سنة ألفين وكأن السنوات القادمة باعتبارها معبرة عن المستقبل كفيلة بحل المشكلات ، وكأن معيار التقدم والتأخر أصبح يقاس بالسابق واللاحق ، وأيضا فكل من عاش فى (المـاضى) فهو (متأخر) و (رجعى) ، وعلى العكس فان أهل القرون القـادمة أكثر رقيـا ••

ونجـد نفس المدلول فى الفلسفة الماركسية التى تتوقع تحقيق نظامها الاقتصادى والسياسى فى المجتمع وفقا لقانون التناقض الهيجـلى • الذى يفترض أن كل ما هـو آت متطورا عن سلفه وهكذا •

وللحديث تفصيل وايضاحات سنفرد له الصفحات القادمة ، وسنعرضها وفقا للترتيب التالى :

أولا — السلفية فى التفسير الحضارى (أرنولد توينبى) •

ثانيا — فى التاريخ والاجتماع البشرى (كونت وقانون الحالات الثلاثة) •

ثالثا — السلفية والايديولوجية الماركسية •

رابعا — السلفية فى الفكر الفلسفى الغربى •

أولا : السلفية فى التفسير الحضارى

ان أردنا الوقوف على مدلول (مصطلح السلفية) الشائــع الان فى مغزاه التاريخى والحضارى ، فان أمامنا التعريف الذى ارتضـاه المــؤرخ الانجليزى الشهير « أرنولد توينبى » ، وسندرك بعدها الى أى حـد امتد مفهوم السلفية الينا ، فأصبح البعض منا يردده بنفس التعريف والتصور . وسنناقش رأيه لنصل الى مفهوم السلفية فى تاريخنا الاسلامى .

يرى المؤرخ البريطانى أن السلفية تعنى :

أولا : ارتدادا من محاكاة الشخصيات المبدعة المعاصرة الى محــاكاة أسلاف القبيلة . وبعبارة أخرى تعد السلفية سقوطا من الحركة الديناميية للحضارة الى الحالة الاستاتية التى يشاهد عليها الانسان البدائى فى الوقت الحاضر .

ثانيا : محاولة من المحاولات تبذل عند حدوث توقف اضطرارى لحركة التغيير ، وينتج عن المحاولة رذائل اجتماعية تتوقف خطورتها على مــدى نجــاحها .

ثالثا : أنموذج لتلك المحاولة الخاصة بـــ (تثبيت) مجتمع منهار متحلل وهذا التثبيت هو الغاية المألوفة لواضعى (نظم المدينة الفاضلة) .

ويستطرد ليشرح المجالات التى تعبر فيها السلفية عن نفســها ، فهى فى مجال السلوك تظهر فى :

أولا : فى شكل نظم متكلفة وآراء تتشبث بالمصــطلحات الفـــارغة أعظم من تعبيرها عن نفسها فى شكل أساليب لا تتصل بالوجدان .

ثانيا : تعبر عن نفسها فى المجال اللغوى فى معان تتصل بمنهاج ونمط يتسمان بالشفسطة .

ثالثا : وفى ميدان الدين ، يسهل على المراقب الغربى الحديث ملاحظة نزعة السلفية فى نطاق حدود بيئته الاجتماعية الذاتية •

فان الحركة الإنجليزية الكاثوليكية تقوم مثـلا على الاعتقـاد بأن الاصلاح الدينى تم خلال القرن السادس عشر ، وحتى فى صورته الانجليكية المعتدلة ، قد ذهب فى تطرفه مدى بعيدا ، ومن ثم تهدف الحركة الى استعادة استخدام آراء وطقوس كانت شائعة خلال القرون الوسـطى ثم هجـرت وألغيت منذ أربعمائة سنة الغاء نعزوه الى عدم التبصر[١] •

ومادام الحديث متصل بالتفسير الحضارى فاننا نحب توجيه عناية القارىء إلى تأثير بعض الكتاب والباحثين بأفكار توينبى – أو التفسيرات الفلسفية الغربية والشرقية بوجه عام – فظنوا اننا عندما نتكلم عن (السلفية) فهو عين ما يذهب اليه فلاسفة الغرب ومؤرخيه ومنهم توينبى .

ولكن الحيقية انه شتان بين تصور توينبى وأتباعه وبين مانقصده نحن اعتماداً على الدراسة الفاحصة والنظرة المقارنة ، مع الاعتماد أيضا على لب نظريته التفسيرية لخط سير الحضارات ، ومنها الحضارة الاسلامية .

وسنرتب أفكارنا وفقا للايضاحات الآتية : ـ

١ ـ ذاتية الحضارات : فما يصدق على حضارة لايصدق على غيرها . واذا استندنا إلى تفسير تاريخى آخر لأحد المستشرقين وجدناه ، يلفت النظر إلى حقيقة مغايرة تماما حيث يقرر (هاملتون جب) ان التاريخ الاسلامى سار فى وجهة معاكسة للتاريخ الاوربى على نحو يثير الاستغراب حيث قال :

(كلاهما قام على أنقاض الامبراطورية الرومانية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ولكن بينهما فرقا أصيلا : فبينما خرجت أوروبا ، على نحو متدرج لاشعورى ، وبعد عدة قرون ، من الفوضى الناجمة عن غزوات البرابرة ، انبثق الاسلام انبثاقا مفاجئا فى بلاد العرب وأقام بسرعة

---

(١) توينبى : مختصر دراسة التاريخ ج٣ ص ٢٦٠ ومن ص ٣٨٥ الى ٣٩٨

تكاد تعز على التصديق ، فى أقل من قرن من الزمن ، امبراطورية جديدة فى غربى آسيا وشواطىء البحر الابيض المتوسط الجنوبية والغربية)* .

٢ ـ يعترف توينبى بأن أصول الحضارة الاسلامية لازالت حية ، وأن الاسلام يؤدى دوره الروحى العظيم حتى الآن .

٣ ـ ان القاعدة مضطردة بين الحضارة الاسلامية وعقيدة التوحيد ، حيث يتبين وصول هذه الحضارة إلى الذروة عندما التزم المسلمون بهذه العقيدة وحققوا أثارها فى أنفسهم وفى العالم حولهم ، وبالعكس فان اسباب تأخر المسلمين وإنحسار حضارتهم ترجع فى المقام الأول إلى الانحراف عن فهم الاسلام وتطبيقه عما فعله السلف .

والى القارىء عبارة (ماكس مايرهوف) الذى يقول فيها (ان منبع القوة الحقيقى عند العرب المسلمين وسبب هذا الانقلاب العظيم الذى لايوجد له مثيل فى التاريخ ، ان العرب أصبحوا بفضل تعليم محمد صلى الله عليه وسلم أصحاب دين ورسالة فبعثوا بعثا جديدا ، وخلقوا من جديد ، وانقلبوا فى داخل أنفسهم فانقلبت لهم الدنيا غير ما كانت ، وانقلبوا غير ماكانوا)** .

أضف الى ذلك ان توينبى يجعل الدين أصلا جوهريا فى تفسيره لنشأة الحضارات واستمرارها ، يقول فى أحد كتبه (فان الدين هو الأمر الخطير الذى يهم الجنس البشرى)*** كما يعترف ان الاسلام مازال يؤدى رسالته الروحية العظيمة كمابينا ، فهو اذن لم يتوقف .

واذا استخدمنا طريقته نفسها فى تفسيره لقيام الحضارات وسقوطها ، فسيتضح لنا صحة رؤيتنا لظهور حضارة المسلمين وانحسارها بنفس ميزانه :

وإلى القارىء فكرته الرئيسية فى هذا الصدد حيث يرى (ان الحضارت تبرز إلى الوجود وتسير فى طريق النمو اذا استطاعت أن تستجيب بنجاح إلى

(*) هاملتون جب دراسات فى حضارة الاسلام ص ٤ ترجمة د / احسان عباس ود / محمدنجم ود/محمود زايد ط دار العلم للملايين مؤسسة فرنكلين بيروت - نيويورك ١٩٦٤ م

(**) فى كتابه (العالم الاسلامى) نقلا عن المد والجزر فى تاريخ الاسلام للشيخ الندوى ص ٤٨ ط١٣٩١ هـ ١٩٧١ م بيروت الشركة المتحدة ، دمشق دار القلم

(***) أرنولد توينبى - الحضارة فى - الميزان ص ٩٣ .

ترجمة امين محمود شرف - مراجعة محمد بدران - الادارة العامة للثقافة وزارة التربية والتعليم قسم الترجمة - ط عيسى البابى الحلبى وشركاه

ضروب التحدى المتوالى الذى يواجهها وهى تنهار وتذهب ريحها اذا فشلت فى مواجهة هذا التحدى وحينما تفشل فى مواجهته)* .

وعندما نطبّق هذه القاعدة الأصولية فى نظريته عن الحضارت ، نراها تتحقق تحققا يكاد يكون ملازما لها منذ ظهورها فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته ، وفى العصور التى واجهت التحديات فى منعطفات تاريخنا الهامة كالحروب الصليبية وحروب التتار ومقاومة الاستعمار الحديث .

اذن فان كلمتنا الأخيرة لأصحاب التفسيرات المتقيدة بالنظريات الفلفسية الغربية نقول فيها :

ان الاسلام ينفرد كدين وحضارة بميزتين فى مجال المقارنة بين تاريخ الاديان** والحضارات هما :

اولا : ان اصوله لم تمتد اليها يد التحريف .

ثانيا : بالرغم من انحسار تيار الحضارة الإسلامية فى فترات متقطعة فى تاريخها ، الا ان الإسلام كعقيدة وعبادات وشرائع ظل يحيا فى أفئدة المسلمين ، وتظهر فعاليته على ايدى حركات المصلحين والقادة والمجددين والعلماء الذين لم يخل منهم عصر من العصور قط ، فحتى فى أحلك العصور عندما كان يختفى الاسلام كنظام سياسى يبقى فى صدور الرجال وفعالا على ايدى علماء المسلمين وقضاتهم وفقهائهم .

والواقع أن تاريخ الحضارت كما هو معلوم لا يقتصر على التاريخ السياسى فحسب بل يشمل العقائد والعلوم والنظم والآداب والفنون وحركة الفتوح ومدى الفعالية المؤثرة فى غيرها من الحضارت والأمم ايجابا وسلبا . وتاريخ الحضارة الاسلامية من هذه الزاوية زاخر بألوان من الحركة والفعالية ، بحيث يمكن القول بان تاريخها لم يتوقف ربما يخمد ولكنه لم ينقطع لأنه يعتمد اساسا على عقيدة حية تغذى العقل والوجدان وتدفع الانسان للحركة والتدفق اعتمادا على الايمان بالله الواحد الأحد ، وأملاً فى حياة خالدة اذا ما استوفى المسلم

(*) نفسه ص٦٢

(**) لمزيد الايضاح ينظر كتابنا (الصحوة الاسلامية عودة إلى الذات) ط دار الدعوة بالاسكندرية ١٤١٠ هـ

شروطها واستجاب لمتطلباتها ، ومنها السعى الحثيث والعمل الصالح وبيان ذلك اذا شئنا الاجمال يتضح جليا فى استمرارية الأمة الاسلامية بالرغم من الخطوب والكوارث التى ألمت بها ، فانه عقب سقوط بغداد انتقلت الخلافة إلى القاهرة ، ثم ظهرت الخلافة العثمانية بعد فتح القسطنطينية . وبعد سقوط الاندلس ظهرت الدولة الاسلامية فى الهند .

ثانيا : التصور السلفى فى التاريخ والاجتماع البشرى

(كونت وقانون الحالات الثلاثة)

أطاحت الثورة الفرنسية بالنظام الاجتماعى القديم ، ووجهت الى الديانة المسيحية ضربة قاصمة ، فتملكت كونت (١٨٥٧م) رغبة ملحة فى الاصلاح والتعمير بعد الدمار الذى حاق بفرنسا بعد ثورتها المدمرة . ورأى كونت انه ينبغى على التفكير الفلسفى النظرى أن يتجه الى المشاكل الدينية والاجتماعية ، وكان يهتم اهتماما شديدا بالامور الاجتماعية ثم العلم[٢] .

وأخذ يبذل جهده لاعادة تنظيم العقائد (أى لكى يستعيض عن العقيدة الموحى بها التى انتهت جدوتها الى الركود بعقيدة يقوم عليها البرهان) ، وبخلاف ذلك اعتقد أن العلوم الوضعية ستصبح أصلا للايمان المستند الى البرهان ، وكلما تقدم الانسان فى الدراسة الوضعية للظواهر فانه سيترك بالتدريج التفسيرات اللاهوتية والميتافيزيقية ، لانه سيتضح أن الظواهر خاضعة للقوانين . فالمعرفة الحقيقية تنصب على الظواهر وقوانينها .

وقد تطلع أوجست كونت الى تأسيس علم الاجتماع أو ما سماه (علم الطبيعة الاجتماعية)الذى سيقضى على سبب وجود اللاهوت والميتافيزيقا[٣] وييسر الانتقال من العلم الوضعى الى الفلسفة الوضعية فتتحقق بذلك وحدة العقل ، فيؤدى ذلك الى الانسجام الخلقى والدينى للانسانية .

ومقتضى تصور كونت اذن هو المضى قدما من حال الى حال وفقا

---

(٢) ليفى بريل — فلسفة اوجست كونت ص ٢٢ ترجمة د. محمود قاسم و د. السيد بدوى — مكتبة الانجلو بدون تاريخ .
(٣) نفس المصدر ٣١ .

للقانون المسمى بقانون الحالات الثــلاثة ، لانه متى ثبت هذا القـــانون فى تصوره (فان علم الطبيعة الاجتماعية لا يظل مجرد فكرة فلسفية بل يصبح علما وضعيا) •

وحدد كونت صيغة هذا القانون بطريقتين :

الطريقة الاولى :

وبها حدد الصيغة كالآتى (بناء على طبيعة العقل الانســانى نفسها لابد لكل فرع من فروع معلوماتنا من المرور فى تطوره بثلاث حالات نظرية مختلفة متتابعة الحالات اللاهوتية أو الخرافية ، والحــالة الميتافيزيقية أو المجردة ، وأخيرا الحالة العلمية أو الوضعية) •

ثم أضاف فى كتابه (دروس الفلسفة الوضعية)[٤] الصيغة التالية : وربما يظهر فيها بصورة أوضح التعبير عما نحن بصــدده ، حيث يفــترض أن المرحلة الاخيرة هى مرحلة النضج والتقدم النهائى للانســانية ، وأن أى (رجوع) الى مرحلة سابقة يعد من باب (السلفية) كأنه نوع من النكوص عن المرحلة المتطورة التى بلغتها البشرية •

والصيغة هى :

(وبعبارة أخرى يستخدم العقل الانســانى طبيعته ، فى كل بحث من بحوثه ثلاث طــرق فلسفية متتابعة يختلف طابعها اختلافا جوهريا • بــل قد يكون مضادا — وهى أولا الطريقة اللاهوتية ، ثم الطريقة الميتافيزيقية ، وأخيرا الطريقة الوضعية • ومن هنا نشأ ثلاثة أنواع من الفلسفة ، أو من المذاهب الفكرية العامة عن مجموع الظواهر • وتتنافى هذه الانواع الثلاثة بعضها مع بعض والفلسفة الاولى نقطة بدء ضرورية للذكاء الانســانى ،

---

(٤) المصــدر نفسه ص ٣٢ .

وأما الثالثة فهى حالته النهائية الثابتة . وأما الثانية فقد قدر لها أن تستخدم فقط كمرحلة انتقال)[٥] .

وقد تعرضت فلسفة أوجست كونت الوضعية لالوان من النقد والمعارضة ، استهدفت قانون الاطوار الثلاثة الذى قسم به تاريخ الانسانية فى تعسف واضح ؛ اذ ثبت أن الصناعات اخترعت فى عصر ما قبل التاريخ وبدء العصر التاريخى ؛ كما وجدت مشاهدات فلكية وأنواع من العلوم ، كهندسة اقليدس وطب أبقراط وطبيعيات أرسطو فى الدور الذى عده دورا فلسفيا ، فاذا انتقلنا الى الطور الوضعى وهو العصر الحديث فاننا نعثر على كثير من دعاة الاخلاق والدين والتأمل الميتافيزيقى بخلاف ما كان يظن كونت[٦] .

ولعل أهم نقد يوجه اليه فى هذا الصدد ، ان الحالات الثلاثة المتوهمة لا تمثل أدوارا متعاقبة بل انها متعاصرة متجاورة فى النفس الفردية ، فان منا من يفسر الحوادث العادية بأسبابها ؛ ومنا من يفسر الاحداث الخارقة بالقضاء والقدر أو سبب غيبى مجهول .

ويذهب الشيخ الدكتور دراز — رحمه الله تعالى — الى أبعد من هذا فيقول : ان النظرة الواقعية تقع فى البداية وتمثل مرحلة الطفولة النفسية لان مبعثها الحاجة العاجلة وصورة الحياة اليومية ، وانها وظيفة الحس — لا العقل . ثم تنبثق بعدها نظرة التعليل بالمعانى العامة ، وهى مرحلة النضج والكمال . وتأتى بعد المرحلة الاولى .

أما النظرة الروحية أو الدينية التى تخيل كونت انها فى أول المراحل

---

(٥) المصدر السابق ص ٣٥

(٦) د. توفيق الطويل — اسس الفلسفة ص ١٨٠ و ١٨١ مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٥م .

فهى فى الواقع تأتى فى آخرها حيث لا تولد فى النفس الا بعد اتساع أفقها ، حيث تتجاوز ظاهر الكون الى ما وراءه ·

وهكذا بنقلب ترتيب كونت الخيالى رأسا على عقب ، لان الاوضاع الطبيعية للحاجات النفسية تترتب — لا كما تصـوره فى مخيلتـه — ولكن ولكن كالاتى :

حاجة الحس فحاجة العقل فحاجة الروح ·

ويستطرد الدكتور دراز ليقوض دعائم الافتراض الكونتى بقـوله (على أن الذى يعنينا هنا ليس هو الوضع التقويمى لكل واحدة من هـذه النزعات ، وانما هو دخولها جميعا فى كيان النفس الانسانية ، فـكما أننـا لا نجد امارة واحدة تدل على قرب زوال النزعة الاسـتقرائية أو النزعـة التعليلية ، كذلك لا نرى امارة واحـدة تشير أن فكرة التـدين ستزول عن الارض قبل أن يزول الانسان)[٧] ·

وصدق تنبؤ الشيخ دراز ، اذ تشير الدراسات الاخيرة المعاصرة أن الدين بعامة يؤدى دوره فى تغيير المجتمعات الانسـانية وقيادة حـركتها ، ويتميز الاسلام بصفة خاصة بدوره الذى أثار العلماء والفلاسفة فى الشرق والغرب لفاعليته وايجابيته ·

يقول الدكتور حامد ربيع (يمكن القول بصفة عامة أن الاطار الدولى المعاصر يملك مجموعة من العناصر جميعا تدفع لخلـق مناخ معـين يسمح للاسلام بالايناع الحقيقى بحيث يمكن القول بأن هـذا الاطار هـو تربة

---

(٧) د· محمـد عبـد الله دراز — الدين ص ٨٩ — دار القلم بالكويت ١٣٩٠هـ — ١٩٧٠م ·

صالحة لاستقبال الاسلام ولتحقيق عملية اخصاب لم يقدر للانسانيــة فى تاريخها الحديث من قبل أن تعاصر مثيلا لها)[٨] .

كذلك لم يدر بخلد كونت وهو يتخيل قانونه أن الحضارة الاسلامية لهــا تاريخها ومقــوماتها المنبثقة من العقيــدة ، وأن ذروتها تحققت أيام السلف الصالح وفى الازمنة التى ارتفع فيها المســلمون الى مستوى هــذا السلف ، فهل يحق لنا اذن أن نصف الاخذين بقانونه فى مجال الدراســات الاسلامية بأنهم مقلدون بل انهم ـــ فى ضوء حقائق العصر الذى نعيشه ـــ رجعيون ؟..

لقد كانت فلسفة كونت موقوتة بظهور النزاع فى الغرب حــول فصل الدين عن مجالات النشاط الانسانى ومقوماته فى ميادين العلم والاخلاق والاقتصاد والسياسة وغيرها ، بسبب ظروف وأوضاع خاصة ، منها سلطان رجال الكنيسة وتدخلهم لنوقوف فى وجــه الاكتشــافات العلمية المخــالفة لتفسيرات الكتاب المقدس ، وربما كان هذا هو السبب الذى أدى بأوجست كونت فيلسوف الاجتماع الى القول بأن المسيحية انقضى زمنها ولا بد من الاستعاضة عنها بديانة أخرى ، وظلت فكرته مصاحبة للجمهورية الفرنسية الثالثة التى فصلت بين الدين والدولة ، ومن ثم فقد اعتقــد انه تم تحلل أجزاء الديانات من الوجهة العقلية ، أى انها لا تصمد أمام النظر العقلى .

ولكن مرد الخطأ هنا أنه اذا كانت هذه الظاهرة صادقة فيما يتعلــق بالديانة المسيحية بأوروبا ، فهى ليست كذلك بحال من الاحوال فيما يتعلق بتاريخ التفكير الاسلامى[٩] فمن الواضح لكل دارس محايد للتاريخ ، أن

---

(٨) حامد ربيع ـــ الاسلام والقــوى الدولية ص ٣٢ ـــ ط دار المــوقف العربى ـــ القاهرة ١٩٨١م .

(٩) د. محمود قاسم ـــ كتاب مبادىء علم الاجتماع لروجيه باستيد ص٣٣٨ ط ١٣٧٠هـ ـــ ١٩٥١م .

المسلمين أقاموا صرح حضارتهم فى دولتهم العظيمـــة التى امتــدت على عجل من الاندلس الى قلب القارة الاسيوية مارة بشمال أفريقيا كلها ، تم بناء على فهمهم الصحيح للاسلام وأتباعهم لمنهج أسلافهم فهما وتطبيقا[١٠]، فان الاسلام ليس مظاهر كهنوتية أو حياة منعزلة عن الواقع ، بل هو نظام كامل للحياة يوجه الانسان لكى يحقق كمالاته التى استحق بها خلافة الله تعالى فى الارض ، أى يحصل لنفسه وللجماعة الانسانية أيضا (أسمى درجة من الكمال الانسانى فى الروح والخلق والمـــادة والعقل ، وينظم عـــلاقته بربه عز وجل وعلاقته بأخيه الانسان فى كل مظاهر الحياة)[١١] .

وأخيرا ، يأتى القول الفصل والقرار النهائى من أوجست كونت نفسه حيث أصابته أزمة نفسية فى نهاية عمره .

يصفه الدكتور رشدى فكار فى هذه المرحلة بقوله (وبدأ يقلّب يمينا وشمالا وكان رائعا أن يرشح فى النهاية دين الاسلام كدين وضعى للحالة الوضعية ، وقال إنه لايمكن لدين أن يتمشى مع الحالة الوضعية إلا الاسلام لأنه دين عار من الحماقات ، يتميز ببساطته وعقلنته ، وبقدرته على إشباع رغبة البحث عن الإله)[١٢] .

ويضيف إلى ذلك أيضا أن كونت يرى أنه ان كان هناك دين يتمشى مع الحالة العلمية الموضوعية فهو الاسلام ، فحينما يسود العلم ، فسوف يبحث عن الاسلام وهاهى العقول القادرة الآن فى الثمانينات تتساءل حول الاسلام ، وسوف يتبلور هذاالأمر بصورة أكبر مع بداية القرن الواحد والعشرين مع شدة تأزم الانسان[*] .

---

(١٠) جوستاف لوبون — سر تطور الامم ص ٩٤ ترجمة احمد فتحى زغلول باشا — مطبعة المعارف بمصر ١٣٣١هـ — ١٩١٣م .

(١١) د. محمود عبد الله — موقف الاسلام من المعرفة والتقدم الفكرى ص ٣٠ (كتاب الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة) .

(١٢) د / رشدى فكار فى حوار متواصل حول مشاكل العصر ص ٥٩ خميس البكرى - مكتبة وهبة بالقاهرة ١٤٠٧ هـ — ١٩٨٦ م .

(*) نفسه ص ٤٥ .

ثالثا : السلفية والايدلوجية الماركسية

لكى نفهم أفكار ماركس لابد لنا من البدء بفلسفة هيجل • وفلسفة هيجل كما يجمع الباحثون يكتنفها الغموض ، وتحيطها الالغاز ، ويعنينا هنا فقط فكرة (التناقض) •

لهذا فان الفكرة ضرورية لبيان كيف أقام هيجل عليها فلسفته للتاريخ

يرى هيجل أن الوجود مجرد الايجاب ، أو هو ما به كل موجود هو موجود •فليس هو فى نفسه شيئا من حيث أنه فى الموجودات المتباينة المتنافرة على السواء • الدائرة وجود والمربع وجود ، والابيض والاسود ، والنبات والحجر • ليس الوجود شيئا لانه قابل لان يكون كل شىء • فتعقله عبارة عن تعقل اللاوجود فى الوقت نفسه ، وهذا هو التناقض بعينه• أما الموجود حقا فهو المركب من النقيضين : الوجود واللاوجود ، أى الموجود الذى لا يوجد على التمام ، وهذه هى الصيرورة فهى صميم الوجود ، وهى سر التطور ، اذ أن الوجود من حيث هو كذلك ثابت عقيم ، واللاوجود عقيم أيضا ، على حين أن الصيرورة وجود لا وجود (ما سيصار اليه) فهى التى تحل هذا التناقض الاول[١٣] •

وبالرغم من أن الحقيقة النهائية هى حقيقة لا زمانية ، وبالرغم من أن الزمان لا يعدو أن يكون وهما ينجم عن قصورنا عن رؤية الكل ، فان لعملية الزمان وثيقة بعملية الجدل المنطقية الخالصة ، فالتاريخ الانسانى فى الواقع قد تقدم خلال مقولات ، من الوجود الخالص فى الصين ، الى الفكرة المطلقة التى يلوح انها أوشكت أن تتحقق ، ان لم تكن تحققت تماما فى الدولة البروسية • وهنا يقول برتراند رسل (ولا يسعنى أن أجد أى تبرير على

---

(١٣) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٢٧٥—٢٧٦ ط دار المعارف ١٩٦٩م • (فكرة الوجود بالقوة عند ارسطو)

أساس ميتافيزيقاه الخاصة ، للرأى القائل بأن تاريخ العالم يكرر انتقالات الجدل ، ومع ذلك فهذه هى القضية التى ينميها فى كتابه (فلسفة التاريخ). ويصف رسل محاولات هيجل هذه بأنها كانت قضـــية مثيرة للشـــغف ، أى اعطاء الوحدة والمعنى لدورات الشئون الانسانية : وشأنها شأن النظريات التاريخية الاخرى ، اقتضت ، لكى تغدو مقبولة ، بعض تشويه للوقائع ، وقدرا ملحوظا من الجهل[١٤] .

وبناء على هذا البناء المنطقى ، وبتطبيقه على التاريخ والحضارات ، يتضح أن كل نظام للحضارة انما يكون مبناه على أخيلة خاصة تجعــله فى العالم عصرا للحضارة والمدنية ، فاذا أدرك هذا العصر بدأت تظهر للعيون مواضع الضعف ومواطن الانحلال والتداعى فى بنيانه ، فهناك تتنفس وترفع الرأس أخيلة وأفكار جديدة أخرى تصارعه ، ولا تنتهى هذه المصارعة الا بعصر جديد من الحضارة والمدنية يكون فيه بقايا من الانقاض الصالحـــة للعصر المنقرض ، كما تتولد فيه حسنات ومحامل جديدة ..

وهـــكذا ..

خلاصة القول اذن أنه لم ينقرض عصر من عصور التاريخ المـــاضية الا لاجل ما كان يتضمن فى نفسه من النقائص والعيوب ، تاركا ما كان فيه من المحاسن فى العصر الافضل الذى أتى بعده ، ويصبح العصر الذى نعيشه الآن جامعا لخلاصة جميع ما كان فى العصور المـــاضية من عناصر الصلاح والخير ، ومن ثم فلا ينبغى الالتفات الى الوراء لانه اذا كان هناك شيئا ذا قيمة فى المـــاضى ، فقد أدى دوره فى الارتقاء الحضارى ولم يعد يصلح فى

---

(١٤) برتراند رسل — تاريخ الفلسفة الغربية جـ٣ ترجمة د. محمد فتحى الشنيطى ص ٣٥٨ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٧م .

هذا العصر الجديد ، لان التاريخ حكم عليه بذلك[١٥] .

وما أبرع الشيخ المودودى — رحمه الله تعالى — فى فهمه لرذائل هذا الفكر الفلسفى ونتائجه على تاريخ الرسل والانبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، اذ سيؤدى الى نزع ما فى القلوب من تقدير واجلال للعصور التى مضى فيها ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين وغيرهم ، كما أن هذا الاعتقاد الفلسفى المضل سيقف عقبة دون الاهتداء بعهد النبوة والخلافة الراشدة[١٦] .

وجاء ماركس فاقتبس منهج هيجل دون مذهبه ، وأقام فلسفته المادية الجدلية على أساس الصراع أو التناقض بين الطبقات حيث تنبأ بسيادة عمال المصانع على أصحاب رؤوس الاموال فيها ، محاولا اخضاع ذلك لمبدأ (النقيض عند هيجل بعد أن جعل (المجتمع) الانسانى مكانا لتطبيقه . وأطلق ماركس على هذه (البشارة) (تقدمية) وعلى المصدق بها أو المبشر بها تقدميا وغير رجعى ..

وقد أصبح التفسير الماركسى للتاريخ مجرد اجتهاد مرتبط أشد الارتباط بأوضاع بالمشكلات الاقتصادية والاوضاع الاجتماعية السائدة فى القرن التاسع عشر ، هذه الاوضاع التى تبدلت فى القرن العشرين .

وهنا يصح التساؤل (أفلا يوصف ذلك الذى ينادى بالماركسية اللينينية وقد اختلفت الاوضاع والظروف الآن ، وهذبت تلك الاخرى التى حملت على الفكر الماركسى — بأنه رجعى ؟ وأنه يريد أن نعيد عجلة تاريخ القرن

---

(١٥) باختصار من كتاب (موجز تاريخ الدين واحيائه) للمودودى ص ١٦٥ — ١٦٦ ط دار الفكر الحديث — لبنان ١٣٨٧هـ — ١٩٦٨ م

(١٦) المصدر السابق ص ١٦٦ .

العشرين الى القرن التاسع عشر)[١٧] !.

كذلك كان التطبيق الماركسى فى المجتمعات الاشتراكية على حساب الحريات الفردية ، وطغى سلطان الطبقة العاملة على باقى الطبقات فى المجتمع فأصبحت السيادة لطبقة واحدة على حساب باقى الطبقات • وفى كلا الوجهتين أصبح النظام الماركسى خليقا بصفة (الرجعية) لا (التقدمية) •

واليك بيان الاستاذ العقاد فى هذا الصدد حيث يقول (•• ولهذا كنا نحن مستقبلين لاننا ندين بمذاهب الحرية الفردية ولا ندين بمذاهب الفاشية والشيوعية •• وبهذا المقياس — بعد مقياس الحرية — تعتبر الشيوعية من المذاهب الرجعية التى ترجع بنا الى سيادة الطبقة الواحدة)[١٨] ••

أما فيما يتصل بموقف الماركسيين من الدين ، فيبدو من استقراء بعض مواقفهم فى الشرق الاسلامى ، أنهم تنحوا عن تهمة الدين بأنه أفيون الشعوب بعد أن أيقنوا مخالفة الاسلام لهذه الصفة ، فبدءوا يعترفون بسلطان العقيدة الدينية وأثرها فى السلوك ، فأقروها كعامل مساعد يخدم الفلسفة الماركسية •

وربما طرأ هذا التغيير بسبب ازدياد عدد المسلمين المستمسكين بدينهم فى الجمهوريات التابعة للاتحاد السوفييتى — وكان سكانها فى الاصل مسلمين خدعهم لينين لضمهم الى صف الثورة بدعوى القضاء على الحكم القيصرى والتخلص من ظلمه للمسلمين ، ثم انقلب الشيوعيون بعد انتصار

---

(١٧) د• محمد البهى — تهافت الفكر المادى التاريخى بين النظر والتطبيق ص ٣٦ الناشر مكتبة وهبه بالقاهرة ١٣٩٥هـ — ١٩٧٥م •

(١٨) العقاد — مقال : السلفية والمستقبلية) ص ٢٥٨ •

الثورة على المسلمين بالاضهاد والتشريد والاعتقال والنفى الى سيبيريا وغير ذلك من المآسى المعروفة .

ولا نظن أن هذا التراجع أمام الاسلام ينطلى على المسلم الذى يفهم دينه حق الفهم ، اذ أنه يرفض اعتبار الدين مجرد عامل مساعد لخدمة الفلسفة الماركسية ، اذ أن الاسلام فى حقيقته الجوهرية وكما فهمه السلف وطبقوه معناه الفطرى الاستسلام لله تعالى وحده فى العبادة والتشريع والنظم والاخلاق ، فلا يخضع المسلم لغير الله عز وجل ، ولا يطيع الا هو سبحانه : ولا ينفذ الا شريعته .

وبناء على هذه المعرفة فان المسلم لا يقبل تطبيق التفسير الماركسى للنظام الاقتصادى ، وقد نظم الاسلام أمور المال أحسن تنظيم ، وطبقه المسلمون فى عصور ازدهار حضارتهم ، وما علينا الا تطبيق اجتهادات علمائنا من الفقهاء وغيرهم فى أمور الاموال ، مع الاجتهاد فى المستحدث من الامور المستجدة التى لم يعرفها أهل العصور الماضية كالاعمال المصرفية والتأمين والتأمينات وغيرها .

ونحن نرى الآن فى النظام المصرفى للبنوك الإسلامية ، وشركات الاستثمار الناجحة ، نرى بداية صحيحة لتحقيق نظام اقتصادى اسلامى متحرر عن نظم الاقتصاد السائدة فى العالم .

رابعا : المذهب السلفى فى الفكر الفلسفى الغربى

ظهر هذا المذهب على التحديد فى فرنسا فى القرن الثامن عشر الميلادى، وكان الفكر الفرنسى آنذاك صدى للفكر الانجليزى ، ثم بدا يبحث عن أصالته بعد استعادته لتوازنه عقب الثورة الفرنسية التى تركت ركاما من الخراب المادى والاضطراب المعنوى والقلق الاجتماعى •

وأمام الآثار الهادمة لثورة فرنسا ، قام الفلاسفة هناك ، وكل منهم فى نفسه هذا المشروع الخطير للاصلاح ، وعلى يقين لا يتطرق اليه الشك (بأن علة العالم الاضطراب المعنوى أو فساد العقيدة فى (القيم العليا) ، فعملوا جميعا — كل بطريقته الخاصة — على استرداد الايمان بهذه القيم)• لذلك ظهرت مذاهب ثلاثة :

الاول — المذهب النفسى الروحى ورأى من واجبه هزيمة المادية •

الثانى — المذهب الواقعى المعادى للميتافيزيقا المستمسك بالواقع ، ولكن ليست (الواقعية) فى هذا المذهب مرادفة للمادية ومبطلة للقيم •

الثالث — المذهب السلفى الذى يعنينا هنا ، وقد قام به بعض الكاثوليك لتحطيم مبادىء القرن السالف فى الاجتماع ، والمناداة بالعودة الى العقيدة السلفية[١٩] •

ولكن القاسم المشترك بين أصحاب هذه المذاهب هو معارضة المذهب الفردى ؛ مع تخطئة روسو وتخطئة مشرعو الثورة الفرنسية من بعده • حيث قامت البروتستانتينية على المذهب الفردى • وينكر المذهب السلفى الفلسفى دعوى أن العقل الفردى يبلغ الى الحق بقوته الذاتية ، ويعارض

---

(١٩) يوسف كريم — تاريخ الفلسفة الغربية ص ٢٩٨ ط دار المعارف بمصر

هذه الدعوى بارجاع العلم الانســـانى الى وحى أول نزلت به من لدن الله تعالى ألفاظ اللغة والمعانى المقابلة لها ، فتناقلها السلف[٢٠] .

يقول أحد هؤلاء الفلاسفة (بدأ الشر بالبروتستانتينية واستمر بفلسفة بيكون وفلسفة لوك وفلسفة القرن الثامن عشر يمثلهـا فولتــير) ، ويعلل فيلسوف آخر — وهو القسيس فلسيتى دى لامنى — عدم المبالاة بالدين بالمذهب البروتستانتى الذى ابتدع فكرة الفحص الحــر والثقة بالعقــل الفردى . فأدى الى بلبلة الافكار وزعزعة السلطة فى الدين والاجتماع[٢١].

ولكن هذا المذهب لم يحتل فى تاريخ الفلسفة الغربية مــكانا بارزا ، وانما انحصر دوره كما اتضح لنا كرد فعل للفوضى الدينية والاخلاقية التى أحدثتها ثورة فرنسا ، وكان قصير الاجل ضــعيف الاثر ، توهج كالنجم برهة ثم سرعان ما انطفأ ولم يحدث أثرا يذكر فى تــلال الفكر الفلســفى بالغرب ، كما لم يسلم من النقد لانه لم يستمد أصوله من رجال الكنيســة المعترف بهم بين النصارى ، لذلك يتعجب مؤرخ الفلسفة — يوسف كرم من هؤلاء السلفيين اذ فاتهم الرجوع فى رأيه الى الفلسفة السلفية الحقة (تلك التى كونتها الاجيال المسيحية حتى تمت على يد القسديس توما الاكوينى والتى هى أصدق نظرا فى الدين والعقل جميعا)[٢٢] .

وشتان بين نزعة وجدناها نشأت فى بيئة غربية على أيدى أفراد قلائل لمقابلة نزعات أخرى ، وبين الاتجاه السلفى الاسلامى المرتبط أشد الارتباط بمذهب الاوائل منذ النبى ﷺ حتى الان ويضم أعدادا لا تكاد تحصى من نخبة علماء المسلمين . اننا فى هذه الحالة أمام حقيقة كبرى : حقيقــة دين

---

(٢٠) المصــدر الســابق ص ٣٠٩ .
(٢١) المصــدر الســابق ص ٣١١—٣١٢ .
(٢٢) المصــدر نفســه ص ٣١٣ .

رب العالمين فى العقيدة والعبادات والتشريع وقيم الاخلاق والسلوك والنظم المحققة لسعادة البشرية فى الاجتماع والاقتصاد والتربية والسياسة والعلاقات الدولية ، وقد ظل السلف فى تاريخ الاسلام يحافظون عليه كما هو وارد فى أصوله بالكتاب والسنة ، ويستبعدون منه صور التحريف والاضافات ، ويفرزون الشوائب التى اختلطت بعقيدة الاسلام وعباداته وشريعته (من جدلية كلامية فى العقيدة ، وتفكير خرافى فى النظر للكون ، وعبادة سلبية اعتزالية شكلية ، وصوفية أعجمية تعتزل الحياة وتفر من معركتها واستبداد فى الحكم وركود فى الحياة الاقتصادية ، وشكلية ونصوصية ضيقة بعيدة عن الفهم الاسلامى الاول)[٢٣] .

فهل لنا بعد ذلك البيان اقتباس لفظ (السلفية) كما هو من الفلسفة الغربية واطلاقه على أصحاب الاتجاه السلفى فى الاسلام ؟

ان فعلنا ذلك فلا شك أننا نرتكب خطأ علميا منهجيا دينيا فادحا لان البعض يظن — تحت تأثير أمثال هذه الفلسفات الغربية أن اعادة تحقيق الحضارة الاسلامية بعقيدتها وقيمها يقتضى الرجوع الى الماضى أو مطالبة أهل العصر الحاضر بتقليد ما كان عليه الاجداد من سلفنا الصالح فى كل شىء ، والحق أن هذه الصورة المتأثرة بفلسفة الغرب وتاريخه وحضارته لا تمثل وجهة النظر الاسلامية الصحيحة ، فاننا فى حاجة الى تعديل طرق حياتنا لكى ترتقى الى المستوى الاسلامى الرفيع الذى تحقق ابان مجد المسلمين وذروة حضارتهم بناء على المقومات الحية التى ما زالت باقية ، وسبق أن حققت هذا النموذج — هذه المقومات هى :

---

(٢٣) محمد المبارك — الفكر الاسلامى فى مواجهة الافكار الغربية ص ٩٦ . ط دار الفكر ١٣٨٩هـ — ١٩٧٠م .

١ — ان كتاب الله تعالى محفوظ بين أيدينا ، وسنة نبينا محمد ﷺ مدونة كاملة ، وتراث العلماء واجتهاداتهم يعبر عن ذخيرة لا تنضب فى شعب الحياة المختلفة فى نظم الاجتماع والاقتصاد والسياسة والتعليم وغيرها .

٢ — ان التاريخ الواقعى المطبق لتعاليم الاسلام قد تحقق بصورة تكاد تكون مثالية فى العصور الاولى المفضلة ، وظلت تتكرر — بطريقة أو بأخرى — كلما قام المسلمون بالاستمساك بمنهجهم على التفصيل الذى سقناه آنفا .

● ✻ ● ✻ ● ✻

وخضوعا للمفاهيم الغربية الشائعة انساق البعض وراءها ظنا أنها مطابقة للتصورات الماثلة فى المجتمعات الاسلامية ، فمالوا الى الغض من أصحاب الاتجاه السلفى فى الاسلام ، ونفروا الناس منه وقاموا بحملة تشهير ظالمة ضده .

وقامت معركة حقيقية (بين الذين يحافظون على دينهم ولغتهم وتقاليدهم ، وبين الذين عادوا من أوربا وقد فتنهم بريقها ، فاستخفوا بكل تراثهم وراحوا ينفرون الناس منه)[٢٤] .

ثم فشت العصبية لما هو وارد من هذه البلاد تحت دعوى التجديد ، وأراد أصحابها تغيير كل شىء : فى الدين واللغة والادب ونظم الاجتماع والسياسة والاقتصاد بدعوى نبذ القديم والبالى والاخذ بالجديد والحالى .

---

(٢٤) د. محمد محمد حسين — الاتجاهات الوطنية فى الادب المعاصر جـ٢ ص ٢٣٢ مكتبة الاداب بالجماميز — القاهرة ط ١٣٨٨هـ — ١٩٦٨م .

وفيما يتصل بالعقيدة والدين . فقد ذهب أحد أصحاب فكرة التجديد الى وصف الدين الحى الحق بأنه ذلك المتحقق فى الشعور ، المتجدد المتطور للامة المؤمنة به ، وآية خصبة فى تلك الصور المتعددة المتغيرة التى يتخذها وفقا للازمان . وتبعا للطابع العنصرى المركب فى هذه الامة : ولهذا فكل دين فى أصله رمز ، رمز قابل لما لانهاية له من أنواع التفسير التى قد يبلغ الفارق بين بعضها حد التناقض • وكلما تعددت التفسيرات لهذا الرمز ، وبلغ التعدد مرتبة عالية من الافتراق الرفيع . كان هذا من أوضح الشواهد على أن هذا الدين حى وخليق بالبقاء •

وبناء على هذه النظرة للدين فى صورته المتطورة المتجددة ، وتفسيراته الرمزية المتناقضة ، تصبح النزعات السنية أو السلفية وماإليها من حركات ، تحاول أن تأسر نفسها فى ربقة الرمز بمعناه الظاهر الاولى ، تصبح عند صاحب هذا الرأى ، علل وأزمات نفسية فى تاريخ الحياة الروحية لدين ما ، وعليه أن يبرأ منها قدر المستطاع حتى يستأنف تطوره الثرى فى مجال الروحية العليا[٢٥] ••

وقد كان الاسلام هدفا — ومازال — لحملات شديدة تختفى وراءهذه المصطلحات وأمثالها للنيل من مقوماته الراسخة المحددة للحلال والحرام والخير والشر والفضائل والرذائل . فاخترعت بدلها ألفاظا تنقصها المدلولات والضوابط ، كالقديم والجديد والرجعية والثورية ، واليمين واليسار ، والثبات والتطور ، والظاهر والباطن ، والحقيقة والرمز أو التأويل وكلها تتأرجح متذبذبة ذات اليمين وذات الشمال كبندول الساعة لا يستقر على

---

(٢٥) دكتور عبد الرحمن بدوى سخصيات قلقة فى الاسلام — المقدمة صفحه (ى) ط دار النهضه العربية بالقاهرة ١٩٦٤م

حـــال •

وتجددت المعارك ولبستأثوابا متعددة منذحملات الغزو الاستعمارى فى مطلع القرن الحالى ، مما دفع بأصحاب الاتجاه السلفى لمواجهتها وابطال مفعولها • ومن هؤلاء الامير شكيب أرسلان الذى علق على محـــاولات المتغربين بقوله : —

قلما رأيت من هذه الفرقة الا الادعاء الفارغ والنزوع الى الثـورة على مايسموته بالقديم ، وهم ينسون أن هناك مبادىء ثابتة وبديهيـــات ليس فيها قديم وجديد ؛ وأن الاثنين والاثنين أربعة من مائة ألف سنــة فلا نقدر أن نعمل على ذلك ثورة ، وأن المقولات العشر مما لاتتناوله هـذه الثورة ، وأن الثورة أنما هى واجبــة على الجهـل والوهم لا على الحـق والعلم[٢٦]

وعلى ذلك فان وحدة الدين كما عرفه سلفنا وكما ترشد اليه أصولـه نابع من وحدة عقيدته وأتفاق الغالبية عليها • وعلى العكس ، فان الصور المتعددة المتغيرة لم تظهر الا عندما أنقسمت الجماعة الاسلامية الاولى الى فرق وأحزاب ، كل حزب بمالديهم فرحون ، فتفتت كيان الامـــة وكسرت شوكتها •

ومنذ أنشق الصف الاسلامى فى عصوره الاولى ، ظهرت الخـوارج والشيعة والقدرية والمذاهب الكلامية والفرق الصوفية والمدارس الفلسفية وكلها ذات تفسيرات تتفاوت فى انشقاقها عن عقيدة الاسلام ذات اليميـن وذات الشمـال •

ولم يبق العقيدة الاسلايمة على أصالتها ونقاوتها ولمعانها الا الطائفة الظاهرة على الحق ، التى ظلت تعض بالنواجذ على الكتاب والسنة بالطريقة

---

(٢٦) من كتاب مصطفى صادق الرافعى — تحت راية القـرآن ص ٣٩ • المكتبة التجارية ١٣٨٥هـ — ١٩٦٦م

التى كان عليها رسول الله ﷺ وأصحابه ، ويوضح لنا ابن تيمية مكانة الصحابة وسلامة منهجهم وتكامله بقوله :

(فهم صفوة الامة وخيارها المتبعون للرسول ﷺ علما وعملا،يدعون الى النظر والاستدلال والاعتبار بالآيات والادلة والبراهين التى بعث الله بها رسوله ، وتدبر القرآن وما فيه من البيان ، ويدعون الى المحبة والارادة الشرعية ، وهى محبة الله وحده وارادة عبادته وحده لاشريك له بما أمر به على لسان رسوله)(٢٧) .

ولقد تتابع السلف جيلا بعد جيل آخذين بطريقتهم ، ووقف علماؤهم بصلابة ازاء كل محاولات التجزئة والبتر والتأويلات الكلامية والتخريجات الفلسفية والتفسيرات الرمزية الباطنية . فلم يهنوا ولم تفتر لهم همة .

وما على القارىء لكى يعرف هذه الحقيقة ، الا قراءة بعض صفحات التاريخ ، اذ يعثر على خيط طويل يمتد فيربط فى سلسلة متماسكة منذ الاوائل حتى عصرنا الحاضر ، حيث وقف علماء السنة بالمرصاد ، مبينين الانحرافات عن الاصول الاسلامية ، وربما لاتسمح لنا هذه الدراسة بالتوسع فى بيان ذلك الا بالقدر الذى يحقق توضيح الفكرة التى نحن بصددها ، وهى أن الاسلام ظل محفوظا فى الاصلين العظيمين : الكتاب والسنة ، وأن تلقيه وتطبيقه بمنهج السلف هو الذى حفظه حتى الآن،وكل انحراف عن منهجهم كان سببا فى اضعاف المسلمين ، لانه ساهم فىتقويض أركان المجتمع الاسلامى ومساندة أعدائه . ومن هنا عارضوا نفاة القدر بسبب أفكارهم لاصل من أصول الايمان المثبتة للعلم الالهى الازلى المطلق،

(٢٧) ابن تيمية — النبوات ص ٥١ . نشر المطبعة السلفية ومكتبتها بالقاهرة ١٣٨٦هـ .

وأيضا حاربوا نزعة الجبرية التى ساهمت فى ركود الهمم واضعاف الارادة الانسانية وتغليب سلبيتها على جانبها الايجابى النشط .

ووقف السلفيون ازاء تجزئة عقيدة الاسلام الى دوائر عقلية — لدى المتكلمين والفلاسفة — أو عاطفة وتفسيرات وجدانية ذوقية لدى الصوفية وماجهود العلماء الكبار منذ عصر الصحابة والتابعين أمثال : الحسن البصرى وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير . الى أمثال ابن حنبل وابن قتيبة والدارمى والشافعى ومالك وابن خزيمة والشاطبى وابن تيمية وابن القيم والشوكانى وابن الوزير اليمانى وغيرهم ... ماجهود هؤلاء العلماء الا عمل من أعمال المحافظة على الاسلام فى مصادره وعقيدته وعباداته ومعاملاته وأنظمته وفقا لطريقة السلف ، فحال ذلك دون ادخال أية تحريفات كما حدث فى اليهودية والنصرانية ، بل أستطاعوا فضح كل المحاولات التى بذلت من هذا القبيل ، وأصبحت مؤلفاتهم معبرة عن الاصالة لاظهار المخالفين المبتدعين وتوعية المسلمين من خروجهم عن المنهج الاسلامى الصحيح .

فقد وقف الفقهاء والمحدثون فى وجه الدولة العباسية فى عنفوان قوتها عندما رأوا ما يؤخذ على بعض خلفائها وولاتها ، فقد ضرب أبو حنيفة على القضاء ، وأوذى الامام مالك لنشره الحديث (ليس على مستكره طلاق) عندما أرغم المسلمون على حلف يمين الطلاق بمناسبة البيعة للمنصور . وصمد الامام أحمد صمودا جبارا ازاء محاولات تفسير الاسلام تفسيرا كلاميا مخالفا لنصوصه ابان محنة خلق القرآن .

وجاء ابن تيمية ليجدد فهم الاسلام على طريقة السلف فى وقت يظن المتصفح لتاريخ عصره أن عقول المسلمين قد توقفت وجمدت على آراء

علماء الكلام والفلاسفة وشطحت مع فرق الصوفية . وكأن الجميع قد نسوا أن القرآن الكريم ما زال غضا طريا بين أيديهم ، وأن سنة الرسول ﷺ تغنيهم عن الدروب التى سلكوها .

ثم رأينا فى العصر الحديث كيف قام الامام محمد بن عبد الوهاب للاطاحة بمظاهر الشرك والوثنية لتخليص عقيدة التوحيد من جديد بعد أن ران عليها دنس الجاهلية مرة أخرى ؛ وتابعته معظم الحركات المعاصرة فى العقيدة ومسالك الجهاد حتى يمكن القول ان دعوة الامام تشكل الاثر الحاسم فيها جميعا ، لانها بدأت بالقاعدة التى انطلق منها ، أى عقيدة التوحيد .

وقبل الدخول فى شرح تفاصيل ما تقدم يلحظ الباحث أن هذا العصر شهد الكثير من المعارك حيث قامت الشعوب الاسلامية بثورات متوالية حيث أبت الضيم مصممة على تحرير أراضيها واستعادة كرامتها وتأكيد شخصيتها المستقلة .

وكان قد تأكد للاستعمار فى ضوء هذه المعارك والمنازعات استحالة بقائه ما دامت الامة الاسلامية مستمسكة بعقيدتها ومعتزة بشخصيتها ، فاستخدم الاستعمار وأعوانه أسلحة أخرى أمضى وأشد فاعلية من أسلحة المدافع والبنادق والقنابل ، حيث استطاع بما له من سلطان على أجهزة الحكم أن يربى أجيالا وفقا لمناهج التعليم الغربى ، وأشهرها منهج (دنلوب) فى مصر ، كما أنشأ المدارس والجامعات الاجنبية ذات التبعية لمقارها الرئيسية بأوروبا ، وشجع ارساليات التبشير على مزاولة مهامها ، وتوسع فى ارسال البعثات الخارجية ودعم المؤسسات الثقافية الغربية التى تنافست فى اجتذاب أكبر عدد ممكن من الشباب والرجال والفتيات والنساء سعيا وراء بقاء النفوذ الاجنبى وتمكينه من حكم البلاد من وراء الستار .

كذلك عمدت الدوائر الاستعمارية — بتعاون مع بعض علماء الاستشراق — الى ابتداع وتشجيع ظهور نحل ومذاهب جديدة — تنتمى الى الاسلام اسما وهو برىء منها — كالقاديانية فى القارة الهندية ، وسنرى انها من وضع الانجليز ، أو البهائية التى تحتضنها الصهيونية ، وغير ذلك من مذاهب غير اسلامية فى حقيقتها ، سنخصص لها الحديث فى الفصل الثالث من هذا الكتاب ، لكى نبرهن أنها بعيدة كل البعد عن الاسلام كما تلقاه المسلمون عن السلف ، بل ان بعضها خارج عن الملة •

وعلى أية حال ، فان صدى ذلك الصراع العقائدى ظهر على مسرح الفكر بصورة عامة فى شكل ثلاثة اتجاهات وسنتكلم أولا بايجاز عن الاتجاهين المعروفين اللذين خلفهما الاستعمار الغربى فى الشرق الاسلامى وفقا لقانون الفعل ورد الفعل :

أولا : الاتجاه الاول :

تحبيذ ثقافة الغرب والمطالبة بالحاح بالاخذ بحضارته ويعبر عنه (المتغربون) •

وقد ظل هذا الاتجاه صاحب اليد الطولى منذ الاستعمار العسكرى ، وبعد أن خفت قبضته بقى نفوذه الثقافى والاقتصادى والسياسى متغلغلا فى عقل الامة : حيث بقى فى عقول بعض الطلائع المثقفة من رجال الفكر والادب والفن والحكم والاحزاب السياسية ، وربما كان البعض منهم يدفعه الاخلاص فى النهوض بأمته والسير بها قدما نحو اللحاق بحضارة العصر المتفوقة ، وعذره مشاهدة الواقع الاليم للعالم الاسلامى حينذاك ، ولكن البعض الاخر كان مندفعا برغبة النفوذ والسلطان أو الشهرة والجاه

والمناصب وغيرها من شهوات النفس وأطماعها ، فكان من السهل على رجال الاستعمار وأعوانه اصطيادهم بهذا الطعم الذى قلما يزهد فيه الرجال .

ثانيا : الاتجاه الثانى :

نظر أصحاب هذا الاتجاه الى الحضارة الغربية بأعمالها الشائنة التى كانت معبرة عن روحهـا الحقيقية وفلسفتها المتـوارثة من حيث التميـيز العنصرى الذى ينظر الى غير الاوروبيين نظرة الاحتقار . والحق أن هذه الاعمال الشائنة كانت تخفى عن أجيالنا عن عمد ، ولكن مضى وقت الكتمان وظهرت الاسرار وطفت على السطح مخازى هذه الحضارة فعرفها القاصى والدانى .

يصف الاستاذ رجاء جارودى بعض هذه الفضائح بقوله (ان جرائم الامبريالية النازية امتداد لجرائم الامبريالية الغربية جمعاء ، بدءا بابادة عشرات الملايين من الهنود الحمـر الامـريكيين ومـرورا بتقتيل أكثر من مليونى زنجى فى أفريقيا ، لنصل أخـيرا الى اختطاف عشرة ملايـين من المستعبدين الى القارة الامريكية)[٢٨] .

ولوحظ أيضا أنه من أهداف الاحتلال العسكرى الغربى اذابة شخصية البلاد المستعمرة فى حضارته وتغيير ما بأنفسهم من روح الاعتزاز بعقيدتهم والتعلق بلغتهم وبتاريخهم والاكبـار لحضـارتهم تغيـيرا يسلمهم الى الخضوع لارادته ، ويعلم أنه لن يستطيع أن يؤدى عمـله الا اذا مهـد له

---

(٢٨) رجاء جارودى ـ كتاب (ملف اسرائيـل .. احـلام الصهيونيـة واضاليلها) المنشور بجريدة الاهرام يوم الخميس ٢ جمادى الاخرة ١٤٠٣هـ ـ ١٧ مارس ١٩٨٣م ص ٥ .

السبيل بتوجيهات خاصة ومنازع جـديدة تقطع صـلة المسـلمين بدينهم وتضعف نوازعهم الى الاستقلال عنه والتمرد عليه[٢٩] .

وليس بمستغرب اذن أن تقابل هذه الرغبة الاستعمارية العـدائية باتجاه مضاد فى العالم الاسلامى ، وكان لاصحابه العذر لمـا وجـدوه من تصميم على محاربة عقيدتهم مع التسلط والقهر ومحاولة الاعتداء على تراثهم ومقدساتهم ، فأنكروا كل ما يمت بصلة الى الحضارة الغربية ، لان أبناءها جاءوا للغزو والحرب ، وأشاعوا فى بلاد المسلمين التخريب والدمار قتـلا وتعذيبا وتشريدا وافسادا للعقيدة والاخـلاق ، فكيف يقبـل المسـلمون استخدام وسائلهم ومخترعاتهم وهم الاعداء الالداء ؟

وهكذا انسحبت الكراهية على أبناء هذه الحضـارة ومنتجاتهـا معا ، وعدوها شرا كلها فلم يأخذوا منها شيئا وحاربوا منازعها لانهم مقتـوها بسبب ما أحدثته لهم ولبلادهم فنادوا بتحريم الاخذ بها ، حتى انه حـين ظهرت المطابع وعزمت الدولة على طبع القرآن الكريم حرم الفقهاء حينئذ طبعه وصاروا يفتون بتحريم كل جـديد وتكفير كل من يتعـلم العـلوم الطبيعية[٣٠] .

ثالثا : الاتجاه الثالث :

أما أصحاب الاتجاه الذى يرى الالتزام بمنهج السـلف فانه يربط

---

(٢٩) محمد بهجة الاثرى — الاتجاهات الحـديثة فى الاسـلام ص ١٩ — المطبعة السـلفية

(٣٠) سميح عاطف الزين — عوامل ضـعف المسلمين ص ٢٢ — ط دار الكتاب اللبنانى .

بين عقيدة الاسلام والحياة العصرية[٢١] ، فقد رأى أن الملاذ الوحيد هو الاحتماء بالتراث الاسلامى ، والتشبث بعقيدة التوحيد ، مع التمسك بالشخصية والذاتية الاسلامية التى تتحدد مقوماتها بالعبادات والسلوك والاخلاق والنظم ومعرفة الغاية والهدف لهذه الامة والسعى الدائب لتحقيقه .

واذا حافظت الامة على هذه المقومات والملامح فلا ضير بعد ذلك من الحياة وفق أساليب العصر العلمية — التكنولوجية — بل ان المطلوب مزاحمة الامم ومنافستها فى مضمار السباق العلمى والانتاج بأنواعه : الزراعى والصناعى ، كما فعلت اليابان وألمانيا مثلا بالرغم من هزيمتهما الساحقة فى الحرب العالمية الثانية ، ولكنهما احتفظتا بأصولهما الثقافية والحضارية .

ما المانع اذن أن تمضى أمتنا قدما فى نفس الطريق مع المحافظة على الاصول العقدية المتلقاة من السلف ؟

ان القارىء لتاريخ الحروب والصراعات يستقرىء محافظة هذه الامة على مقوماتها بالرغم من هزائمها فى ميادين القتال وزحزحتها عن مركز الصدارة .

---

(٢١) ينظر كتاب (الاسلام الممتحن) للاستاذ محمد الحسنى — رحمه الله — حيث يرى ان الموقف الصحيح من الحضارة الغربية يتمثل فى الاخذ بالعلوم والصناعات وهى ليست حكرا لاحد مع التبرؤ من الثقافة والاداب التى تحدد المفاهيم والاهداف وتكيف المجتمع والحياة . كما يحلل عوامل التفوق فى الغرب بالنهضة فى التنظيم والادارة ، والعمل الدائب فى حقول الصناعة والتجارة والعلوم التطبيقية ، وهى كلها من المنافع التى لا بد من اقتباسها من الغرب ، أما المحظور فهو الاخذ بمنهج العلم والنظر الى الكون والانسان لان الحضارة الغربية انحرفت عن جادة النبوة والهداية وثارت على القيم والاخلاق الرفيعة (ص ٥٢—٥٣) ط المختار الاسلامى ١٣٩٧هـ — ١٩٧٧م .

وهذا ما يراه الاستاذ الدكتور حسين مؤنس نتيجة بحثه فى تاريخ الحضارة الاسلامية ، اذ يقرر انه اذا كانت الحضارة كلها ثمرة جهود الناس أى الامة (فان حضارة أمم الاسلام ظلت حية نشطة معظم الوقت تقريبا ، نعم كانت هناك عصور ازدهار وركود ، ولكن الركود لم يصل الى درجة الجمود التام قط ، لان الامة كانت تغذى مؤسساتها الحضارية العامة كالقضاء والعلم والفقه والحسبة ، ومؤسساتها الخاصة كالنقابات والطرق الصوفية والمدارس والزوايا والتكايا)[٣٢] .

ونود أن نضيف الى ذلك أن ذروة حضارتنا قد تحقق بالانصياع لتعاليم الكتاب والسنة جنبا الى جنب مع معرفة رسالة الامة الاسلامية عالميا .

لذا فان بحث العلاقة بين السلفية والحضارة الاسلامية يقتضى بيان طريقة تلقى السلف للاسلام علما وتطبيقا التى قامت على أثرها الحضارة فى ذروتها .

ثم نوضح بعد ذلك الاجابة على التساؤلات المطروحة حول مدى استناد السلف الى أحكام العقل فى منهجهم .

وسنعرض لذلك كله فى الفصل التالى عن السلفية والحضارة الاسلامية :

---

(٣٢) د. حسين مؤنس : الحضارة ص ١٧٤ .

الفصـــل الثـــانى

السـلفية والحضـارة

مقــــدمة :

ـ الحضـــارة الاسـلامية

ـ السلفية والحضارة الاسلامية •

ـ الحضارة الاسلامية فى عصر السلف الصالح •

ـ الاســـلام دين التوحيــد •

ـ منهج السلف فى فهم الكتاب والسنة •

ـ منهج السلف والنظر العقلى •

ـ مكانة (العقل) فى المذهب السلفى •

ـ أسباب مناهضة السلف للمتكلمين فى الدين بغير طريقة المرسلين •

ـ موقف السلف من الفلسفة •

ـ العقل بين الفلسفة اليونانية والشرع الاسلامى •

ـ تجديد المنهج السلفى على يد شيخ الاسلام ابن تيمية •

ـ أثر عقيدة التوحيد عند السلف فى النظر العلمى للمسلمين •

مقـــدمة :

الحضـــارة الاســـلامية :

ان من أفضل السبل لمعرفة فضائل الحضارة الاســـلامية مقـــارنتها بغيرها من الحضارات ، لا سيما الحضـــارة الماثلة أمامنا وما تزال مسيطرة فى العالم — أى الحضارة الغربية •

فمن حيث النشـــأة والانتشار ، اســـتغرق الزمن الذى انتشرت فيه الحضارة الرومانية نحو ألف عام ، بينما ازدهرت حضارة المسلمين خـــلال ثمانين عاما فقط •

كذلك تعرضت الحضارة الاسلامية لغزوات الابادة والازالة ، ومـــع هذا ظلت تتحدى وبقيت صامدة ، ولم تنحل رابطتها السياسية الا عنـــدما نجح أعداؤها فى حل الخلافة العثمانية •

واذا قارنا — كما فعل الاستاذ محمد أســـد (ليوبولد فايس قبـــل اسلامه) بين الخطوب التى توالت عليها وبين غـــيرها ، لاذهلتنا نتيجـــة المقارنة :

فان حضارة روما مثلا قد انقرضت بعد مضى ألف عام من تاريخها ولم يبق منها سوى معالم فى الادب والبناء •

وتعرضت حضارة الاسلام للغزو الخـــارجى المتتابـــع على اتســـاع رقعتها الجغرافية •

ويحدثنا التاريخ عن حضارة الصين التى اندثرت بالرغم من بعـــدها عن متناول الغزوات وأخطرها ، أى غزوات التتار •

فما السر فى بقاء حضارة المسلمين رغم اتســاع رقعتها وتاريخهــا الطويل الملىء بالصعوبات والكوارث الخارجية ؟

يرجع ذلك الى عنايتها بالروح والاخلاق والمثل العليا ، والفضل الى بقاء أصولها سليمة لم تصل اليها يد التبديل ـ القرآن والسنة .

وقد فهم أعداؤها سر قوتها فوقف غلادستون يطالب بمحاربة القرآن الكريم[1] .

ومن المقرر بين المطلعين على آراء مؤرخ الحضارات توينبى انه جعل من الدين ركنا أساسيا فى انقاذ الحضارات[2] .

لذلك فانه يشفق أشد الاشفاق من سلخ الحضارة الغربية عن تراثها المسيحى .

ومن ملاحظاته فى هذا الصدد أن عملية الردة بطيئة شاقة ، ويشــك فى جدية الجهود التى بذلها كل من : ديكارت وفولتير وماركس وماكيافيللى وهوبز وموسيلينى وهتلر لانتزاع الصبغة المسيحية عن الحياة الغربية[3] .

كذلك اعتبر توينبى فلسفة ديكارت بصفة خاصة بمثابة تحدى لعقيدة الغرب الدينية[4] .

ويبدو اخلاصه لعقيدة الدينية المسيحية أشد ما تكون عنــدما تشتد حملته على اليهــودى الالمــانى كارل ماركس (١٨١٨ ــ ١٨٨٣م) الذى

---

(١) محمد اسد : الاسلام على مفترق الطــرق ص ٢٧ــ٤١ ــ ترجمــة د. عمر فروخ ــ دار العلم للملايين ــ بيروت .

(٢) لمعى المطيعى ــ ارنولد توينبى ص ١٥٣ ــ عرض ودراســة ــ ط دار الكاتب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة فبراير سنة ١٩٦٧م .

(٣) توينبى ــ موجز تاريخ الحضارة جـ٢ ص ٢١٠

(٤) موجز تاريخ العالم جـ٢ ص ٢٠٧ .

صور بألوان مستعارة من الرؤيات المهنة التى انبثقت عن تراث دينى كامن فى أعماق لا شعوره ونبذه هو نفسه صور صورة مذهلة لانفصال البروليتاريا وما يتلوه من حرب طبقية .

وهذا ما دعاه الى اعتبار الشيوعية الماركسية مثالا بغيضا الى النفس يقوم بين ظهرانى فلسفة غربية حديثة تحولت تحولا لا شبهة فيه خلال عمر واحد . الى عقيدة دينية ، سالكة طريق العنف ، مقتطعة بالسيف أورشليمها الجديدة من سهول روسيا(٥) .

وفى ضوء هذه النظرة المقارنة فان المدخل الصحيح لدراسة أعمـدة الحضارة الاسلامية هو دراسة عقيدة التوحيد التى حافـظ عليها السلف بالنواجذ فارتفعت الحضارة وقامت على هذا الاســاس المتين ، وأصبحت العلاقة طردية بينهما .

ولما كانت هناك دراسات وأبحاث عنيت بمنهاج الحضارة الاسلامية فى العلوم والاداب والفنون حسب مناهج البحث المناسبة لها ، فاننا سنعنى بجانب العقيدة وكل ما دار حولها من حيث منهج السلف فى فهمها وتلقيها ، وتصديهم للمناهج الاخرى التى أضعفت من شأنها .

وسنبدأ ببيان العلاقة بين السلفية والحضارة الاسلامية .

---

(٥) موجز تاريخ العالم جـ٢ ص ١٥٦ و ص ٢٠٧ . ويقصـد بأورشـليم الجديدة موسكو التى اصبحت فى العقيدة الشيوعية مثلما كانت أورشليم — المركز الروحى لليهودية ثم للمسيحية — المترجم — هامش ص ٢٠٧ .

ثانيا : السلفية والحضـــارة الاسلامية

اذا كانت الحضارة الاسلامية ما زالت قائمة كمجتمعات حية فى رأى توينبى ، فما الذى يمنع تحركها لقيادة العالم من جديد ؟

انه وفقًا لنظريته عن عدم موت الحضارة بالمعنى العضوى ، وانمـــا تختفى • وقد يكون هذا الاختفاء لمدة قرون ثم تعود للظهـــور • كما يؤمن كبير مؤرخى العصر فى أعماقه بأن الحضارة الاغريقية هى السلف الحقيقى للحضارة الاوربية الحديثة ، وهو يرى أن الحضارة الاغريقية قـــد اختفت ثم عادت ملامحها للظهور فى الحضارة الاوربية الحديثة[6] •

ولكن الحضارة الاسلامية ــ باعترافه ــ لم تمت عضويا ، بعـــكس الأغريقية . ويرجع الفضل فى بقائها الى بقاء العقيدة • وظل دور السلفيين باقيا فى احياء عقيدة التوحيد وفهم الاوائل للاسلام ، لان الاسلام ــ كما يذكر توينبى ــ قد أعاد توكيد وحدانية الله فى مقابل الضـــعف البادى فى تمسك المسيحية بهذه الحقيقة الجوهرية[7] •

واستمدت السلفية فى المحافظة على التوحيد فى جوهره النقى ، فمنعت تردى العقيدة الدينية الى أى صورة من صور الوثنية ، لان أية عقيدة دينية ــ فى رأيه ــ تواجه خطر التردى فى عبادة الاوثان ، وأن العقيـــدة الدينية لتتعرض خاصة الى الانزلاق فى هذا المنحدر المؤدى الى جهنم ، بعد ما تكابد ألوانا من الضربات القاصمة ، وخاصة اذا جاءتها من أناس ينتمون اليها[8] •

---

(٦) لمعى المطيعى ــ ارنولد توينبى ص ٢٩ دار الكاتب العربى للطباعـــة والنشر القاهرة العدد ١٤٨ فى ٢٢ـ٢ـ١٩٦٧م •

(٧) مختصر دراسة التاريخ جـ٣ ص ١٦٤ ــ العربية ط ١٩٦٤ ترجمة فؤاد محمد شبل ـ جامعة الدول العربية .

(٨) نفس المصـــدر ص ٢١٠ــ٢١١

ويقصد بذلك اما المثال التقليدى عن تجسيد المجتمع للسيادة السياسية كما حدث فى مصر فى عصر الدولة القديمة فى انسان بشرى (وهو فرعون) أو وثنية تأليه (أم البرلمانات) فى وستمنستر بانجلترا ، فان هدف الوثنية السياسية فى هذا المثال ليس رجلا لكنه هيئة [٩] .

أما الضربات القاصمة فى تاريخنا ، فقد كان مصدرها أناس يدعـون أنهم ينتمون الى الاسلام عامة أو التشيع خاصة ، بينما حملوا معاول الهدم ليغيروا معالمه من جذورها ، ولا يستطيع المسلم معرفة خدعهم وحيلهم الا بوقوفه على الطريقة السلفية فى فهم الاسلام والعمل به .

ولهذا فقد هتك علماء السلف أستارهم مع تعدد أجناسهم وكثرة فرقهم اذ تشمل (طائفة من المتفلسفة والقرامطة الباطنية والاسماعيلية ونحوهم ، كابن سينا وأمثاله وأصحاب رسائل اخوان الصفا والعبيديين الذين كانوا بمصر من الحاكمية وأشباههم . وهؤلاء كانوا يتظاهـرون بالتشيع وهم فى الباطن مـلاحـدة)[١٠] .

وقد سبق أن قلنا ان مفهوم السلفية كمنهج فى الاسلام ، لا يعـنى جيلا أو أجيالا مضت ، ولكن تتسع دائرته فتشمل الحاضر والمستقبل أيضا لانه لا يتعلق بالزمن والعصور لكن باتباع الطريقة الواحدة الثابتـة حتى لو كان أصحابها أفرادا قلائل ، فمن دواعى بقـاء الحضـارة الناجحـة ، استطاعة القلة من الطلائع مجابهة التحديات[١١] .

---

(٩) نفس المصـــــدر ص ٧٧ــ٧٨ .

(١٠) ابن تيمية :كتاب الصفدية جا ص ١ــ٢ تحقيق د. محمد رشاد سالم ط الرياض ١٣٩٦هـ ــ ١٩٧٦م .

(١١) كولن ولسون : سقوط الحضارة ص ١٥٠ .

ثالثا : الحضارة الاسلامية فى عصر السلف الصالح

وليست غايتنا نبش التاريخ لفحص سجلاته تحريكا للاشجان وبعثا للاحزان ، انما نبتغى اجلاء الحقائق وصولا الى موقف جيل المسلمين الاول — وهم الصحابة والتابعين والسائرين على دربهم •

والسلفية كما يعرفها الشيخ الغزالى (ليست فرقة من النـــاس تسكن بقاعا من جزيرة العرب وتحيا على نحو اجتماعى معين •

ان السلفية نزعة عقلية وعاطفية ترتبط بخير القرون ، وتعمل ولاءها لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وتحشد جهود المسلمين المـادية والادبيـة لاعلاء كلمة الله تعالى دون نظر الى عرق أو لون ، وفهمها للاسلام وعملها له يرتفع الى مستوى عمومه وخلوده وتجاوبه مـع الفطرة وقيامــه على العقل[١٢] •

ولا ننسى ولو برهة واحدة أنهم أفضل الخلق بعد رســول الله ﷺ ، وقد عبروا عن آرائهم كبشر يجــوز عليهم الخطأ ؛ وأقامــوا دولة كبرى ، ووسعوا حدودها الى أطراف المعمورة ، وجــذبوا اليها بطــريق الدعــوة بالحكمة والموعظة الحسنة والاسوة فى مجال العقيدة والاخلاق والمعاملات، جذبوا اليها الملايين من أجناس وأقوام وأصحاب أديان متباينة فى شــتى بقــاع الارض •

وظهر أثناء ذلك كله مشكلات ، والتحمت جيوش . ولكن تركــوا لنا مواصفات أفضل مجتمع وأرقى نظام طبق على المستوى البشرى — فنحن لا نعتقد عصمة أحد بعد رسول الله ﷺ — فهو اذن أفضل مجتمع قياســا

---

(١٢) الشيخ محمد الغزالى — دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين ص ١٢٠—١٢١ ط دار الانصار بالقاهرة ١٤٠١ هـ .

على غيره من المجتمعات والدول التى حفل بها تاريخ بنى الانسان . لا سيما أتباع الرسل والانبياء .

لقد سبقونا فى الايمان والعلم والعمل وتفاعلوا مع عقيدة الاسلام ومبادئه ، فأقاموا صرحا شامخا أصبح بمنجزاته كالفنارات على شواطئ المدن الساحلية ، تهدى اليها السفن فى ظلمة الليالى الحالكة السواد .

وكل من يقرأ التاريخ تأخذه الدهشة ويتملكه العجب من التحول العظيم لسكان الجزيرة العربية من حال الى حال ، وليس هناك أصح من تعليل ذلك بسبب عقيدة الاسلام التى جذبت اليها العقول والقلوب ، فدخل الناس فى دين الله أفواجا ، وكان الايمان هو المحرك الاول لها ، حيث أمدها بالزاد المتمثل فى ايقاظ فطرة معرفة الله تعالى الكامنة فى النفوس وأعطى للحياة معنى وحدد لها هدفا وغاية .

وتكمن قوة العقيدة الاسلامية كما فهمها السلف الصالح — تكمن فى مصدرها الالهى وشمولها للكيان الانسانى كله روحا وجسدا ، وتغطى مجال نشاطه لاعمال الدنيا والاخرة ، حيث تغذى فى الافئدة حب الحق والدعوة له ، وبذل المهج فى سبيل جعل كلمة الله هى العليا ، فلا عجب أن تجمع الناس حولها فاستطاع العرب بعد اسلامهم — وليس قبله كما يروج القوميون العرب — أن يهزموا دولتى الفرس والروم ،وينشروا دعوة الحق والخير فى ربوع بلاد العالم المعروفة آنذاك .

ولكن الحياة الدنيا أقيمت على الابتلاءات والمحن ، فكل ارتفاع يعقبه هبوط وكل فرح يعقبه حزن ، وكل لذة يتبعها ألم ، وكل تقدم يعقبه تقهقر ، وكل نصر يعقبه هزيمة ، وهكذا دواليك الى أن تنتهى الدنيا وتنتقل البشرية الى حياة الاخرة حيث تتبدل الاحوال ويأتى أوان الثواب والعقاب على الاعمال فى الحياة الدنيا .

وفى ضوء هذه الحقيقة ، ظهر رد الفعل لانتصار الاجيال الاولى ، حيث أثارت عداء أقواما من أهل الملل والنحل كاليهود والنصارى والثنوية من المجوس والدهريين وغيرهم ، فوضعوا الخطط لمحاربة عقيدة الاسلام فى أصالتها ونقائها ، وتفتقت أذهانهم عن حيل كثيرة لمحاربتها بغية القضاء عليها بوسائل أخرى غير وسيلة الحروب فى ميادين القتال ، فأخذوا على عاتقهم اثارة المشاكل وفتح باب الجدل فى العقائد التى تنحرف بعقيدة السلف فتضعفها وتقلل من آثارها كما سيتضح لنا عند بحث دراسة الفرق المناهضة للسلف .

وأيضا فبمقتضى النظرة العصرية فقد ثبت أن ذروة الحضارة الاسلامية تحققت فى العصور الاولى ، فاذا استخدمنا منهج المقارنة بينها وبين قواعد التعامل الدولى فى المجتمعات الاوروبية المعاصرة من حيث السعى الى نشر العقيدة أو الايديولوجية فهاهنا يثبت بناء على البحث الذى أجراه الاستاذ الدكتور حامد ربيع — ان الحضارة الاسلامية هى النموذج الوحيد فى التاريخ السياسى الذى جعل منطلق الصراع الخارجى والمحلى ينبع من مفهوم واحد وهو نشر العقيدة ، فقد كانت قواعد التعامل مع غير المسلم وفى أثناء القتال لا بد وأن تخضع لقواعد واحدة أساسها الكرامة والشهامة واحترام الانسانية الفردية[١٣] .

وبالرغم من بعض الاستثناءات التى عرفت خلال العصر العباسى التى تعكس تدهورا عما قبله[١٤] ، فقد بقى النموذج الاسلامى فى حقيقته أكثر

---

(١٣) د. حامد ربيع : مقدمة كتاب (سلوك المالك فى تدبير الممالك) الجزء الاول ص ٢١٦ ط دار الشعب بالقاهرة ١٤٠٠هـ — ١٩٨٠م .

(١٤) ويبرهن الدكتور حامد ربيع بدراسته الشاملة المقارنة على ان النموذج الاسلامى — وبصفة خاصة فى تطبيقه الاول خلال فترة الخلفاء الراشدين يظل بخصوص مستوى العلاقة التعاقدية بين المواطن والسلطة — يظل تطبيقا مثاليا يستحيل تصور تحققه فى مجتمعات القرن العشرين . ص ٢٠٦ .

عصرية وأكثر تقدما من الاوضاع التى نعيش فيها .

وعلة ذلك أن الحديث عن التعايش السلمى يعبر عن اقتناع بعدم صلاحية الدولة القومية الاوربية فى عالم أضحى يقوم على أساس وحدة الوجود الانسانى(٤٥) .

ونحن هنا أمام نموذجين للدولة العصرية التى تقوم على أساس الوظيفة الايديولوجية ، أحدهما :

التقاليد القومية السياسية القائمة على مبدأ الدولة الحارس وتتبلور وظيفتها الاساسية من منطلق نظام القيم ، والثانية الدولة الشيوعية التى تستخدم الاكراه المعنوى بقصد اعادة تشكيل التصور والمدركات الفردية .

ولكن اذا كان التشابه ظاهرا بين الدولة الشيوعية والدولة الاسلامية القائم على لغة العقيدة — أو التكامل الروحى فى العلاقة بين المواطن والدولة الا أن الخلاف بينهما يظهر فى الجزئيات فهو دينى حضارى فى التقاليد الاسلامية وهو أيديولوجى حركى فى التقاليد الشيوعية .

ثم يظهر الخلاف أيضا فى التعامل ، لان الحرية مطلقة فى التقاليد الاسلامية حيث لا اكراه فى الدين بينما يقتضى النظام الشيوعى الاستحواذ المطلق مع عمليات غسل المخ حيث لا مناقشة فى قدسية التعاليم الماركسية.

ويتساءل الدكتور حامد ربيع فى النهاية (فهل هناك نظام فكرى أكثر

---

(٤٥) نفسه ص ٢١٦ — ٢١٧ ملخصا .

عصرية من هذا النموذج الاسلامى للتصور السياسى)[١٦] ؟.

ولننظر بعد ذلك فى العقيدة التى حقق بها الاجيال السابقة هذه المستويات العليا من الحضارة فى شتى جوانبها :

---

(١٦) دكتور حامد ربيع . نفس المصدر ص ٢١٧ .
وينظر الجزء الثانى حيث قارن باسهاب بين الدولة القوميه ونظام القيم السياسية الاسلامية القائم على أساس فكرة العدالة (ينظر ص ٢٦٤) .
ط دار الشعب بالقاهرة ١٤٠٢هـ — ١٩٨٣م .

رابعا : الاســلام دين التوحيــد

منهج السلف فى فهم الكتاب والسنة :

لن نكرر القواعد التى أشرنا اليها فى حديثنا عن قواعد المنهج السلفى، ولكن يكفى هنا لمتابعة تسلسل موضوعنا بيان حقيقة دين الاسلام وجوهره القائم على التوحيد،فان الدين فى اللغة مصدر دان يدين دينا،اذاخضع وذل، ودين الاسلام الذى ارتضاه الله تعالى وبعث به رسله هــو الاســتسلام لله وحده ، فأصله فى القلب هو الخضوع لله وحــده بعبــادته وحــده دون ما سواه ، فمن عبده وعبد معه الها آخر لم يكن مسلما ، ومن لم يعبــده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلما كذلك ، فالاســلام اذن هو الاستسلام لله تعالى وهو الخضوع له والعبودية له[١٧] .

ومن هنا يؤكد ابن تيمية على جوهر الاسلام المبنى على العبودية لله تعالى وحده ويتبعه ويترتب عليه ضرورة وحتما العمل بمقتضاه ، فان أهل اللغة يقولون (أسلم الرجل ، اذا استسلم) ، وتفسير ذلك أن الاســلام ــ بناء على هذا الاصل ــ يعنى العمل أيضا : عمل القلب والجوارح . ولهذا قال النبى ﷺ (الاسلام علانية ، والايمــان فى القلب) ، فان الاعمــال الظاهرة يراها الناس ، وأما ما فى القلب من تصديق ومعرفة وحب وخشية ورجاء ، فهذا باطن ، لكن له لوازم قد تدل عليه[١٨] .

ولكن الاصل خشوع القلب ، فكل من خشع قلبه خشعت جوارحه ولا ينعكس الحال ، ولهذا قيل (اياكم وخشوع النفاق) وهو أن يكون الجسد

---

(١٧) ابن تيمية : كتاب الايمــان ص ١٥٤ ــ ط مكتبة انصــار الســنة المحمدية بالقــاهرة .

(١٨) المصــــدر نفســه .

خاشعا والقلب ليس بخاشع ، ومعنى ذلك أيضا أنه اذا صلح القلب صلح الجسد كله .

ومن مقتضيات الاسلام كذلك فى ضوء هذا التحليل ، التقيد والالتزام ببيان الله تعالى ورسوله ﷺ ، وهو ما كان يتقيد به السلف الصالح والسائرون على طريقهم ، ممن استسلموا لله وحده وخضعوا له وعبدوه تعالى . وعلى العكس ، فقد انبثقت كافة البدع وتولدت كافة الفرق من مخالفة هذا الاصل الاصيل والركن المكين . وبيان ذلك أن المخالفين أعرضوا عن هذه الطرق (وصاروا يبنون دين الاسلام على مقدمات يظنون صحتها، أما فى دلالة الالفاظ ، واما فى المعانى المعقولة ، ولا يتأملون بيان الله ورسوله ﷺ) .

ويضيف ابن تيمية الى ذلك قوله (وكل مقدمات تخالف بيان الله ورسوله ﷺ فانها تكون ضلالا . ولهذا تكلم الامام أحمد فى رسالته المعروفة فى الرد على من يتمسك بما يظهر له من القرآن من غير استدلال ببيان الرسول ﷺ والصحابة والتابعين)[١٩] .

ويتضح من هذا الموقف المنهج الذى اتبعه السلف من أهل العلم والايمان اذ يجعلون كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ هو الاصل الذى يعتمد عليه ، واليه يرد ما تنازع الناس فيه ، فما وافقه كان حقا ، وما خالفه كان باطلا .

فاذا صحت النية ووقع خطأ فى الاجتهاد وبعد استفراغ الوسع غفر الله له خطأه سواء كان فى المسائل العلمية الخبرية أو المسائل العملية .

---

(١٩) المصدر السابق ص ١٥٤ ، ١٦٨ .

أما المخالفون لهـذا المنهج فانهم يرتكبون أربعـة أخطاء من عظائم الامـور .

أحـدها :

ردهم لنصوص الأنبياء عليهم السلام .

الثـانى :

ردهم ما يوافق ذلك من معقـول العقلاء أن الادلة الثابت صـحتها بطريق البراهين العقلية(٢٠) .

الثالث :

جعل ما خالف ذلك من أقوالهم المجملة — أو الباطلة — هى أصـول الدين .

الرابـع :

تكفيرهم أو تفسيقهم أو تخطئتهم لمن خالف هذه الاقوال المبتدعـة المخالفة لصحيح المنقول وصريح المعقول(٢١) .

والقضية تحتاج الى بحث تفصيلى أكثر حيث يتفرع عنها شرح موقف السلف من النظر العقلى بشقيه الكلامى والفلسفى :

---

(٢٠) ينظر كتابنا (منهج علماء الحديث والسنة فى اصول الدين حيث بينا كيف خالف المتكلمون المعتزلة والاشاعرة ادلة العقول عند تناولهم لقضية صفات الله تعالى وعقيدتهم فى (الجواهر الفردية) .

(٢١) ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل جـ١ ص ٢٧٧ سنة ١٣٩٩هـ — ١٩٧٩م تحقيق د. محمد رشاد سالم .

منهـج السـلف والنظـر العقلى

أو : موقفهم من علم الكلام والفلسفة

فى ظل سيادة أفكار مشوهة عن مناهج السلف ، نبتت شبهات أقـرب الى الشائعات ، أصبحت تتكرر على الالسنة وتكتب على صـفحات الكتب والابحاث والمقالات حتى صارت وكأنها حقائق لا تقبل الرد أو المناقشـة ، حتى سرت فى أوساط العامة بل الخاصة من المثقفين أيضا •

وأمام هذه الظاهرة الغريبة ، هل يحق لنا الاشادة بعبقرية (جوبلز) وزير هتلر المعـروف بدعاياته . والذى كان ديدنه تكرار الاكاذيب واعادة اذاعتها حتى يألفها الناس فتصير حقائق ؟

اننا نعال ذيوع الاوصاف الخاطئة على أصحاب المنهج السلفى بمثل هذا التعليل ، حيث وصفهم خصومهم بأنهم (نصيين) أى علامة على التقيد بالنصوص وحدها ، أو (جامدين) أى لا يقبلون الالتجاء الى المنهج العقلى ويرفضون (التفكير الحر) ، الى غير ذلك من أوصاف •

ولكن ، دعونا من الانفعالات العاطفية ، ولنلجأ الى تفنيد هذه الشبهات (أو الشـائعات) بشىء من الروية ، وبسـند من الادلة ، فنقـول وبالله التوفيق :

أولا : افتقادهم للادلة المستندة الى العقل ، أو نقدهم لعلماء الكلام•

ثانيا : عداؤهم للفلسفة والتفكير الحر أو استخدام الادلة العقلية •

مـكانة (العقل) فى المذهب السلفى

يصف خصوم السلف بأنهم (نصيين) ، أى يأخـذون بالنصـوص ويستندون اليها دون استخدام الادلة العقلية •

والحق أن هذا الظن غير صحيح بل لا يستند الى أساس ، وكان سبب اثارة الاختلاف الحادث بين المتكلمين فى مدارس المعتزلة والاشاعرة وغيرهم من الفرق وبين علماء السنة من أتبـاع منهج السـلف الصالح فى الرواية والدراية •

وسنناقش هذه الشبهة من الناحيتين : **التاريخية والموضوعية •**

تاريخيـا :

تقيد المسلمون فى الصدر الاول من الصحابة وأوائـل عصر التابعين بالمنهج الاسلامى الصحيح من حيث الارتباط بالقرآن والسنة ايمانا وعملا، ونفذوا أمر الرسول صـلوات الله عليـه فى الاستمساك بهما والارتبـاط بالجماعة وعدم الاختلاف والفرقة ، عن ابن مسعود (خط لنا رسول الله ﷺ يوما خطا فقال ـ هذا سبيل الله ثم خط خطوطا عن يمين الخـط ويسـاره وقال ـ هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه ثم تلا (وأن هـذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سـبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون)١٥٣ الانعام • يعنى الخطوط عن يمينه ويساره •

وعن عائشة رضى الله عنها (تلا رسول الله ﷺ (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشـابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) ٧ آل عمران

قالت (سمعت رسول الله ﷺ يقول (اذا رأيتم الذين يجادلون فيـه فهم الذين عنى الله فاحذروهم) •

ونهاهم صلوات الله عليه عن الجدل فى الدين فانصاعوا لاوامره قال (ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه الا أوتوا الجدل ثم قرأ قــوله تعــالى (ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون)[٢٢] .

وأمرهم بألا يضربوا كتاب الله بعضه ببعض لان ذلك يوقع الشك فى قلوبهم فنفذوا أوامره . وأمرهم بألا يتنازعوا فى القدر لانه كان سبب هلاك من كان قبلهم . وفى حديث له أيضا (لم يزل أمر بنى اسرائيل معتدلا حتى نشأ فيهم المولدون أبناء سبايا الامم فأخذوا بالرأى وتركوا السنن)[٢٣] ، وأمرهم أيضا بألا يسبوا أصحابه .

ولهذا دلت الاخبار عن الصحابة انهم لم يتنازعوا فى مسألة واحــدة من مسائل الاسماء والصفات والافعال[٢٤] وان ما تنازعــوا فيــه كان فى مسائل الاحكام[٢٥] .

ولكن كيف حدث الاختلاف على مسائل الاصول ؟

بعد أن توطدت دعائم الدولة الاســلامية فى عصر النبى ﷺ بعــد فتح مكة .

وبدأ الاسلام ينتشر فى الجزيرة العربية وخارجها فامتدت دعوته الى بلاد الفرس والروم وأفريقيا والهند .

واستطاعت الدولة الفتية أن ترهب أعداءها داخل الجزيرة العــربية وخارجها واستمرت الغزوات وايفاد السرايا أثناء حياة النبى ﷺ .

---

(٢٢) ابن بطة — كتاب الشرح والابانة ص ١٢ .
(٢٣) المصــدر الســابق ص ٩ .
(٢٤،٢٥) ابن القيم — اعلام الموقعين جا ص ٥٥

وفى عهد الصاحبين قويت شوكة الاسلام ، فاختفى خصومه الى حين •

وجاء انتصار المسلمين فى حرب الردة حاسما رادعا للمنافقين والمرتدين : فكانت معركة فاصلة حيث ظن بعضهم ان الدولة الفتية لن تتمكن من الصمود فى وجه أعدائها بعد وفاة النبى ﷺ •

وتتابعت المعارك الجهادية للدعوة الى الاسلام ، وتوالت الانتصارات لتتحول المدينة المنورة الى عاصمة دولة كبرى •

هذا على صعيد المعارك التى تحقق فيها النصر ، فحفظت الامة هيبتها وردعت أعداءها فدخلوا جحورهم منتظرين الساعة الملائمة للظهور تارة أخرى •

أما على صعيد الجدل والنقاش فقد حدثت مناقشات مع رسول الله ﷺ سجلها القرآن الكريم وكتب الاحاديث النبوية وصحائف التاريخ وكانت مع أطراف متعددة وأثناء مراحل الدعوة كلها منذ بدئها بواسطة رسول الله ﷺ بمكة مع كفار قريش الى أن انتقلت معها الى المدينة ، وحفلت بألوان من الجدل مع أهل الكتاب وغيرهم •

وفى عصر الخلافة الراشدة حسم علماء الصحابة المناقشات التى دارت مع أصحاب الاراء المخالفة •

والمواقف متعددة : منها موقف على بن أبى طالب رضى الله عنه من الخوارج والشيعة ، وموقف عبد الله بن عباس رضى الله عنهما من نفاة القدر •

وفى عصر التابعين أيضا توافر عدد كبير منهم لمعارضة الانشقاقات الحادثة فى الملة •

وازدادت الهجمات الطاعنة فى الدين والتفرق فى الاراء مع قلة أعداد المتصدين لها لموت بعض العلماء وتفرق البعض الاخر فى الامصار •

ولكن علماء السنة المتمكنين من عقيدة السلف واجتهاداتهم تحملوا فى الاجيال التالية أعباء التصدى لكل من انحرف عن الجادة ، لا سيما بعد تسلل الثقافات الاجنبية كالفلسفة اليونانية والعقائد الفارسية وغيرها من أهل الملل الاخرى بواسطة من أظهروا الاسلام وأبطنوا الكفر ، اذ لم يجرؤ أحد هؤلاء — فى رأى الدارمى — على اظهار ما فى نفسه من الكفر وانكار النبوة فرقا من السيف وتخوفا من الافتضاح . بل كانوا يعيشون مع المسلمين (وكان أول من أظهر شيئا منه بعد كفار قريش الجعد بن درهم بالبصرة وجهم بخراسان اقتداء بكفار قريش)[٢٦] •

٢ — موضوعيا :

قلنا من قبل ان المقصود بالسلف هم السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، ثم أصبح لفظ (السلف) مصطلحا يطلق على الاتجاه الذى يتخذ من مواقف السلف أصلا ومنهجا : ففى الصفات الالهية اثباتها بلا كيف ، وفى القضايا التى أثارها أهل الكلام ، يتخذون من الاوائل أسوة فى النظر والعمل . فالقرآن أولا ثم الحديث النبوى ثم الاقتداء بالصحابة (لان الوحى كان ينزل بين أظهرهم فكانوا أعلم بتأويله منا ومنكم ، وكانوا مؤتلفين فى أصول الدين لم يفترقوا فيه ، ولم يظهر فيهم البدع والاهواء[٢٧] •

ثم انهم من أصحاب الحديث ونقاده وعلمائه ، المتبعين للاثار . لانها

---

(٢٦) الدارمى — الرد على الجهمية ص ٢٥٨ (من كتاب عقائد السلف) .
(٢٧) عقائد السلف ص ٣٠٩ .

سبيل المؤمنين ، مستشهدين بمثل قول الله تعالى (ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) من ١١٥ النساء .

ويوجه اليهم خصومهم انهم مجرد نقلة يستمسكون بالرواية ولا شأن لهم بالدراية أو النظر العقلى . ولكنهم يدافعون عن أنفسهم بأنهم أهل نظر أيضا ، لانهم يتبعون الصحابة وكانوا أرباب نظر ودراية ، فالمعقول ما وافق هديهم . والمجهول ما خالفهم ، وقد عاشوا فى ظل الوحى ، ولا سبيل الى معرفة هديهم وطريقتهم الا هذه الاثار[٢٨] .

هذا ما يعبر عنه الدارمى (٢٠٨ هو) بكتابه (الرد على الجهمية) .

واليه أيضا يذهب الامام أحمد بن حنبل (٢٤١ هو) بمنهجه للرد على الجهمية نفاة الصفات الالهية .

وعلى هذا النحو مضى الامام البخارى (٢٥٦ هـ) فى كتابه (خلق أفعال العباد) لكى يصحح المفاهيم الخاطئة للجهمية والقدرية[٢٩] فى عصره الذين أولوا القرآن وفسروه طبقا لاهوائهم فانبرى لهم مصححا لمزاعمهم ، مبينا لاسباب عدولهم عن المنهج الصحيح معللا اياه بأنهم لم يعرفوا المجاز من التحقيق ، ولا الفعل من المفعول ، ولا الوصف من الصفة ..

ويقول ابن قتيبة فى كتابه (تأويل مشكل القرآن) :

وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ولغوا فيه وهجروا واتبعوا (ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) بأفهام كليلة وأبصار عليلة ، فحرفوا الكلم عن مواضعه وعدلوه عن سبيله[٣٠] .

---

(٢٨) اتباع جهم بن صفوان .
(٢٩) وهم نفاة القدر .
(٣٠) عقائد السلف ص ٢٢ .

وعلى هذا النحو ســار علماء الســلف الى ابن تيميــة وابن القيم ، وامتدت آثارهم الى العصر الحديث فى اتجاهات أمثال محمد بن عبدالوهاب والشيخ محمد عبده ورشيد رضا وغيرهم .

ولعل أهم ما كتب فى هذا الموضوع جاء بدراسه شيخ الاســلام ابن تيمية فى كتابه الموسوعى (درء تعارض العقــل والنقل) الذى يكفى ذكــر عنوانه لبيان القضية المطروحة للبحث .

وعلى أية حال فانه يصــحح الفكرة الخــاطئة عن تعــارض الادلة الشرعية مع الادلة بالعقلية ويوهم بأن الادلة الشرعية لا تستند الى العقل وهذا غير صحيح ، ويوضح ذلك فيقول (وأما كونه شرعيا فلا يقابل بكونه عقليا ، وانما يقــابل بكونه بدعيا . اذ البدعة تقابل الشرعيــة ، وكــونه شرعيا صــفة مــدح ، وكــونه بدعيا صفة ذم ، وما خالــف الشريعــة فهــو باطل) .

كما يبين أيضا دلالات الالفاظ وصلاتها بالمضمون فان كون الدليــل عقليا أو سمعيا ليس صفة تقتضى مدحا ولاذما ولا صحة ولا فسادا ، بل ذلك يبين الطريق الذى به علم ، وهو السمع أو العقل وان كان السمع لا بد معه من العقل[٣١] .

ويكفى للدلالة على أهمية العقل واستخدامه ما ورد فى القرآن الكريم من آيات تمدح العقل والتعقل والنظر والتدبر ، وتذم الذين لا يعقلون . وقد علق الشرع التكليف على العاقل البالغ وأسقطه على فاقد العقل والتمييز .

---

(٣١) ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل ص ١٩٨ مطبوع على نفقــة جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ١٣٩٩هـ — ١٩٧٩م . تحقيق الاستاذ الدكتور محمد رشــاد ســالم .

يقول ابن تيميه

ومن كان مسلوب العقل أو مجنونا فغايته أن يكون القلم قد رفع عنه، فليس عليه عقاب ، ولا يصح ايمانه ولا صلاته ولا صيامه ولا شيء من أعماله ، فمن لا عقل له ، لا يصح شيء من عباداته لا فرائضه ولا نوافله .. ولهذا قال تعالى (ان فى ذلك لايات لاولى النهى) أى العقول .

وقال تعالى (هل فى ذلك قسم لذى حجر) أى لذى عقل .

وقال تعالى (فاتقون يا أولى الالباب)

وقال تعالى (ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) .

وقال عز وجل (انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون)

وهكذا فان مدح الله تعالى وأثنى على من كان له عقل فأما من لا يعقل، فان الله لم يحمده ولم يثن عليه ولم يذكر بخير قط . بل قال تعالى عن أهل النار (وقولوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير) وقال تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) . وقال (ام تحسب ان أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم كالانعام بل هم أضل)[٣٢] .

كذلك رويت أحاديث كثيرة عن فضل العقل فى الانسان ، منها قول النبى ﷺ :

(ان الرجل ليكون من أهل الصيام وأهل الصلاة وأهل الحج وأهل الجهاد . فما يجزى يوم القيامة الا بقدر عقله) .

---

(٣٢) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيميه — المجلد العاشر ط الرياض ص ٤٣٥ — ٤٣٦ .

وعن علي قال : قال رسول الله ﷺ (والله لقد سبق الى جنات عـبـدن أقوام ما كانوا بأكثر الناس صلاة ولا صياما ولا حجا ولا اعتمارا ولكنهم عقلوا عن الله تعالى مواعظه فوجلت منه قلوبهم واطمأنت اليه النفـوس وخشعت منه الجوارح ، ففاقوا الخليقة بطيب المنزلة وحسن الدرجة عند الناس فى الدنيا ، وعند الله فى الاخرة)[٣٣] .

واذا كان الامر كذلك ، فقد يرد فى الخاطر التساؤل الاتى :

ما دامت مكانة العقل مصانة عند علماء السلف ، ويحتل هـذه المرتبة بينهم . فلم نقدوا المتكلمين المعتزلة منهم والاشاعرة وكافة الفرق ولم يوافقوا على طريقتهم الكلامية وهم يعلنون استنادهم الى أدلة العقول ويفخرون بذلك ؟

للاجابة على السؤال سنبحث أولاً أسباب مناهضة علماء السلف لطرق أهل الكلام ، ثم نبين بعد ذلك موقفهم من السلفية كاتجاه عقلى غلب عليه الاخذ بفلسفة اليونان لا بطريقة القرآن :

---

(٣٣) ابن تيمية : بغية المرتاد (السبعينية) ص ٢٣ .

اسباب مناهضة السلف للمتكلمين فى الدين بغــير طــريقة المرســـلين(٣٤)

بعد أن تبين لنا مما تقدم مكانة (العقل) فى المنهج السلفى وظهـرت براءة علماء السنة من تهمة اهمال الادلة العقلية أو عدم الاعتماد عليها ، بقى مناقشة الشبهة الثانية المترتبة على الاولى حيث يلاحظ الباحثون النقـد العنيف الذى وجهه السلف الى المتكلمين ، فظنوا أن المقصود نقـد الادلة العقلية ومنهج النظر والتدبر ، بينما يظهر التعمـق فى البحث وتوسـيع دائرته ليشمل مؤلفات علماء السنة والحديث أن النقد الموجـه للمتكلمين اقتصر على طرقهم فى الاستدلال وهى مخالفة لطريقة المرسلين ، فقد سجل لنا القرآن الكريم مناقشاتهم وجـدالهم مع الكافـرين ، وكلها ذات أسس وبراهين عقلية . أما المتكلمون فقد استعاروا مصطلحات الفلسفة اليونانية وألبسوها ثوبا اسلاميا فسببت اختلافات فى وجهات النظر ، وأدت الى أن ما ظنه البعض أدلة عقلية بينما هى غير ذلك .

وفيما يلى تفاصيل ما تقـدم :

عارض أهل القرون الاولى من علماء التابعين وغيرهم الخـوض فى قضايا أصول الدين باستخدام طريقة علماء الكلام التى بدأها المعتزلة على يد واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد ، لانها من قبيل البدع المخالفة لطـريقة القرآن الكريم ، أى بلغة عصرنا كانت طريقة المتكلمين لونا من الغزو الثقافى الزاحف من حضارات وديانات أخرى لم يعرفه المجتمع الاســلامى منـذ نشأته فى المدينة المنورة . حيث كان الوحى يتنزل على رسول الله ﷺ ، وكان

---

(٣٤) يعرف ابن تيمية علم الكلام بأنه (حقيقة عرفية فيمن يتكلم فى الدين بغير طريقة المرسلين) ، حيث يرى أن طريقة المتكلمين مخالفة فى منهجها وقواعد لطريقة المرسلين كما سنرى . (ينظر مجموع الفتاوى جـ١٢ ص ٤٦٠ـ٤٦١ .

الصحابة يتلقون منه كل الحلول للمشاكل العلمية والعملية التى تقابلهم فى العقيدة والعبادات والسلوك ونظامهم الاجتماعى والاقتصادى والسياسى ، أى أن مجتمع المدينة كان حافلا بألوان الانشطة الانسانية كلها ، ولهذا قال الامام أحمد بن حنبل ، (انه ما من مسألة الا وقد تكلم فيها الصحابة أو فى نظيرها فانه لما فتحت البلاد وانتشر الاسلام حدثت جميع أجناس الاعمال فتكلموا فيها بالكتاب والسنة ، وانما تكلم بعضهم بالرأى فى مسائل قليلة) .

وارتبط التابعون والمستمسكون بمنهجهم بنفس هذا الاسلوب فى التلقى والاستيعاب والفهم . بحيث يمكننا القول بأن الاسس التى نستخلصها من المواقف التى اتخذها العديد من الصحابة والتابعين لا تخرج عن الاستناد الى عوامل وأسباب من شأنها أن تجعلهم يقفون صفا واحدا — وعلى مدى العصور المتعاقبة — ازاء من أثاروا المشكلات الكلامية فى المحيط الاسلامى آنذاك ، ووصفوهم بأنهم (أهل بدعة) .

والبدعة فى احدى تعريفاتها (التعدى فى الاحكام والتهاون بالسنن واتباع الاراء والاهواء وترك الاقتداء والاتباع)[٣٥] .

وقد نظر المعارضون لهذا اللون من الخوض فى الدين نظره واحدة ، وكانت حججهم متعاضدة ازاء هذا الموقف فى الصراع الثقافى بين التراث

---

(٣٥) ابن تيمية — معارج الوصول الى معرفة ان اصول الدين وفروعه قد بينها الرسول ﷺ ص ٤٣ — المكتبة العلمية بالمدينة .

وفى موضع آخر من احد كتبه يتوسع فى شرح البدعة مستندا الى الحديث (كل بدعة ضلالة) ، ويميز بين البدعة فى اللغة — وهى كل ما فعل ابتداء من غير مثال سابق والبدعة الشرعية وهى كل ما لم يدل عليه دليل شرعى . وبناء على ذلك فان قول عمر رضى الله عنه (نعمت البدعة) تعد تسمية لغوية لا تسمية شرعية (ينظر كتاب اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ص ٢٦٧ — ٢٨٢ تحقيق محمد حامد الفقى — مطبعة السنة المحمدية ١٣٦٩هـ — ١٩٥٠م .

الاسلامى كما عرفه السلف وبين التيارات التى هبت عليه من الخارج .

ويمكن تلخيص عوامل معارضة السلف للمتكلمين فيما يأتى :

أولا — لقد أغنى الله تعالى المسلمين بالايات القرآنية وبعث رسوله ﷺ عن الالتجاء الى وسائل أخرى لمعرفته عز وجل واثبات توحيده وصفاته . وبعث رسوله عليه الصلاة والسلام (بشيرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا) ٣ المائدة مع تكليفه ﷺ بالتبليغ (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته) ٦٧ المائدة[٣٦] .

وقد أدى عليه الصلاة والسلام الامانة وبلغ الرسالة على خير وجه وأشهد المسلمين على اتمام التبليغ فى خطبة الوداع (الا هل بلغت ؟)وكمل اتمام الدين بقوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا) ٣ المائدة .

وهكذا لم يترك الرسول ﷺ أمرا من أمور الدين الا وقد أوضحها وأتم بيانها ، بل انه كان يبلغ كل أوامر ربه عز وجل فى التو واللحظة ولا يؤخرها (ومعلوم أن أمر التوحيد واثبات الصانع لا تزال الحاجة ماسة اليه أبدا فى كل وقت وزمان ولو أخر عن البيان ، لكان التكليف واقعا بما لا سبيل للناس اليه ، وذلك فاسد غير جائز)[٣٧] .

ثانيا — خشية الفتنة بسبب استخدام الاصطلاحات الكلامية التى لم يأت بها الكتاب أو السنة فلم يدع النبى ﷺ الناس فى أمر التوحيد الى

---

(٣٦) السيوطى — صون المنطق والكلام عن فنى المنطق والكلام جا ص ١١٧ — تحقيق د. النشار وسعاد عبد الرازق ط مجمع البحوث الاسلامية ١٩٧٠.
(٣٧) السيوطى — صون المنطق جا ص ١٤١ .

الاستدلال بالاعراض — كما فعل المتكلمون — أو تعلقها بالجواهر وانقلابها فيها . فضلا عما أدت اليه هذه الاصطلاحات من منازعات وخصومات بين المسلمين لعدم الاتفاق على مدلوتها وتركيباتها ، فأصبح لكل فرقة تشقيقات كلامية تختلف عن غيرها ، وظهرت الفرقة المنهى عنها بين صفوف المسلمين .

ثالثا — ان المتابعة فى الدين والاقتداء بالتقليد فى تشريعاته وأحكامه أمر ضرورى لعجز كل فرد من المسلمين على الاجتهاد الشخصى ، فنرى الخطيب البغدادى يتساءل عن موقف المتكلم اذا ما ابتلى بحادثة فى الدين ، الا يسعى الى الفقيه يستغنيه ويعمل به (راجعا الى التقليد بعد فراره منه، وملتزما بحكمه بعد صدوفه عنه ؟)(٣٨) .

ويعتمد السلف هنا على حجية النقل الصحيح كوسيلة لمعرفة أحكام الدين وشرائعه فان الاسلام يقتضى التصديق بما جاء به النبى ﷺ اعتمادا على صحيح المنقول ، وذلك أجدى على الامة وأسلم لها ، خشية الوقوع فى أخطاء الامم السابقة مع أنبيائه فى شدة الحاحهم فى الاسئلة وطلب الايات وصنوف العجائب (حتى أفضى ببعضهم الى أن سأله أن يروا ربهم جهرة)(٣٩) .

لذلك فان هناك حدا يجب الوقوف عنده وعدم معرفة ما فوقه من الامور التى لا يحيط بها علما الا الله سبحانه وتعالى ، لكى يتحقق الغرض من الابتلاء والتمييز بين المؤمنين والكافرين (حتى يكون العباد فى كل وقت مسلمين لأحكامه لا يتعقبونها بتكييف ولا مسألة عن غاية مراده فيها (٤٠) .

---

(٣٨) نفس المصدر ص ١٩٣ .
(٣٩) نفس المصدر ص ١١٤ .
(٤٠) المصدر السابق ص ١١٥ .

رابعا — اعتبر السلف الكلام فى الدين بغير طريقة القرآن والحديث من باب فضول الكلام الذى لا يفيد الاشتغال به ، بل ان العمل به مضيعة للجهد والوقت بعد أن كفانا الله تعالى مؤونة العكوف على مسائله بما بين لعباده ما يحتاجون اليه فى عاجلهم ومعادهم (وأوضح لهم سبيل النجاة والتهلكة وأمر ونهى وأحل وحرم وفرض وسن)[٤١] .

هذا ، فضلا عن أننا نعثر فى الاحاديث النبوية على توضيحات لكافة المسائل التى يخوض فيها المتكلمون ولو بحثوا لعثروا عليها فى مصادرها ، فان الحديث النبوى اشتمل على معرفة (أصول التوحيد وبيان ما جاء من الوعد ووجوه الوعيد ، وصفات رب العالمين تعالى عن مقالات الملحدين ، والاخبار عن صفات الجنة والنار وما أعد الله فيهما للمتقين والفجار ، وما خلق الله فى الارض والسموات من صنوف العجائب وعظيم الايات ، وذكر الملائكة المقربين ونعت الصافين والسبحين)[٤٢] .

خامسا — ان القضايا التى خاض فيها المتكلمون تعلو على الافهام والعقول ، ولهذا فان المختصين ببيانها وشرحها هم الرسل والانبياء عليهم الصلاة والسلام ، فينبغى قبول ايضاحاتهم عنها وتبليغهم اياها على وجه الكمال . قال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) الاسراء ١٥ . وقال عز وجل (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) ١٦٥ — النساء .

وقد عرفنا الله تعالى ذاته بواسطة الرسل ، ولكن المتكلمين انحرفوا عن المنهج الصحيح حيث أبطلوا هذا الجانب فى دور الرسل — وهو التعريف بالله سبحانه وتعالى ذاتا وصفاتا — وجعلوا عقولهم (دعاة الى الله تعالى

---

(٤١) نفس المصدر ص ١١٣ .
(٤٢) المصدر السابق ص ١٩٤ .

ووضعوها موضع الرسـل فيما بينهم)[٤٣] ، أى أنهم استخـدموا العقل فيما لم يخلق له ولا هو بقادر عليه ، اذ منح الله تعالى العقل لاقامة العبودية أى لفهم التكليف ومعرفة الاوامر والنواهى والتمييز بين السنة والبـدعة والرياء والاخلاص .

هذا هو دور العقل فى الحقيقة ، حيث توسع فيه أهل الكلام المبتدع وحملوه مالا طاقة له به ، وجعلوه الاصل فى الدين ، فأصبح الاتباع والمأثور عندهم تبعا للمعقول ، وهذا من أكبر الاخطاء التى ارتكبوها ، وحجة علماء السلف فى ذلك انه (لو كان أساس الدين على المعقول لاستغنى الخلـق عن الوحى وعن الانبياء صلوات الله عليهم ، ولبطل معنى الامر والنهى ، ولقال من شـاء ما شـاء)[٤٤] .

وقد حدث بالفعل فى عصور غربة الاسلام أن اختلط الحـابل بالنابل وسمح البعض لانفسهم بالخوض فى الدين بغير تسلح بأدوات الاجتهاد ، وبغير طريقة علماء السلف من المسلمين الذين جمعوا بين أيديهم مؤهلات تخصصاتهم وأهمها الحفظ والفهم والتقوى .

وخلاصة وجهات النظر الانفة تفيدنا فى محيطنا الاسلامى الداخلى ، حيث تحمل الحجج المقنعة بأنه ينبغى الالتقاء حول القـرآن الكريم عناية وحفظا وتدبراً وتطبيقا ، والاقتصاد فى اسـتهلاك الجهـود فيما لا طائل وراءه من اثارة الخلافات والصراعات على قضايا حسمت وانتهى أمـرها بالاستقراء والرسوخ ، مع الكلف عن متابعة البدع المخترعة فى الدين .

وفى المحيط الخارجى ـ أى بالنظـر الى ثقـافة العصر ومعتقـداته وفلسفاته ـ تحمل هذه الحجج طابع المعـاصرة ازاء المتـأثرين بالعناصر

---

(٤٣) المصـــدر السـابق ص ٢٣٢ .

(٤٤) صـــون المنطق جا ص ٢٣٥ .

الاجنبية . حيث تشجب دعاوى التطور فى فهم العقيدة أو مراعاة روح العصر ، أو المرونة أو التآخى مع العقائد والنحل الاخرى ، الى غير ذلك من شعارات تؤدى الى (تذويب) الفوارق بين عقيدة التوحيد فى الاسلام وغيرها من العقائد ، ومن ثم تفقدنا أقوى أسلحتنا لاعادة تكوين شخصية الامة على الاصل المعترف به لحضارتنا .

وقد كانت آفة (أهل البدع) فى ماضينا التاريخى ، هى نفس آفة بعض المثقفين المعاصرين من حيث مخالفة المنهج السلفى ، فيبدأون بأفكارهم وما يظنون انه أفكارا صحيحة ، وبعدها يؤولون النصوص الدينية بما يتفق مع هذه الافكار المسبقة ، مظنة التطور ومجاراة لظروف العصر وأحواله.

قال الشاطبى (ان لفظ « أهل الاهواء » وعبارة « أهل البدع » انما تطلق حقيقة على الذين ابتدعوها ، وقدموا فيها شريعة الهوى بالاستنباط والنصر لها ، والاستدلال على صحتها فى زعمهم ، حتى عد خلافهم خلافا ، وشبههم منظورا فيها، ومحتاجا الى ردها والجواب عنها . كما نقول فى ألقاب الفرق من المعتزلة والقدرية والمرجئة والخوارج والباطنية ومن أشبههم — بأنها ألقاب لمن قام بتلك النحل ما بين مستنبط لها وناصر لها ، وذاب عنها . كلفظ (أهل السنة) انما يطلق على ناصريها ، وعلى من استنبط على وفقها ، والحامين لذمارها)[٤٥] .

وفى موضع آخر يصفهم بأنهم الذين اتبعوا أهواءهم فلم يأخذوا الادلة الشرعية مأخذ الافتقار اليها ، والتعويل عليها حتى يصدروا عنها ، بل قدموا أهواءهم واعتمدوا على آرائهم ، ثم جعلوا الادلة الشرعية منظورا فيها من وراء ذلك . ويضرب الامثلة على هؤلاء ، فان أكثرهم أهل التحسين

---

(٤٥) الشاطبى — الاعتصام جـ١ ص١٠٣ .
ط دار التحرير سنة ١٩٧٠ — عن النسخة التى حققها الامام محمد رشيدرضا

والتقبيح (الى المعتزلة) ومن مال الى الفلاسفة وغـيرهم • ثم ينتهى الى وصف الفئة المحرفة من العلماء المتقربين للسلاطين وذى الشأن خضوعا لرغباتهم وتمشيا مع نزعاتهم ، فيقول (ويدخل فى غمـارهم من كان منهم يخشى السلاطين لنيل ما عندهم أو طلبا للرياسة ، فلابد أن يميل مع الناس بهواهم ، ويتأول عليهم فيما أرادوا : حسبنا ذكره العلماء ونقله الثقاة من مصاحبى السلاطين)[٤٦] •

والآن ، بعد أن انتهينا من حجج علماء السلف فى مواجهة علماء الكلام، سنوضح موقف السلف من الفلسفة :

(٤٦) المصـــدر السـابق جـ٢ ص ١٠٣ •

موقف السلف من الفسلفة اليونانية

فيما عدا الفلاسفة الذين خاضوا فى الفلسفة اليونانية وتحمسوا لها ورفعوا من شأنها أمثال الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد ، فقد قوبلت الفلسفة بمعارضة شديدة من أغلب شيوخ المسلمين باعتبار أنها من قبيل البدع المنهى عنها ، استنادا الى الاحاديث الكثيرة المذكورة فى هذا الباب(٤٧) منها ما أمر به الرسول ﷺ المسلمين (.. فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ واياكم ومحدثات الامور فان كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة) .

ونرى ابن الجوزى ينقد الفلسفة بشدة بقوله (وقد لبس ابليس على أقوام من أهل ملتنا فدخل عليهم من باب قوة ذكائهم وفطنتهم فأراهم أن الصواب اتباع الفلاسفة لكونهم حكماء قد صدرت منهم أفعال وأقوال دلت على نهاية الذكاء وكمال الفطنة)(٤٨) .

ويصف الفلاسفة المسلمين بالحيرة حيث أكسبتهم الفلسفة هذه الصفة ، فبينما بعضهم يصوم ويصلى الا أنه يتكلم فى انكار بعث الاجساد ويأخذ فى الاعتراض على الخالق وعلى النبوات(٤٩) .

ويقر ابن الجوزى لفلاسفة اليونان بالذكاء والفطنة ، ويخص منهم بالذكر سقراط وأبقراط وأفلاطون وأرسطو وجالينوس ، الا أنه يمدح الاتجاهات العلمية فى أفكارهم ونظرياتهم كعلوم الهندسة والطبيعة التى أتوا فيها بالجديد ، ولكنهم أخفقوا فى الالهيات التى ينبغى الرجوع فيها الى

---

(٤٧) انظر تلبيس ابليس ص ١٢ .
(٤٨) المصدر السابق ص ٤٨ .
(٤٩) المصدر السابق ص ٤٩ .

الشرائع . فالخطأ فى نظريات الفلاسفة هو الانفراد بآرائهم وعقولهم والتماس الحقائق الغيبية منها ، بينما المصدر الصحيح للغيبيات هم الرسل والانبياء عليهم السلام[٥٠] .

والاستشهاد برأى باحث معاصر أيضا يعضد هذا الرأى القائل بأن فلاسفة الاغريق (فى بحثهم عن الله .. نرى أن آراءهم فيها ومضات من نور الحق ، فى ظلمة حالكة من الابهام والغموض والشك والسفسطة)[٥١] .

ولعل من أهم المسائل التى كانت موضع الاتهام للفلاسفة حتى بلغ حد التفكير هى القول بقدم العالم وانكارهم علم الله تعالى بالجزئيات وانكارهم بعث الاجساد[٥٢] .

وقد اشتهر الامام الغزالى بتكفير الفلاسفة فى هذه الموضوعات الثلاثة .

أما ابن تيمية فانه يستنتج أن سبب (التفلسف) لدى غلاة الفلاسفة المسلمين نشأ بسبب افتقادهم للامثلة الصحيحة عند المتكلمين ، ومع ظن هؤلاء الفلاسفة أن النظريات الكلامية هى المعبرة عن الاسلام ، فقد رفضوها لانها لا تتفق مع العقل وظنوا بالتالى أن (دين الاسلام المعروف فاسد فى العقل)[٥٣] .

ولكن المعتزلة أقروا بما أتى به النبى ﷺ من الخير والصلاح وعيسى عليهما السلام ، ثم أقر ابن سينا بالرغم من نزعته الفلسفية

---

(٥٠) المصدر السابق ص ٤٨ .

(٥١) نديم الجسر : قصة الايمان بين الفلسفة والعقل والدين ص ٢٨ . منشورات المكتب الاسلامى — بيروت ١٣٨٩هـ — ١٩٦٩م .

(٥٢) تلبيس ابليس ص ٤٥—٤٧ ، والغزالى : تهافت الفلاسفة ص ٩١ .

(٥٣) منهاج السنة ١ — ٢٢٥ تحقيق د. رشاد سالم .

وذلك بسبب مقارنتهم بين الفلسفة اليونانية والناموس الذى جاء به موسى واتجاهه الشيعى الباطنى أنه لم يقرع العالم ناموس أفضل من ناموس محمد ﷺ (٥٤) .

أما أغلب الفلاسفة اليونانيين — ان لم يكن كلهم — فانهم من أبعد الخلق عن معرفة الله ومعرفة خلقه وأمره وصفاته وأفعاله ، وقد انتقلت نظرياتهم الى فلاسفة المسلمين ، فأخذوا منهم آراءهم دون تمحيص ، ودون اتباع القاعدة المنهجية الاسلامية لمعرفة الفرق بين السنة والبدعة ، أو بين منهج الانبياء فى اثبات الالوهية وبين غيرهم ممن حادوا عن هذا الطريق ، بل ان ابن سينا ابتدع كلاما فى الوحى والمنامات لم يقله المشاؤون قبله(٥٥) .

ولكن الفلاسفة الذين استناروا بنور النبوات ، واستقلوا بالنظر العقلى دون تقليد أسلافهم من فلاسفة اليونان — مثل أبى البركات صاحب (المعتبر) فهم أصلح قولا ، فقد (أثبت علم الرب بالجزئيات ورد على سلفه ردا جيدا ، وكذلك أثبت صفات الرب وأفعاله)(٥٦) .

كذلك خضع الفلاسفة للبيئات الثقافية التى نشأوا فيها ، فابن سينا نشأ بين المتكلمين النفاة للصفاة ، وكان ابن رشد قد تأثر بالكلابية ، ولكن أبو البركات عاش ببغداد وخالط علماء السنة والحديث (فكان كل من هؤلاء بعده عن الحق بحسب بعده عن معرفة آثار الرسل ، وقربه من الحق بحسب قربه من ذلك)(٥٧) .

---

(٥٤) المصدر نفسه ص ٢٢٦ .
(٥٥) المصدر نفسه ص ٢٤٧ .
(٥٦) المصدر نفسه ص ٢٤٧ .
(٥٧) المصدر نفسه ص ٢٥١ .

فالقاعدة اذن هى ما يلى :

جاء الرسل صلوات الله عليهم بالحق ، ومن اتبعهم كان على الصراط المستقيم ومن خالفهم حاد عن طريق الحق .

وقد كشف ابن تيمية عن دراسة واعية لاقوال الفلاسفة — انهم يختلفون اختلافا كبيرا فيما بينهم وانهم لا يتفقون على مذهب واحد فى الالهيات والمعاد والنبوات والشرائع (ولا يتفقون الا على ما يتفق عليه جميع بنى آدم من الحسيات المشاهدة والعقليات التى لا ينازع فيها أحد)[٥٨] ، وأخذ يطالبهم بتقديم الدليل على قولهم بقدم العالم ما داموا يعتبرون أنفسهم محبين للحكمة وطالبين لها فيخاطبهم بهذه العبارة ساخرا (وأصل الفلسفة عندكم مبنى على الانصاف واتباع العلم ، والفيلسوف هو محب الحكمة . والفلسفة محبة الحكمة)[٥٩] .

ويبدو من كتاباته أن المعارضة الحقيقية للفلسفة اليونانية نتيجة اختلاف مضمونها عن المضمون الاسلامى ، فهو لا يوافق على مناهج الفلاسفة التى حاولوا بها الجمع بين الشريعة الالهية والفلسفة اليونانية المشائية ، ذلك أن هؤلاء الفلاسفة لهم اصطلاحات ومعانى تختلف تماما عما أورده القرآن[٦٠] .

وما دام الامر كذلك ، فهو يلح على قضية اتفاق الادلة الشرعية مع العقل ، فما أحوجنا الى اتخاذ القرآن دليلا هاديا فى الرد على النظار — أى الفلاسفة والمتكلمين — فانه ملىء بالاقيسة العقلية ، ولا حرج على أهل

---

(٥٨) ابن تيمية : منهاج السنة ١—٢٥٣ .
(٥٩) المصدر السابق ص ٢٥٤ .
(٦٠) ابن تيمية : بغية المرتاد فى الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية المنعوت (بالسبعينية) ص ٧ ط فرج الله الكردى ١٣٢٩هـ .

العلم والايمان من الاستعانة بالادلة العقليـــة الى جانب الادلة السمعية فهم (مؤيدون بصحيح المنقول وصريح المعقول)(٦١) .

ويعقد ابن تيمية الصلة بين بعض الفلاســفة وبين الصابئة عبــدة الكواكب . ودليله فى هذا هو ان نظرية الفيض تدل على أن الفلاسفة كانوا يعبدون الكواكب « مع بنائهم هياكل النجوم يبنون هيكــل العلة الاولــى وهيكل العقل وهيكل النفس »(٦٢) .

والفلسفة عنده تصيب فقط فى علوم معينة كالحساب وأكثر الطبيعــة وكثير من الهيئة أى علم الفلك(٦٣) ، ولكنه عندما يقــارن بين الفــلاسفة اليونان وفلاسفة المسلمين فانه يقــر للفــريق الثانى بأنه (أخبر وأدق ، وقلوبهم أعرف ، وألسنتهم أنطق وذلك لمــا عندهم من نور الاسلام)(٦٤).

أما اذا قارن بين الفلاسفلاسفة المتأخرين وبين أهل العلم والايمان من علماء السلف ، فانه يصف الفريق الاول بالتناقض والضلال ، وتفصيل ذلك عنده أن سببضلالهم هو عزوفهم عن النور الذى أضاءته شمس النبوة، ولجوءهم الى التفلسف ، بينما الهدى المحمدى هو الاولى الاتباع ، حيث وصف النبى ﷺ رسالته ، بأنها الرحمة المهداة وفى الحديث (انما أنا رحمة مهداة) ، فهم بمسلكهم هذا كمن يريد (أن يطفىء نور الشمس بالنفخ فى الهباء ؛ أو يغطى ضوءها بالعباء)(٦٥) .

واذا انتقلنا الى الفكر الاسلامى المعاصر الناقد لفلاســفة اليــونان

---

(٦١) المصــدر الســابق ص ٥٩ ..
(٦٢) المصــدر الســابق ص ٧٦ .
(٦٣) ابن تيمية : الرد على البكرى ١ــ١١٤ .
(٦٤) نفس المصــــدر ص ١١٥ .
(٦٥) المصــدر الســابق ص ١١٥ .

بمنظور قرآنى ، فاننا نعثر فى أفكار محمد اقبال على آراء مناهضة للفكر اليونانى يستند فيها الى المنهج المقارن حيث ينظر الى نتاج الفلسفة اليونانية بميزان القرآن الحكيم .

انه يرى أن الفلسفة اليونانية ومنهجها فى البحث تختلف عما أورده القرآن ، والدليل على ذلك أن سقراط كان همه الانسان وحده . ولكن القرآن يوسع دائرة النظر فى ملكوت السموات والارض فيدعو بنى آدم الى التأمل فى كافة المخلوقات كوظائف النحل مثلا ، ويجعلهم يتطلعون الى تصريف الرياح ، والنظر الى السماء ذات البروج ، والكواكب السابحة فيها ، وفى تعاقب الليل والنهار الخ ..

وكان أفلاطون وفيا لنظريات أستاذه ، فنقد الحس ، وقدح فى الادراك الحسى لانه يفيد الظن (وما أبعد هذا القول عن تعاليم القرآن الذى يعد السمع والبصر أجل نعم الله على عباده ..)[٦٦] .

أما هدف القرآن الاساسى فهو ايقاظ شعورا ساميا لدى الانسان بما بينه وبين الخالق عز وجل ، وبين الكون من علاقات متعددة ، فالروح القرآنية تتجلى فيها النظرة الواقعية (على حين امتازت الفلسفة اليونانية بالتفكير النظرى المجرد واغفال الواقع المحسوس)[٦٧] .

ويرى أن القرآن لا يستحسن (الكليات المجردة ، بل يعنى دائما بالشخص المعين ، ذلك الشخص الذى لم تتعلم الفلسفة الحديثة أن تضعه موضع الاعتبار الا حديثا على يد النظرية النسبية) ، فالمعرفة كما يوضحها

---

(٦٦) محمد اقبال : تجديد التفكير الدينى فى الاسلام ص ٩ ترجمة عباس محمود ومراجعة د. مهدى علام لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٨ م.
(٦٧) المصدر السابق ص ١٤٦ .

القرآن يجب أن تبدأ بالمحسوس ، كما يظهر بوضوح الاتجاه التجــريبى العــام للقرآن[٦٨] .

وهكذا يتبين أن التفكير الاسلامى اتجه اتجاها مباينا لاتجاه التفكير اليونانى وهو ما كشف عنه ابن تيمية فى محاولاته العقلية الممتازة التى هدم بها أسس المنطق اليونانى ، ثم استند المناطقة المحدثون اليه فى نقيضهم لدعائمه أيضا : حيث أقروا باختلاف المنهج عند المسلمين عنــه فى منطــق يونان ، فالمنهج عند المسلمين كان تجريبيا ، بينما لم يعرف اليونان التجربة كمنهج للبحث العلمى[٦٩] .

وأخيرا سنحسم هذه القضية التى طال الحــديث عنها بأن نوضــح الفرق بين لفظ العقل ومدلوله فى اللغــة والفلســفة اليــونانية ، وبينه فى اللغة العربية والشرع الاسلامى :

(٦٨) محمد اقبال : تجديد التفكير الدينى ص ٩٤ ، ص ١٥١ .
(٦٩) نفس المصــدر ص ١٤٩—١٥٢ .

العقل بين الفلسفة اليونانية والشرع الاسلامى

كان لحركة ترجمة الفلسفة اليونانية أثرها فى الفلاسفة الاسلاميين وأشهرهم الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد ، وانتقل مع الترجمة (نظرية الصدور) أو (الفيض) التى انحدرت من بعض مقتطفات من تاسوعات أفلوطين .

وأول من نقلها الى الفكر الاسلامى هو الفارابى الذى قال بأن الموجودات جميعها تصدر عن علم واحد فالله تعالى وفقا لهذه النظرية يعقل ذاته وصدور العالم هو نتيجة حتمية لعلمه بذاته ، وما دام الاول واحدا فيجب أن يكون الصادر عنه احدى الذات .

وعملية الصدور وفقا لهذه الفلسفة تقوم أصلا على صدور العقول عن الله تعالى فى ترتيب تنازلى ، وينتهى فى تسلسله — أى نتيجة عملية الصدور الى تسعة عقول ، وقد تصل الى عشرة عند ابن سينا ، ويصدر عنها الاجرام السماوية وينتهى بالعقل الفعال .

وهذا العقل الاخير — هو عقل فلك القمر ويسميه الفارابى روح القدس أو الروح الامين ، وهو مجرد عن المادة وهمزة الوصل بين العالم العلوى والعالم السفلى وهو الذى يدبر ، تحت فلك القمر[٧٠] .

ونحن نعرف بحكم معلوماتنا المعاصرة عن عوالم الافلاك أن هذا التصور الفلسفى محض خرافة ولكن الفلاسفة المشائين ظنوا أنها تصل

---

(٧٠) د. محمد على ابو ريان : تاريخ الفكر الفلسفى فى الاسلام جـ٢ ص ٥٩ وما بعدها باختصار . ط دار الجامعات المصرية بالاسكندرية سنة ١٩٧٠.
وينظر أيضا دراسة استاذنا الدكتور محمد على ابو ريان عن نقد الفيلسوف ابى البركات (٥٥٠ — ٥٨٨هـ) لهذه النظرية (ص ٢٠٢ — ٢١٠ نفس المصدر).

فى ثبوتها الى مرتبة اليقين وصدقوها كما ينبغى أن يصدق الوحى[٧١] ..
ظنا منهم أنها تفسر خلق العالم .

وربما ظلت المبالغة فى دور العقل والتهويل فى مكانته منحدرا من هذه الفلسفة منذ العصر اليونانى الى يومنا هذا لدى فلاسفة الغرب ، حيث ، احتل (العقل) فى التصور اليونانى لا مجرد التبجيل والاشادة بل الرهبة فى النفوس كأثر من آثار الاعتقاد فى مكانة هذا العقل الفعال ودوره فى عملية الخلق وانعكس هذا الغلو الى العقل الانسانى أيضا ..

وبعد أن بينا مكانة العقل فى عقيدة الاسلام حيث رتب عليها التكليف كما تقدم فى بعض الايات القرآنية التى تحدثت عن العقل ومدحته .

وجاء ابن تيمية فى القرن السابع — الثامن الهجرى ليدحض التصور الفلسفى للعقل مستخدما منهج المقارنة بين (العقل) فى الفلسفة اليونانية (والعقل) فى الشرع الاسلامى واللغة العربية .

ويذكر أولا الحديث المتداول فى كتب الفلاسفة ونصه (لما خلق الله العقل قال له : قم فقام ، ثم قال له : أدبر فأدبر ، ثم قال له : أقبل فأقبل ، ثم قال له : أقعد فقعد ، فقال له : ما خلقت خلقا هو خير منك ولا أكرم على منك ، ولا أحسن منك ، بك آخذ وبك أعطي ، وبك أعرف وبك الثواب وعليك العقاب) .

وقد أجمع علماء الحديث — ومنهم ابن الجوزى — أن هذا الحديث لا يصح عن رسول الله ﷺ[٧٢] .

---

(٧١) د. ابو ريان : تاريخ الفكر الفلسفى فى الاسلام جـ٢ ص ٦٤ .
(٧٢) ابن تيمية : كتاب بغية المرتاد فى الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية وهو المنعوت (بالسبعينية) ص ٦ .طبعة كردستان العلمية (فرج الله زكى الكردى) بمصر ١٣٢٩هـ .

كذلك عارض ابن تيمية استخدام المصطلحات الفلسفية للتعبير عن الحقائق الاسلامية لا سيما فى العقيدة وأصول الدين ، وذلك للاسباب الاتيـة :

أولا — العامل اللغوى : فان فلاسفة اليونان لهم أوضاع واصطلاحات شأنهم فى ذلك شأن كل أمة ، بل وأهل كل فن وصناعة . ولما كانت اللغة اليونانية مختلفة عن اللغة العربية وجب ترجمة معانى مفرداتهم الى العربية لمعرفة مقاصدهم وهذا جائز بل حسن بل قد يجب أحيانا كما أمر النبى ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب اليهود .

ان المعرفة بلغات الناس واصطلاحاتهم نافعة فى معرفة مقاصدهم ، ثم نحكم فيها كتاب الله تعالى فما وافقه حق وما خالفه فهو باطل ، كما قال الله تعالى (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم)[٧٣] . [الآية ٢١٣ سورة البقرة]

ثانيا — قلب الفلاسفة الآية الوضع الصحيح المنهجى فأرادوا انزال كلام الله تعالى ورسوله ﷺ على ما وضعوه من اللغة والاصطلاح ، والامثلة على ذلك وصف الملائكة بأنها أنوار فى أنوار ، وأنوار فى ظلال ، وأنوار فى ظلمة ، والاول هى العقول ، والثانى هى النفوس الفلكية ، والثالث النفوس الطبيعية .

ومعلوم أن الملائكة الذين وصفهم الله تعالى فى الكتاب والسنة

---

(٧٣) ابن تيمية : بغية المرتاد ص ٢٥—٢٦ .

لا ينطبقون على هذه العقول العشرة والنفوس التسعة التى يذكرونها[٧٤] .

ثالثا — بعث الرسول ﷺ ليخبرنا بالغيب ، وما ذكره من المشاهدات فانما ذكره آية ودلالة على ما أخبر به من الغيب . وكذلك روح الانسان وقلبه فى الكتاب والسنة من الاخبار عن ذلك مالا يكاد يحصيه الا الله تعالى .

وتستبد الدهشة بشيخ الاسلام فيبدى تعجبه بقوله (يا سبحان الله اذا لم يكن الاخبار عن هذا القسم فى هذا الكتاب الذى ليس تحت أديم السماء كتاب أشرف منه ، وعلم هذا لا يؤخذ عن الرسول الذى هو أفضل خلق الله تعالى فى كل شىء فى العلم والتعليم وغير ذلك ، أيكون ذكر هذا فى كلام أرسطو وذويه وأصحاب رسائل اخوان الصفا وأمثال هؤلاء الذين يثبتون ذلك بأقيسة مشتملة على دعاوى مجردة لا نقل صحيح ولا عقل صريح ؟ ..[٧٥] .

ويرى ابن تيمية أن جميع أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى لا يعتقدون بأن شيئا من الملائكة يفعل شيئا أو أنه مبدع لجميع ما تحت فلك القمر بل قد قال الله تعالى (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون ؟) .[آية ٨٠ آل عمران] .

كذلك اتفق جميع أهل الملل أن الملائكة سجدوا لآدم عليه السلام .

رابعا — ان العقل فى لغة المسلمين كلهم أولهم عن آخرهم ليس ملكا من الملائكة ولا جوهرا قائما بنفسه بل هو العقل الذى فى الانسان ولم يسم أحد من المسلمين قط أحدا من الملائكة عقلا ولا نفس الانسان الناطقة عقلا

---

(٧٤) المصدر نفسه ص ٢٠

(٧٥) المصدر نفسه ص ٢٢ .

بل هذه من لغة اليونان ومن المعلوم أن حمل كلام رسول الله ﷺ أو كلام الله تعالى على مالا يوجد فى لغته .

خامسا — أن العقل فى الكتاب والسنة وكلام الصحابة والائمة لا يراد به جوهر قائم بنفسه باتفاق المسلمين وانما يراد به العقل الذى فى الانسان.
سادسا — والعقل اذا كان فى لغة المسلمين هو عرض قائم بغيره لم يكن مما يخلق منفردا عن العاقل وانما يخلق بعد خلق العقلاء . وأيضا فان مثل هذا لا يخاطب ولا يقبل ولا يدبر وأيضا فقوله (ما خلقت خلقا أكرم على منك) لا يجوز أن يضاف الى الله تعالى فانه من المعلوم أن الانبياء والملائكة أكرم على الله تعالى منه .

سابعا — ان هؤلاء سمعوا فى الحديث ان أول ما خلق الله القلم وهذا الحديث معروف ليس مثل الاول رواه أبو داود فى سننه عن النبى ﷺ وروى عن ابن عباس وغيره من الصحابة لكن السلف متنازعون هل المراد بذلك أول ما خلقه من هذا العالم الذى خلقه فى ستة أيام كما قال (وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء) وعلى هذا القول فالعرش كان مخلوقا قبل ذلك أو هو مخلوق قبل العرش على قولين . والاحاديث الصحيحة تدل على القول الاول .

ثامنا — للسلف فى العرش والقلم أيهما خلق قبل الاخر قولان — أحدهما ان القلم خلق أولا كما أطلق ذلك غير واحد وذلك هو الذى يفهم فى الظاهر فى كتب من صنف فى الاوائل . والثانى أن العرش خلق أولا .

وبكل حال فهذه الاحاديث التى فى الصحاح والسنن المسانيد والاثار التى عن الصحابة والتابعين تبين أن هذا القلم ليس ما يدعيه هؤلاء أنه

---

(٧٦) ابن تيمية : بغية المرتاد ص ٦٠

الذى يسمونه العقل الاول أو الفعال فانه أمره أن يكتب فقط لا أن يفعل شيئا غير ذاك والعقل عندهم أبدع جميع الكائنات وأمره أن يكتب فى الذكر وهو اللوح فيكون اللوح قد خلق قبل أن يكتب القلم شيئا اذ الكتابة لا تكون الا فى لوح .

ويصل من عرض كل هذه الحجج والبراهين الى القول بأن النصوص والاثار المتواترة عن النبى ﷺ وأصحابه والتابعين متطابقة على ما دل عليه القرآن من أن الله خلق السموات والارض فى ستة أيام وان كان العرش مخلوقا قبل ذلك . وهذا أيضا متفق عليه بين أهل الملل كاليهود والنصارى وهو مذكور فى التوراة وغيرها كما ذكر فى القرآن ، ولهذا شرع الله لاهل الملل اجتماع أهل المدينة فى كل أسبوع يوما يعبدون الله فيه ويتخذونه عيدا وجعل للمسلمين يوم الجمعة ..

والمقصود هنا أنه من المعلوم أن الاسبوع ليس له حد موجود فى السماء كما يوجد فى اليوم والليلة والشهر بل انما يعد عدا لان الله خلق هذا الخلق فى ستة أيام ثم استوى على العرش فانتشرت أيام الاسبوع فى العالم من جهة أخبار الانبياء ولم يعلم ذلك الا من أخذ عنهم .

.. فكان فى هذا الاجتماع العام حفظ لايام الاسبوع وفيه تذكير بالاسبوع الاول الذى خلق الله فيه الخلق . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال (خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه ادخل الجنة وفيه أخرج منها ولا تقوم الساعة الا فى يوم الجمعة) ..

ومعلوم أن هذا الاجتماع والاخبار بالخلق فى ستة أيام معلوم بالاضطراد من دين أهل الملل وهؤلاء عندهم أن هذه السموات ما زالت هكذا ولا تزال هكذا متحركة على هذا الوجه من الازل الى الابد ولا يزال

العقل الاول أو الفعال الذى يسموه بالقلم هذا أو هذا مقـارنا لها وليس عندهم قيامة تنشق فيها السموات وتنفطـر ويستحيل عنـدهم أن تكون السموات مسبوقة سبقا زمانيا بشىء من الاشياء لا بربها ولا بعرشه ولا بغير ذلك فضلا عن أن تكون مسبوقة بتقدير مقاديرها بخمسين ألف سنة • فهل يمكن أن يكون ما أخبر به الانبياء مطابقا لقولهم وأن يكون نبينا محمد ﷺ أراد بما أخبر به ما يريده هؤلاء بما يذكرونه من فلسفتهم هذا مما يعلم كل من فهم الكلامين أنه باطل بالاضطراد وأن الكلامين متنافيان قطعا وان كان فى بعض ما يقولونه ما هو موافق لمـا أخبر به الرسول ﷺ فهذا لابد منه فى كلام كل طائفة[٧٧] •

وبعد ، فان عذرنا فى التماس أغلب عناصر الموقف السـلفى من كتب شيخ الاسلام يرجع الى دوره التجديدى فى الفكر الاسلامى حيث استوعب التراث الاسلامى استيعابا شاملا عميقا ، وصاغ اجتهاداته فى قالب جديد، بحيث استطاع مخاطبة المتكلمين والفلاسفة بلغتهم ، مستقرئا آيات القرآن الحكيم التى تخاطب العقول والافئدة ، ومذكرا المسلمين بأن الرسل صلوات الله عليهم تخبر بمجازات العقول — أى التى تجيزه — وما لا تعرفه العقول أو ما تعجز عن معرفته ، كما لا تأتى الرسل صلوات الله عليهم بمـا يعـلم نقيضه ، ولكن قد تأتى بما لم يكن يعلم ، كما قال تعالى :

(كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون • فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون) ١٥١ — ١٥٢ البقرة •

وهكذا أخذ يوجه ابن تيمية الانظار مرة أخرى بعد تحول الغالبية عن

---

(٧٧) ابن تيمية : بغية المرتاد ص ٦٠—٦٣ •

(٧٨) ابن تيمية : شرح العقيدة الاصفهانية ص ٥٠ — ط كردستان العلمية بمصر ١٣٢٩هـ •

طريقة السلف — أخذ يوجهها الى الكنوز الثمينة فى آيات الله تعالى المقروءة وتطابقها مع آياته الكونية المشاهدة ملحا على اثبات تطابق الادلة الشرعية مع الادلة العقلية •

وهذا يقتضى أن نعطى للقارىء نبذة عن دوره التجديدى :

تجديد المنهج السلفى على يد شيخ الاسلام ابن تيمية :

يبنى شيخ الاسلام ابن تيمية منهجه فى القضايا التى تنازع عليها من قبله المتكلمون وغيرهم من الفلاسفة الاسلاميين على قواعد ثلاث تلك القواعد الثلاث التى يقصد بها اعلاء الميزان القرآنى وتفضيله عما سواه من النظريات والقواعد المستوردة عن غير المسلمين •

و **القاعدة الأولى** التى توضح سمات منهج ابن تيمية هى تأكيده الدائم بعدم تعارض العقل مع النقل الصحيح •

أما **القاعدة الثانية** فهى أخذ على المتكلدين استخدامهم للمصطلحات والتعبيرات المستوردة ، أو المنقولة عن الفلسفة اليونانية ، و**القاعدة الثالثة** من سمات منهجه هى نقده للمنطق الارسططاليسى ورفضه مع اثبات فساده وتهافته وعدم الحاجة اليه •

واذا تأملنا بشىء من التفصيل — مع مراعاة الاختصار[٧٩] — سمات هذا المنهج الثلاث وجدنا شيخ الاسلام يرى فى أول سمات منهجه — عدم التعارض بين صحيح المنقول من أصول الديانة وبين (صريح المعقول) ممـا يقره العقل السليم ، أو لا يجد تعارضـا بين العقـل والسمـع والرواية والدراية ، ويرى فى عدم الاتفاق بينها — ان وجد — دليلا على خطأ واحدة من الاثنين أو كليهما .

---

(٧٩) ينظر كتابنا : منهج علماء الحديث والسنة فى اصول الدين ص ٢٢٤— ٢٤٢ ط دار الدعوة بالاسكندرية ١٤٠٢هـ — ١٩٨٢م •

وهذا الموقف من شيخ الاسلام يعيد الثقة فى وقت اشتدت فيه الحاجة — الى الثابت من أمور الشريعة بالتواتر ، ويدفع الى النظر عند تعارض نص صحيح مع ظاهر العقل الى اعادة النظر مرات فى طبيعة النظرة التى أدت الى الخلاف .

والسمة الثانية التى تميز منهج ابن تيمية هى رفضه للمصطلحات اليونانية التى استخدمها المتكلمون وغيرهم من الفلاسفة ، وهى مصطلحات أغنانا الله عنها بالقرآن ، كما أن نقل اللفظ من لغة الى لغة أخرى قد يؤدى الى الوقوع فى الخطأ عند استخدامه نظرا للفرق بين اللغات فى المعانى الدقيقة — وهذا ما حدث عند نقل كلمة (عقل) عن اليونانية كجوهر قائم بذاته بما يخالف معناه فى العربية . كما بينا آنفا .

لذلك فان شيخ الاسلام ابن تيمية يدعو الى الاتجاه الى القرآن وحده واقتباس المصطلحات منه دون غيره من الفلسفات والثقافات الاخرى ، ويأخذ على المتكلمين استخدامهم لتلك المصطلحات الغربية والبراهين المستوردة واغفالهم هذا المنبع العذب الصادق .

أما القاعدة الثالثة والسمة الاخيرة التى توضح منهجه توضيحا بارزا، هى هدمه للمنطق الارسططاليسى وهو المنطق الذى ظل سائدا لفترة طويلة من الزمان لا فى الغرب أو الشرق وحدها ولكن فى العالم كله آنذاك ، ولقد كان هذا المنطق مثار فتنة للبشرية نظرا لشدة اعجاب الناس به ، فعرفوه بأنه القانون الذى يعصم الذهن من الزلل .

وقال عنه الامام الغزالى (من لم يعرفه لا ثقة بشىء من علمه) الى أن جاء الامام ابن تيمية ليحمل المعول وينقض عليه حتى يهدمه تماما ، وهو بهذا لم يقدم خدمة للمسلمين فقط ولكنه قدم خدمة جليلة للبشرية جمعاء ،

وكان سببا فى نهضة أوروبا الحالية بعد تركهم لهذا المنطق واتباعهم للمنهج التجريبى (أساس الحضارة المعاصرة) .

ولكن ابن تيمية لم يكتف بهدم المنطق الارسطى فقط وانما أقام على أنقاضه منطقا آخر يستمد دعائمه من القرآن الكريم والسنة النبوية (*)

لذلك فقد استحق أن يعلق عليه أستاذنا الدكتور النشار بقوله (ولو أن الدراسات المنطقية سارت على ما سار عليه شـيخ الاسـلام بدلا من الشروح والنقول لكان لهذا المنطق الان مكانة أخرى) .

الناظر لمنهج ابن تيمية هذا يجده منهجا قرآنيا كاملا يستمد من القرآن مصطلحاته وطرقه للبرهنة على القضايا التى صال فيها المتكلمون وجالوا من طرق غير صحيحة فلم يغن عنهم ذلك شـيئا سـوى أتعـابهم لانفسهم ولغيرهم .

ولنتأمل الان استخدام ابن تيمية للبراهين القرآنية تبعا لمنهجه هذا:

البينات والهـدى :

يقول ابن تيمية أن البينات جمع (بينة) وهى الدليل الواضح الذى لا لبس فيه ، ولقد بعث الله الرسل بالبينات وهى الادلة الدامغة على صدق رسالتهم ونبوتهم .

أما الهدى فهو السبيل الذى يؤدى بسالكه الى النجاة من عذاب الله يوم القيامة وفوزه بالنعيم المقيم .

ويضرب ابن تيمية مثالا لذلك بمن أراد أن يسافر الى مكة ، فهو يجد من يدله على الطريق الصحيح المؤدى اليها فهذا هو الهدى ، والبينات هى العلامات التى تدله على أنه يسلك الطريق الصحيح ، ويجد من يصـف له

(*) ينظر كتابنا : مناهج البحث فى العلوم الإسلامية ص ٣١/٣٦ ط مكتبة الزهراء بالقاهرة ١٤٠٤ هـ-١٩٨٤ م

الدليل الذى يقوده الى هدفه بعيدا عن الجاهلية الذين يدعون أرشاده وهم لا يعرفون الطريق الصحيح المؤدية الى مقصده •

فان أطاع السائل وسار فى الطريق الصحيح وصل الى غايته اما أن اتخذ لنفسه طرقا أخرى فانه مضيع لوقته وجهــده وقــد لا يصــل الى هــدفه أبدا •

ولقد تواترت الايات بذكر (البينات) وذكر (الهدى) ولقد جمع الله تعالى بينهما فى قوله تعالى :

(شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفــرقان) •

أما (الفرقان) فان كتاب الله فرقان بين الحق والباطل ، ولقــد جاء الرسل ليفرقوا بين المهتدين وغيرهم ، فالقرآن أسماه الله فرقانا لانه يفرق بين من يسير على الهدى ويتبع الرسول – صلى الله عليه وسلم – على بينة ومن يسير وفق هواه لايدرى إلى أين يصير .

الميزان القــرآنى :

يقول ابن تيمية ان المقصود بالميزان الذى يكثر ذكــره فى القــرآن ، الاداة التى وهبها الله تعالى للانسان ليفرق بين الحق والباطل ، الا وهى العقل الصحيح ، الذى يقيس بها الانسان ما ينفعه وما يضره ، وهو الذى يزن به المرء أمور دينه ويعرف عن طريقه صدق المرســلين لمــا أتوا به من بينات وخطوا طريقا للهدى •

وهو ميزان صادق يعطى كل شىء قدره ويعرف له قيمته •

فان احتجوا بأن الناس تضل مع وجود عقولهم وهى ميزان يهتدون به

لا يضلون،فان الشيخ قال ما معناه أن ضلال هؤلاء ليس لقصور فيما وهبهم الله الا بسبب اما من داخلهم كشهوة وغيرها أو من خارجهم كشبهة وفتنة وهذه الاشياء هى التى تجعل الانسان مـع علمه بمضار ما يضره لظنه أن النسبة مختلفة •

قياس الاولى : (على وزن الافعل)

يرى شيخ الاسلام ان الاستدلال على وجود الله تعالى واثبات صفات الكمال له يقوم فى القرآن من باب قياس الاولى ، فاذا كان أحدا من خلقه تعالى متصفا بالكمال فى بعض صفاته فمن باب أولى أن يكون خالقه متصفا بصفات الكمال هذه بكيفية تليق به سبحانه وتعالى •

وبهذا القياس يستدل ابن تيمية على وجوب اثبات الصفات والاسماء لله سبحانه وتعالى كالسمع والبصر والكلام لانها صفات كمال ، وقد اتصف بها من مخلوقات الله ، فمن باب أولى أن يكون الخالق جل وعلا متصفا بهـا بالكيفية التى تليق به سبحانه •

(ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) [الشورى ١١]

ويستخدم القرآن الكريم قياس الاولى هذا فى اثبات عـدم الشرك بالله عز وجل يقول تعالى :

(ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فى مارزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) [الروم آية ٢٨]

فاذا كان حال الخلق هكذا فكيف يرضى الله تعالى أنيكون له شريكا فى الملك من باب الاولى ، لان عدم الشرك صفة من صفات الكمال •

ويقول تبارك وتعالى (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون)

الى غير ذلك من الاستدلالات القرآنية التى تقوم على دليل(الاولى) وهو ما استخدمه الشيخ كواحدة من طرق البرهان القرآنية تفوق فى قوة اقناعها وتأثيرها كل أدلة المتكلمين ومناهجهم فى طرق الاستدلال •

كذلك يستخدم الله سبحانه وتعالى دليل الاولى هذا عندما يستدل على قضية البعث والنشور يوم القيامة وهى القضية التى أنفق فيها الفلاسفة والمتكلمون جل وقتهم ولم يصلوا فيها الى ما يفيد يقينا أو اقناعا ، فيسوق الله تبارك وتعالى فى قرآنه أربعة طرق استدلالية على امكانية البعث وكلها تقوم على (اللزوم) و (الاولى) •

١ ـ الدليل الاول على البعث والنشور ووجود يوم القيامة يقدمه الله تبارك وتعالى من خلال روايته عن أموات أحياهم الله فى الدنيا بعد أن أماتهم ، مثل قوله عن الذى مر على قرية وهو منكر للبعث فأماته الله ثم أحياه

(أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت ..) [البقرة آية ٢٥٩]

وكما فى سورة الكهف عن الفتية الذين آمنوا بربهم (وكذلك بعثناهم **ليتساءلوا بينهم من) [من آية ١٩] إلى أن يقول : (وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لاريب فيها) [من آية ٢١ سورة الكهف]**

ويقول بعض المفسرين ان الله بعثهم فى زمن كان الجدل فيه قائما حول البعث وهل هو بالجسد أم بالروح فقط • كما هو حال النزاع القائم بين الفلاسفة دائما وبين المتكلمين •

٢ ـ ويقدم الله عز وجل دليلا آخر ليبرهن على نفس القضية من خلال اثباته أن الخلق الاول أيسر من اعادته فيقول(وضرب لنا مثلا ونسى خلقهقال

من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) •

٣ — ثم بدليل آخر وهو أن خلق السموات والارض والجبال أصعب بكثير من خلق الناس واعادتهم بعد موتهم (أحياء) أو ليس الذى خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون •

٤ — وأخيرا يستدل الله سبحانه وتعـالى بالارض الميتة ينزل عليها المطر ، فتحيا بعد موتها بقوله (ان الذى أحياها ليحيي الموتى) •

(وآية لهم الإرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون) [يس آية ٣٣]

دليلا الاعتبار واللزوم :

١ — الاعتبار :

وهو يستخدم كثيرا فى القرآن عند الحديث عن الامم السابقة ، فالله عندما يقص علينا قصصهم لا يقصد مجرد الرواية وانما يقصد تعـالى أن نعتبر بحالهم •

يقول تعالى (لقد كان فى قصصهم عبرة ، ما كان حديثا ليفترى) •
ويقول (إن فى ذلك لآيات لأولى النهى) [طه آية ١٢٨]

٢ — اللزوم :

وهو الناتج عن دليل الاعتبار ، فمن قصص الانبياء الحديث عن الامم التى أهلكها الله تعالى لظلمها وهى كثيرة فى عدة مواضع يذكرها • لزوم ذلك أن تتجنب ما فعلت هذه الامم حتى لا يصيبها ما أصـابهم ، وأكثر هـذه

القصص قصة بنى اسرائيل ، ويحذر ﷺ فى أحاديثه من التشبه بأهل الكتاب والامم الاخرى [٨٠] .

وهكذا نخرج من كل هذا بأن ابن تيمية لما هدم المنطق ، واعترض على استخدام المتكلمين لبراهين ومصطلحات غير نابعة من البيئة الاسلامية ؛ لم يكتف بمجرد الهدم وانما جذب الانتباه الى منهج أفضل ينبغى علينا نحن المسلمين أن نتجه اليه لنستخدمه كبراهين أدل وآكد ، الا وهو كتاب ربنا : القرآن العظيم[٨١] .

ونعود الى الحديث عن العقل وأدلته فى دائرة الفكر الفلسفى الحديث حيث اختلطت مفاهيم وتشابكت أفكار حول عقيدة الاسلام وتاريخه وحضارته ، بسبب عوامل الغزو الثقافى الاجنبى التى تحدثنا عنها باسهاب وظهر صدى هذه الافكار أكثر ما ظهر فى فكرة شاعت حول (السلف) وملخصها أنهم يستبعدون العقل ، ولا يعترفون بالفكر الحر .

وكما قلنا ونردد دائما أن مثل هذه الافكار وليدة دراسة الفلسفة الاوروبية لا سيما فلسفة ديكارت ، وهى فلسفة تعبر عن موقف خاص بثقافة أوروبا وعلاقة الفكر الفلسفى هناك بالفكر الدينى الكنسى ، حيث

---

(٨٠) ففى الصحيحين عن ابى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذوة بالقذة (احدى ريش السهم) حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه . قالوا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟) وروى البخارى فى صحيحه عن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ (لا تقوم الساعة حتى تأخذ امتى ماخذ القرون شبرا بشبر ، وذراعاً بذراع ، فقيل : يا رسول الله ، كفارس والروم ؟ قال : ومن الناس الا أولئك ؟) .

(٨١) وكنا قد توسعنا فى شرح منهج شيخ الاسلام بكتابنا (منهج علماء الحديث والسنة فى أصول الدين) وقد اقتضى البحث اختصاره ها هنا .

ارتفع صوت أب الفلسفة الحديثة كما يسمونه هناك لمحاربة فلسفة أرسطو ومنطقه العقيم ، وأيضا لمنازعة سلطان رجال الكنيسة .

ولكن (العقل) الاستنباطى الديكارتى لا يفهم الا فى ضوء العوامل الانفة ، ولا يصح عاميا الاستناد اليه فى فهم أصول دينية أخرى — كالاسلام — وهل استطاع ديكارت — حتى بالرغم من المغالاة فى وصفه بأنه صاحب اتجاه خاص ومبدع (الفكر الحر) ، هل استطاع التخلص من النظر الغيبى أو الميتافيزيقى الذى يعد الوجه الاخر لحقيقة حياتنا ؟

الاجابة عن هذا الاستفسار الهام نلتمسه من جيمس كولينز الذى يقول (ولقد كانت لديكارت نظرية طبيعية برهانية ميتافيزيقية عن الله ، ولكنها طبيعية بمعنى استبعادها كل تأثير للوحى استبعادا ايجابيا ، وهى ميتافيزيقية بمعنى انتمائها الى علم سابق من الناحية الاستنباطية وخاضع من الناحية الوظيفية لفزياء فلسفية)[٨٢] .

فما الظن اذن بموقف كهذا يستبعد الوحى ويستبدله بعلم يستنبطه بمنهج فلسفى ؟ وهل العلم السابق المولد بمنهج الشك الديكارتى الا قانون (الفطرة) المغروز فى النفوس البشرية قاطبة وبها تعرف ربها معرفة عامة ، ثم يأتى الوحى عن طريق الرسل لتدعيم هذه المعرفة وتخصيصها وتدعيمها بالتشريعات الدينية ؟ .

ان حركة (العقل) هنا محكومة بقوانين الفطرة ، ويحتاج العقل الى الوحى كمصدر غيبى يمده بالمعرفة اليقينية .

وبهذا التصحيح لعلاقة (العقل) بالوحى امتاز منهج السلف أيضا بدوره الرائد فى النظر العلمى ومناهج البحث .

---

(٨٢) ص ٥٦٥ من كتاب جيمس كولنيز : الله فى الفلسفة الحديثة ترجمة فؤاد كامل ط مكتبة غريب بالفجالة ١٩٧٣م .

أثر عقيدة التوحيـــد عند السلف

فى النظر العلمى للمسلمين

اذا أخذنا الفلسفة اليونانية كنموذج معبر عن الاساس الايدلوجى لحضارة سابقة على حضارة الاسلام ، رأينا كيف ينظر اليونان وفلاسفهم الى الكواكب ، فقد عدوها آلهة واعتبروا الكائنات العلوية مقدسة ، ونظروا اليها نظرة وجل ورهبة ، وكان بعضهم من عبدة الكواكب .

وكذلك فان العرب الوثنيين قبل الاسلام كانوا ينظرون الى الكواكب بمثل هذه النظرة فيقدسونها ويرهبونها ويغلقون آمالهم وأحلامهم بحركاتها ودورانها ، فأصبحت قواهم العقلية والنفسية مقيدة بمعتقـــداتهم الوثنية حيث أشركوا مع الله تعالى آلهة أخرى ، وخضعوا للمعتقدات الباطـــلة فى أعمـــال التنجيم .

ثم جاء الاسلام فأبطل هذا كله وخلص العقول والنفوس من أدران الشرك والمعتقدات الباطلة لكى لا تخضـــع ولا ترهب ولا تذل ولا تخشى ولا ترجو — وقبل هذا وبعده — لا تعبد الا الله تعالى وحده ، وفك القرآن الحكيم العقول من أسر أغلال الشرك والوثنية وحضها على النظر فى ملكوت السموات والارض ؛ ودفع المسلمين الى معرفة أسرار الكون ودراسة ما فى عالم الطبيعة من قوانين موضحا أن كل ما سوى الله تعالى — سواء فى عالم الافلاك الكبرى ، أو فى أدنى أنواع الكائنات كالذباب والعنكبوت والبعوض — كلها مجرد مخلوقات لرب العالمين ، كما أوضـــح كتاب الله المقـــروء أن الانسان أفضل من الكواكب بما فيها الشمس والقمر ، وأنها مسخرة له .

كذلك ازدهر علم الفلك على أيدى المسلمين ازدهارا منقطـــع النظير — كما يرى الدكتور ألفندى — لسببين :

الاول : اعتمدت كثير من العبادات كأوائل الشهور العربية واتجــاه القبلة وتحديد مواقيت الصلاة على ظواهر فلكية .

الثانى : حث القرآن الكريم المسلمين على دراســة أجرام السماء ليلمسوا قدرة الخالق جل شأنه ويزوا روائــع آياته وعظيم تدبيره فى كل ركن من أركان السماء (٨٣) .

من كل ما تقدم يتبين لنا أن مقومات الحضارة الاســلامية تحققت بقيمها ومبادئها على أفضل صورة وأحسنها عندما تمكنت عقيدة التوحيد فى النفوس ، فنفذوا شريعة الاسلام وحققوا مبادئه وأخلاقياته .

ونعنى بالحضارة شقها الاساسى من قيم ومبادىء سلوكية قويمــة وأنماط الحياة الانسانية الفاضلة حيث يتحرى الصدق والايثار والتضحية وتفضيل الاجلة على العاجلة وابتغاء مرضاة الله تعــالى ، وبذلك تصــبح الفضائل الانسانية هى الغالبة وتنحسر الرذائل الى أدنى حد ممكن عمــلا بقــاعدة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ومن هنا يتبين لنا أن الحضارات تتشكل وفقا للعقائد والايدلوجيات فليست الحضارة اليونانية مثلا كالحضارة الفارسية أو الحضارة الاسلامية كالحضارات القديمة القائمة على العقائد الوثنية .

ان مقارنة الحضارات ينبنى على هذه المقومات العقدية والجــوانب الروحية وبها تتحدد معالمها وأصولها وتتميز عن غيرها .

أما الصبغة المــادية للحضارة أى منجزاتها العلمية التجــريبية فهى متروكة لجهود العلماء وثمرة الاكتشافات الانسانية بجهود البشر الذهنية

---

(٨٣) د. محمد جمال الدين الفندى — الاسلام وقوانين الوجود ص ١٧٦ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٢م .

والعضلية ، وتتلقى الحضارات من بعضها البعض هذه المنجـزات ومن ثم تصبح حقا مشاعا للمجتمعات كلها .

وكان المسلمون أيضا أصحاب نظريات ومخترعات لا تنكر فى هـذا المضمار عندما التزموا بالاسلام فى العقيدة والعبادات والاعمال حيث نبغوا فى علوم الفلك والطب والصيدلة والكيمياء وكانوا أساتذة العالم لعدة قرون مضت .(★)

وفى الفصل القادم ، سنتحدث — بخلاف ما تقدم — عن المفـارقين لطريقة السلف والسنة .

(★) ينظر كتابنا : مناهج البحث فى العلوم الإسلامية ص ١٠/١٨ ص ٥٧/٩٩ ط مكتبة الزهراء بالقاهرة ١٤٠٤ هـ-١٩٨٤ م

الفصل الثالث

المفارقون لطريقة السلف والسنة

١ ــ فى دائرة الاسلام :

(أ) الخوارج .

(ب) الشيعة الامامية أو الاثنى عشرية .

٢ ــ المارقون عن الاسلام :

(أ) الاسماعيلية الباطنية .

(ب) البابية والبهائية .

(جـ) القاديانية .

(د) النصيرية .

حقق الفصل السابق بحمد الله تعالى فى رأينا نتيجتين بارزتين :

أولهما : ثبت أن مقومات الحياة الحضارية قد تحققت بقيمها ومبادئها على أحسن صورة وأفضلها عندما تمكنت العقيدة فى النفــوس ، فنفــذ المسلمون شريعة الاسلام وحققوا مبادئه وشرائعه وأخلاقياته •

ونعنى بالحضارة شقها الاساسى من قيم ومبادىء سلوكية قــويمة وأنماط حياة انسانية فاضلة من الصدق والايثار والتضحية وتفضيل الاجلة على العاجلة وابتغاء مرضاة الله تعالى واشاعة الفضائل ومحاربة الرذائل ، وكلها منبثقة من عقيدة التوحيد الصحيحة التى حافظ عليها السلف •

وهذا ما دفعنا الى الافاضة والاسهاب فى الفصــل الســابق عن كل ما أحاط بفهم العقيدة والدفاع عنها •

أما الصبغة المــادية للحضارة وطرق المعيشة المتغيرة طبقا للعصــور المتوالية ، فهى متروكة للمنجزات العلمية التجريبية ونتائــج الاكتشــافات الانسانية بجهود البشر الذهنية والعضلية •

وكان المسلمون أيضا — عندما فهموا عقيدة الاسلام حق الفهم — فى مقدمة الامم ، حيث نبغ الكثير فى علوم الطبيعة والفلك والطب والصيدلة والرياضيات وغيرها ، وكانوا أساتذة العالم لعدة قرون ومنــارته فى حين أطبق على أوربا الظلام والتأخر واللاحضارة •

ثانيا : ونعتقد أيضا انه بعد شرح طريقة علماء السلف فى فهم العقيدة مدعمة بأدلتها من القرآن والسنة ، يصح أن نتقدم بهذا المنهج للمسلمين عامة وعلمائهم خاصة كبرهان على الصلة الوثيقة بين الاسلام كما شرعه الله تعالى بأصوله وعقائده وعباداته ونظمه وأخلاقياته — وبين منهج السلف

الذى مكنهم من الاحتفاظ به غضا طريا كأن الوحى نزل اليوم رغم انقضاء العصور والاجيال .

ونعود فنقول ان الالتفاف حول أصول الاسلام وتجاوز الخلافات أمر جوهرى لحياة الامة ، والمدخل الى ذلك الاتفاق على المنهج السلفى ، وهو منهج علمى مدعم بأدلته وبراهينه الدامجة بين الشرع والعقل ، ومن ثم فاذا وضح ذلك فى الاذهان والتقت عنده الافئدة ؛ أصبح من اليسير التئام الشمل وجمع الكلمة .

لذلك يؤسفنا أن يكال للمعبرين عن هذا المنهج التهم جزافا ، فيوصفون بالجمود والخضوع للنص وما الى ذلك من ظنون عرفنا بطلانها .

ويزيد أسفنا أن يستند بعض الباحثين على هذا التصور ويبنون عليه نتائج سيكون من آثارها خلافات محققة واضطرابات فى الفهم وأخطاء فى النتائج ولنأخذ مثلا على ذلك حكم أحد الباحثين على السلف فقد قال — بعد أن وصف كلام الله تعالى بأنه منزه عن أن يكون مجرد مباحث نظرية فلسفية محددة ، بل هو أشمل من ذلك وأسمى عاد فقال :

وبلغة الفلسفة نقول ان العقل الفعال الاعظم وضع العموميات . وترك للعقل المنفعل — أى العقل البشرى الذى هو أعظم ما خلق الله فى أعظم مخلوقاته وهو الانسان — مهمة صياغة النظريات ووضع المناهج)[1] .

وهذا الكلام يختلط فيه الحق بالباطل ، فالحق أن باب الاجتهاد مفتوح لعلماء المسلمين بشرط استيفاء شروطه ، ولكن الباطل هو اطلاق وصف على الله تعالى لم يصف به نفسه أو يصفه به رسوله ﷺ ، ويلحق بذلك التهويل فى وصف العقل والخضوع لفلسفة اليونان فى نظرتها للعقل ،

---

(١) د. محمود اسماعيل : الحركات السرية فى الاسلام ص ٢٥٣ من سلسلة كتاب (روز اليوسف) مايو سنة ١٩٧٣ .

ونحيل القارىء الكريم مرة أخرى الى ما سقناه آنفا من مناقشة حول هذه الفلسفة وموقفها من العقل مع التميز بين المفهوم الفلسفى والبيان الشرعى.

ويظهر الخطأ فى تصورات أخرى كثيرة منها مثلا القول بأن التصوف « الدروشة » ظل حجر الزاوية فى الفكر الاسلامى الى مشارف العصر الجديث .

وهنا تكمن أسباب النكسة الحقيقية التى ألمت بالعالم الاسلامى ، وهنا أيضا تكمن أسباب النهضة الاوروبية التى أمسكت بالخيط الذى تركه ابن رشد)[٢] .

ويبدو أن صاحب كتاب (الحركات السرية فى الاسلام) لم يقرأ شيئا قط عن علماء السلف والسنة ، لان عامة المسلمين يعرفون مدى الخصومة الشديدة بين السلفية والتصوف لا سيما صوفية وحدة الوجود وعارضوها أشد المعارضة ووقفوا ازاءها بعنف بالغ[٣] .

وكان أيضا متحاملا على علماء السنة عندما ظن أن ابن رشد هو أساس النهضة — بينما الدراسة التحليلية المقارنة تثبت أن أوربا مدينة الى علماء أصول الفقه من المسلمين الذين كانوا أول من تنبه الى دور المنهج التجريبى فى الاكتشافات العلمية وعارضوا المنطق الارسطاليسى أشد المعارضة ، وقد تكفل ابن تيمية بقيادة هذه الحملة فى كتاباته وأبرزها الرد على المنطقيين ونقض المنطق ، فضلا عن الشذرات الكثيرة فى سياق تآليفه .

صحيح أن ابن رشد كان له أثره البالغ فى أوربا ، ولكن اقتصر فى العالم على الفكر الفلسفى والدينى حيث كان أكبر فلاسفة الاسلام حظا

---

(٢) المصدر السابق ص ٢٥٤ .

(٣) ينظر كتابنا : ابن تيمية والتصوف والاتجاه السلفى فى العصر الحديث.

من الترجمة اللاتينية ، اذ تمسك اليهود بفلسفة ابن رشد وترجموها الى العبرية . وكانوا واسطة بينها وبين الفلسفة المسيحية ، حيث أسهموا فى الحركة الفلسفية فى القرون الوسطى الاوروبية وابان عصر النهضة ، ويمكن أن يقال أن فلسفتهم كانت رشدية خالصة[٤] .

وبلغ تأثير ابن رشد أشده فى رجال الدين للتحرر من سلطان الكنيسة حيث سار (الرشديون) فى طريقهم طول القرنين الرابع عشر والخامس عشر لقيادة حركة تحرر أضعفت الكنيسة وكانت من عوامل الاصلاح الدينى[٥] .

أما علماء أصول الفقه فهم الذين حملوا منهج التجربة العلمية وكانوا رسل المسلمين الى النهضة الاوروبية .

ويظهر الخلط بعد ذلك أكثر فى مثل قول الباحث :

(حاول المعتزلة تعميق فهمهم الصحيح لتلك العلاقة باطلاق العقل المنفعل — البشرى — من اساره ، لكن التيار السلفى كان غلابا ، فاستنفذوا طاقاتهم فى هدم القوالب الفكرية الرجعية « وفى هذا القول غمز خفى للنصوص » وكبح التيار الليبرالى الجامح ودار صراع كانت الغلبة فيه للاتجاه السلفى الذى مثله الاشاعرة والحنابلة ثم بلغ مداه على يد الغزالى — وضاع صوت ابن رشد — صوت العقل — واختفى فى ضجيج التيار السلفى الذى استفحل على يد المتصوفة كابن عربى وابن سبعين .. الخ ..)[٦] .

---

(٤) د. محمد بيومى مدكور : فن الفلسفة ص ١٧٣ بكتاب اثر العرب والاسلام فى النهضة الاوروبية الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠ .

(٥) المصدر نفسه ص ١٩١ .

(٦) د . محمود إسماعيل : الحركات السرية فى الإسلام

ويبدو من هذه العبارة أن باحثنا لم يكلف نفسه عناء النظر فى أصول السلف ومناهجهم فخلط بينهم وبين الاشاعرة من جانب ، كما خلط بينهم وبين صوفية وحدة الوجود كابن عربى وابن سبعين من جانب آخر •

وعذر الباحثين المائلين للاتجاه العقلانى — وخاصة الاعتزالى — انهم اما انهم يتبعون خط سير المؤلفات الاستشراقية ويقتفون آثارهم ،أويظنون أن علماء السنة والسلف اقتصر دورهم على صب جام غضبهم على أشخاص المعتزلة فاكتفوا برميهم بالمجون والاستخفاف بالدين ومحاولة هدمه واحلال الفكر الوثنى محله ، دون مقارعة الحجج بنفس الطريقة[٧] •

والشرح يطول ، وتفنيد الاخطاء فى هذا الفهم قد يخرج بنا عن المقصود[٨] ، ونكتفى بما وضحناه فى الفصل السابق •

ولكن الجديد الذى نود اضافته القول بأننا لن نستطيع معرفة وتقويم الانشقاقات التى حدثت فى الصف الاسلامى الا بعد الوقوف على معالم الاصول السلفية أولا ، وبعدها يسهل الاستدلال على المنشقين والمفارقين لهم •

وكنا قد ألمحنا آنفا الى الفرق المخالفة للاتجاه السلفى قديما وحديثا والان سنتعرف على هذه الفرق بالاختصار ليميز المسلم المعاصر بين عقيدة الاسلام الصحيحة المتلقاة عن السلف مؤيدة بالحجج والبراهين وبين هذه العقائد النابعه عن تفسيرات وتأويلات خاطئة انحرفت بها عن الطريق

---

(٧) المصدر نفسه ص ١٢٤ . ويرجى الرجوع الى كتابنا (منهج علماء الحديث والسنة فى أصول الدين) الذى اثبتنا به أن لعلماء السلف حججهم العقلية المفحمة فى الرد على المعتزلة والاشاعرة .

(٨) ندعو ونرجو هذا الباحث الفاضل وغيره الاطلاع على كتب السلف قبل اصدار الاحكام الجزامية هكذا .

القويم ، فضلا عن عوامل خارجية كالاستعمار والصهيونية شـجعتها على المضى قدما وأحاطتها بالرعاية والدعاية وجندت لها الاعوان .

وليت الأمر اقتصر على تأويلات الفرق الاسلامية كالخوارج والشيعة الامامية ـ أو الاثنى عشرية ـ ولكن البعض الاخر مرتد من الاسلام كما يتضح عند دراستنا لفرق الشيعة الباطنية الاسماعلية والبهائية والقاديانية والنصيرية .

وسنوجز عنهم الحديث فى مبحثين :

الاول ـ الخوارج والشيعة الامامية أو الاثنى عشرية .

الثانى ـ المـارقـون عن الاســلام .

(١) الخوارج والشيعة الاثنى عشرية

أولا : الخـــوارج :

يروى المؤرخون أن الخوارج يمثلون أول انشقاق حقيقى فى الصـــف الاســـلامى .

وقد أشبعنا هذه الفرقة بحثا ودراســـة ، ولهـــذا فسنقتصر هنا على عرض نبذة عن نشأتها ومعتقداتها وآثارها التزاما بمنهج الدراسة بهـــذا الكتاب : حيث تظهر الخوارج كحركة انشقاق عن السلف الصالح .

وفى ضوء هذا ، يصبح من المفيد ابراز آراء الاتجاه الذى يتبناه علماء السلف والسنة لمحاولة نبذ الخلافات والتحـــذير الشـــديد من الفتن بين المسلمين حتى لا يهنوا ويضعفوا أمام أعدائهم .

ونشأ الخوارج على أثر واقعة (التحكيم) بين على ومعاوية رضى الله عنهما ، فأجمعوا — كما يذكر أبو الحسن الاشعرى — على اكفـــار على بن أبى طالب — رضوان الله عليه ، أن حـــكم . وهم مختلفون هل كفره شرك أم لا .

ومن عقائدهم ان كل كبيرة كفر ، الا فرقة منهم — وهى « النجدات » فانها لا تقـــول ذلك .

وأجمعوا على أن الله سبحانه يعذب أصحاب الكبائر عـــذابا دائما ، الا (النجدات)[١٠] .

---

(٩) ينظر (كتابنا : نظام الخـــلافة فى الفكر الاســـلامى) دار الدعـــوة بالاسكندرية . وكتاب (الخوارج) دار الانصار بالقاهرة .

(١٠) أبو الحسن الاشعرى : مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين جـ١ ص ١٦٨ تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد مكتبة النهضـــة المصرية ١٣٨٩هـ — ١٩٦٩م .

وقد أحدث الخوارج — سواء بعقائدهم أو توالى خروجهم على الخلفاء — أحدثوا هزات عنيفة فى المجتمعات الاسلامية ، وانعكست آثار ذلك كرد فعل فى كتب علماء السلف والسنة للرد على هذه المعتقدات وشجبها .

وقد وصفهم ابن تيمية بأنهم كانوا من أظهر الناس بدعة وقتالا للامة وتكفيرا لها .

ولكن لم يقابلهم الصحابة — لا على بن أبى طالب ولا غيره — بالمثل، بل حكموا فيهم بحكمهم فى المسلمين الظالمين[11] .

ويلفت نظرنا هذا التفاوت الشديد بين الموقفين المتعارضين ، اذ بينما يكفر الخوارج غيرهم من المسلمين ، لم يفعل ذلك الصحابة رضى الله عنهم .

والحق أنه يتبين لكل من استقرأ أحوال الفتن التى حدثت منذ البداية على أيدى الخوارج ، يتبين أنه ما اشترك فيها أحد الا وأصابه الضرر وأوقع الضرر على غيره .

ويتبنى ابن تيمية موقف السلف وأهل السنة فى النهى عن الخروج ، ويرى فساد الخروج على الامام ، وأن مفسدته أعظم من مصلحته ، اذ قل من خرج على الامام ذى سلطان الا كان ما تولد على فعله من الشر أعظم

ويعدد الاشعرى القابهم المختلفة ، فقد سموا خوارج لخروجهم على على بن أبى طالب ، وسموا محكمة لانكارهم الحكمين ، وقولهم : لا حكم الا لله ، وسموا حرورية لنزولهم بحروراء فى أول أمرهم . وسموا شراة لقولهم : شرينا أنفسنا فى طاعة الله ، أى بعناها بالجنة . نفسه ص ٢٠٦ـ٢٠٧ .

(١١) ابن تيمية : كتاب الايمان ص ١٢٩ ط مكتبة أنصار السنة المحمدية بالقاهرة .

ممـــا تولد من الخير . ولذا كان أفاضل المسلمين ينهون عن الخروج عـــن الائمة الشرعيين والقتال فى الفتنة[١٢] .

ودعاه ذلك الى استرجاع التاريخ وتقويم أحـــداثه ملتزما بالمنهـــج السلفى ، فأخذ يستدل بنصوص الكتاب والسنة شارحا ومفسرا .

ويرى شيخ الاسلام أن الاصوب ألا يكون قتال أصلا ، وكان ترك القتال خير للطائفتين فليس فى الاقتتال صواب ، ولكن على كان أقرب الى الحق من معاوية والقتال فتنة ليس بواجب ولا مستحب ، وكان ترك القتال خيرا للطائفتين مع أن عليا كان أولى بالحق ، وهذا هو قول أحمـــد وأكثر أهل الحديث وأكثر أئمة الفقهاء وهو قول أكابر الصـــحابة والتابعين لهم باحسان وهو قول عمران بن حصين رضى الله عنه وكان ينهى عن بيع السلاح فى ذلك القتال ويقول هو بيع الســـلاح فى الفتنة وهو قـــول أسامة بن زيد ومحمد بن مسلمة وابن عمـــر وســـعد بن أبى وقاص وأكثر من بـــقى من المهاجرين والانصار رضى الله عنهم .

ولهذا كان من مذهب أهل السنة الامساك عما شجر بين الصـــحابة ، فانه قد ثبتت فضائلهم ووجبت موالاتهم ومحبتهم وما وقع منه ما يكون لهم فيه عذر يخفى على الانسان ومنه ما تاب صاحبه منه ومنه ما يكون مغفورا ، فالخوض فيما شجر يوقع فى نفوس كثير من الناس بغضا وذما ويكون فى ذلك هو مخطئا بل عاصيا فيضر نفسه ومن خاض معه فى ذلك .

.. والكتاب والسنة دل على أن الطائفتين مســـلمون وان ترك القتال كان خيرا من وجوده قال تعالى (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر

---

(١٢) ابن تيمية : منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة والقـــدرية المطبعة الكبرى الاميرية ببولاق — مصر ١٣٢١هـ الجزء الثانى ص ٢١٠ .

الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين) الحجرات آية ٩ — فسماها مؤمنين أخوة مع وجود الاقتتال والبغى ؛ وفى الصحيحين عن النبى ﷺ انه قال (تمرق مارقة على حين فرقة من المسلمين تقتلهم أولى الطائفتين بالحق ، وهؤلاء المارقة مرقوا على على فدل على أن طائفته أقرب الى الحق من طائفة معاوية ، وفى الصحيح عن النبى ﷺ انه قال (ان ابنى هذا سيد وان الله سيصلح به بين فئتين عظيمتين من المؤمنين) فأصلح الله به بين أصحاب على وأصحاب معاوية .

فمدح النبى ﷺ الحسن بالاصلاح بينهما وسماهما مؤمنين وهذا يدل على أن الاصلاح بينهما هو المحمود ولو كان القتال واجبا أو مستحبا لم يكن تركه محمودا .

وقد روى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم انه قال (ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشى والماشى فيها خير من الساعى من يستشرف لها تستشرفه ومن وجد فيها ملجأ فليعذ به) أخرجاه فى الصحيحين .

وفى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال (يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شغف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن) .

وفى الصحيح عن أسامة بن يزيد رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال (انى لارى الفتن تقع خلال بينكم كمواقع القطر) .

والذين رووا أحاديث القعود فى الفتنة والتحذير منها كسعد بن أبى وقاص ومحمد ابن مسلمة وأسامة بن زيد لم يقاتلوا لا مع على ولا مع معاوية . وقال حذيفة رضى الله عنه (ما أحد من الناس تدركه الفتنة الا أنا

أخافها عليه الا محمد بن مسلمة فانى سمعت رسول الله ﷺ يقول له لا تضرك الفتنة) .

وعن ثعلبة بن ضبيعة قال دخلنا على حذيفة فقال (انى لاعرف رجلا لا تضره الفتنة شيئا فخرجنا فاذا فسطاط مضروب فدخلنا فاذا فيه محمد بن مسلمة فسألناه عن ذلك فقال (ما أريد أن يشتمل على شيء من أمصارهم حتى تتجلى عما انجلت) . رواه أبو داود(١٣) .

والنظرة التحليلية لهذه النصوص تصل بنا الى فهم عدة قضايا أثيرت بين المسلمين .

لعل أولها موقف السلف وأهل السنة من الصحابة رضى الله عنهم ، فانهم يمثلون الصفوة الممتازة بعد رسول الله ﷺ والكف عما شجر بينهم يحافظ على مكانتهم فى القلوب باعتبارهم أوائل الاجيال التى ضحت فى سبيل الله ورسوله ﷺ ولا تخل صحيفة أحد منهم من جلائل الاعمال وعظائم التضحيات فى السلم والحرب .

واذا قورنوا بأعمالهم وفضائلهم كصفوة هذه الامة بغيرهم من الامم لرجحت كفتهم بغير شك ، بل ان الترجمة الشخصية لكل واحد منهم تعد مفخرة بكل المقاييس .

الى أن عقيدة السلف وأهل السنة لا ترى العصمة لاحد بعد الرسل والانبياء عليهم الصلاة والسلام .

ونلاحظ أيضا حرص شيخ الاسلام ابن تيمية — وهو أحد كبار علماء السلف — على التقيد بالايات القرآنية والاحاديث النبوية لانارة الطريق الى الرأى الصائب . فهى المحك الوحيد فى الحكم على مثل هذه الاحداث

---

(١٣) ابن تيمية : منهاج السنة .. جـ٢ ص ٢١٠—٢١١ .

بدلا من اصدار الاحكام كأصـــداء لاهــواء النفس أو خضــوعا لنزعات الشيطان .

هذا فضلا عن أن موقف الكف عما شجر بين الصحابة له مغزى أعمق حيث يؤدى الى عدم الالتفات الى حوادث تاريخية مضت عليها القرون .

حيث لا طائل من جراء القاء الاتهامات جزافا كما فعل الخوارج أو الشيعة أو محاولة تحليل أحداث لا يملك المسلم العادى الادوات الضرورية للبحث وادراسة ، ولا تتوافر الا للعلماء — لا سيما المتخصصين فى التاريخ مع توافر حسن النية — والتقوى — وهى الاولى بالمراعاة .

وبغير ذلك يصبح من قبيل ضياع الوقت والجهد الخوض فيما لا طائل وراءه ، ويصبح الاولى والاجدر أن يسأل كل مسلم نفسه ماذا قدم هو الى الاسلام والمسلمين .

وعندئذ تصبح المقارنة بين أحدنا وبين الصحابة — رضى الله عنهم — مدعاة للخجل الشديد وحافزا لذوى القلوب الحية الى استنهاض الهمم ، بعد وضع هذه الصفوة الممتازة فى مكانها الصـــحيح كطلائــع الحضـــارة الاسلامية ورواد أجيالها .

أما الشيعة ، فقد أعلنوا أحقيـــة على ابن أبى طالب رضى الله عنـــه بالخلافة منذ وفاة النبى ﷺ ثم وقع النزاع فاتسعت فجوة الخلاف بينهم وبين السلف وأهل السنة .

وسنتكلم الان عن الشيعة وأهم فرقها وعقائدها :

ثانيا : الشيعة وعقائدها :

يعرف الشهرستانى الشيعة بقوله :

الشيعة هم الذين شايعوا عليا رضى الله عنه على الخصوص ، وقالوا بامامته وخلافته نصا ووصية ، اما جليا واما خفيا واعتقــدوا أن الامامــة لا تخرج من أولاده وان خرجت فبظلم يكون من غيره ، أو بتقية من عنده . وقالوا : ليست الامامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة وينتصب الامام بتنصبهم ، بل هى قضية أصولية ، وهى ركن الدين ، لا يجوز للرسل عليهم السلام اغفاله واهماله ، ولا تفويضه الى العامة وارساله) [١٤] .

ويتضح من ذلك أن مفترق الطرق بين أهل السنة والشيعة هو الاعتقاد فى الامامة ، حيث يتفقان على كون الامامة هى الزعامة أو الرئاسة فى أمور الدين والدنيا وهى نيابة عن الرسول ﷺ .

ولكن الاختلاف بينهما فى اعتقاد الشيعة انه منصوص على شــخص الامام بعد النبى ﷺ ، وانه معصوم .

يقول أحد علماء الشيعة المعاصرين :

(فالامامة كالنبوة من المناصب الالهية التى تحتاج الى النصب من الله تعالى ســوى أن الامام لا يوحى اليه كما يوحى الى النبى ﷺ ، فكما أن الله تعالى يختار من يشاء من عباده للنبوة ويؤيده بالمعجزة تصديقا لدعوته ، فكذلك يختار من يشاء للامامة ويأمر نبيه ﷺ بأن ينص عليه)[١٥] .

---

(١٤) الشهرستانى : كتاب الملل والنحل ـــ القسم الاول ص ١٣١ تخريج محمد بن فتح الله بدران ـــ مكتبة الانجلو المصرية ـــ ١٣٧٥هـ ـــ ١٩٥٦م .

(١٥) السيد امير محمد الكاظمى القزوينى : الشيعة فى عقائدهم واحكامهم ص ٥٨ ـــ الدار الزهراء ـــ بيروت ١٣٩٧هـ ـــ ١٩٧٧م .

وما دام الامر كذلك فقد نشأت مشكلة بيان حكمهم على من حارب عليا رضى الله عنه ، فمنهم من كفرهم ورماهم بالضلال وشهدوا بذلك على طلحة والزبير ومعاوية بن أبى سفيان ، وكذلك قالوا فيمن ترك الائتمام به بعد الرسول ﷺ .

وفرقة ثانية زعموا أن من حارب عليا فاسق ، ليس بكافر ، الا أن يكون حارب عليا عنادا للرسول ﷺ وردا عليه ، فهم كفار .

وكذلك يقولون فى ترك أصحاب رسول الله ﷺ الائتمام بعلى بن أبى طالب بعده : انهم ان كانوا تركوا الائتمام به عنادا للرسول عليه الصلاة والسلام وردا عليه فهم كفار ، وان كانوا تركوا ذلك لا على طريق العناد والتكذيب للرسول ﷺ والرد عليه ، فقوا ولم يكفروا[١٦] .

ولهذا الموقف أثره أيضا على نظرتهم للصحابة بعامة .

وكان التشيع قد نشأ أول ما نشأ عندما حدثت المفاضلة بين على وعثمان رضى الله عنهما أى أنه كان فى بدايته اتجاها عاطفيا لا دخل فيه لعناصر عقلية بل لم يكن الشيعة الاوائل ينالون من أبى بكر وعمر باعتراف شيوخهم أنفسهم فقد سئل شريك بن عبد الله القاضى « أنت من شيعة على وتفضل أبا بكر وعمر ؟ فقال : كل شيعة على على هذا هو يقول على أعواد هذا المنبر خير هذه الامة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر أفكنا نكذبه ؟ والله ما كان كذابا) .

وكانت الامامة أو الخلافة هى الحجر الاساسى اذن فى ظهور الافكار الشيعية كما قدمنا ومؤدى عقيدة التشيع أن عليا بن أبى طالب هو الامام

---

(١٦) الاشعرى : مقالات الاسلاميين جا ص ١٢٨—١٢٩ .

بعد رسول الله ﷺ بالنص الجلى الواضح فى بعض الاحاديث أو بالنص الخفى المستقر بين أسطر القرآن ومعانيه وأن الامامة لا تخرج عنه وعن أولاده الا بظلم أو تقيه[١٧] .

واعتقدت طائفة الشيعة اعتقادا جازما أن أمامة على قد نص عليها نصا يقينيا ، وأن النبى ﷺ قد نص على أمامة على للمسلمين من بعده ، ولذلك جعلوا الايمان بالامام جزءا من الايمان الدينى ومتمما للشهادتين ، وأكبر طوائف الفرق الشيعية فى عصرنا الحاضر هى :

١ — الاثنى عشرية .
١ — الاثنى عشرية .
٢ — الزيدية .
٣ — الاسماعيلية الباطنية .

١ — الاثنى عشرية :

ويعد الشيعة المعتدلة هم الإثنى عشرية التى تنسب إلى جعفر الصادق وهى تقول بإمامة على بن أبى طالب رضى الله عنه ثم تتسلسل الأئمة بعده حسب الترتيب الآتى :

الأول : أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه استشهد فى ٢١ رمضان فى الكوفة على يد عبد الرحمن بن ملجم فى عام ٤٠ للهجرة النبوية .

الثانى : الحسن بن على رضى الله عنه . مات فى ٧ صفر من عام ٥٠هـ .

---

(١٧) د. على سامى النشار — التفكير الفلسفى فى الاسلام (مذاهب وشخصيات) ص ١٠٧ — دار الكتب الجامعية بالاسكندرية ١٣٩٢هـ — ١٩٧٢م

الثالث : الحسين بن على رضى الله عنه . قتل سنة ٦١ هـ .

الرابع : على بن الحسين زين الدين توفى عام ٩٥ هـ .

الخامس : محمد بن على الباقر توفى عام ١١٤ هـ .

السادس : جعفر بن محمد الصادق توفى عام ١٤٨ هـ .

السابع : موسى بن جعفر الكاظم مات عام ١٨٣ هـ .

الثامن : على بن موسى الرضا مات عام ٢٠٣ هـ .

التاسع : محمد بن على التقى الجواد توفى عام ٢٢٠هـ .

العاشر : على بن محمد الهادى توفى عام ٢٥٤هـ .

الحادى عشر : الحسن بن على العسكرى توفى عام ٢٦٠ هـ .

الثانى عشر : الامام محمد بن الحسن الغائب المهدى المنتظر ولد فى ١٥ شعبان سنة ٢٥٦هـ .

ويرى الشيعة أنه غاب غيبتين الصغرى فى عام ٢٦١هـ والكبرى عام ٣٢٩ هـ .

ويورد صاحب كتاب (الشيعة فى عقائدهم وأحكامهم) أقوالا كثيرة على ألسنة أهل السنة ليثبت صحة عقيدة الشيعة فى المهدى المنتظر .

منها قول الشعرانى فى كتابه (اليواقيت والجواهر) « واعلموا انه لا بد من خروج المهدى ، لكن لا يخرج حتى تمتلىء الارض جورا وظلما ، فيملؤها قسطا وعدلا ولو لم يكن من الدنيا الا يوم لطول الله تعالى ذلك اليوم حتى يلى ذلك الخليفة وهو من عترة رسول الله ﷺ من ولد فاطمه .. يواطى اسمه اسم رسول الله ﷺ يبايعه المسلمون بين الركن والمقام » .

ومنها قول ابن حجر الهيثمى فى (الصواعق المرسلة) :

(تواترت الاخبار واستفاضت بكثرة رواتها عن المصطفى ﷺ بخروج المهدى فى آخر الزمان ، وانه من أهل بيته ﷺ وانه يملك سبع سنين ، وانه يملأ الارض قسطا وعدلا ويصلى عيسى عليه السلام — خلفه ..) .

الى أحاديث أخرى رواها أبو داود والترمذى والطبرانى .

ويخلص المؤلف من كل هذا الى تقرير ان الاعتقاد بوجود المهدى ليس من خواص الشيعة وحدهم[١٨] .

ولكن بالرجوع الى هذه الاحاديث المروية فى كتب السنة لا يتبين منها قط أن المهدى حى يرزق الان ، وهذا هو مفترق الطرق بين عقيدة السلف والشيعة فى (المهدى المنتظر) .

ومستندا فى هذه القضية التى تحتاج الى علماء الحديث الثقات- هو عالم السلف الشهير ابن القيم ، حيث عرض للروايات المختلفة ونقد رجالها ثم صنف الاحاديث فى (المهدى) الى أربعة أقسام صحاح وحسان وغرائب وموضوعه فليرجع اليها من يريد الوقوف على تفاصيل ذلك[١٩] .

ولكننا نكتفى بما أورده على وجه الاجمال ، حيث اختلف الناس فى المهدى على أربعة أقوال :

أحدهما — انه المسيح ابن مريم ، وهو المهدى على الحقيقة .

---

(١٨) السيد امير محمد الكاظمى الزوينى : الشيعة فى عقائدهم واحكامهم صفحة ٥٨ .

(١٩) ابن القيم — المنار فى الصحيح والضعيف ص ١٤١ — ١٤٨ تحقيق عبد الفتاح ابو غده — مكتبة المطبوعات الاسلامية — حلب ١٣٩٠هـ — ١٩٧٠م

وقد دلت السنة الصحيحة عن النبى ﷺ على نزوله على المنارة البيضاء شرقى دمشق ، وحكمه بكتاب الله وقتله اليهود والنصارى ووضعه الجزية ، واهلاك أهل الملل فى زمانه .

فهو اذن عليه السلام المهدى الكامل المعصوم .

القول الثانى — انه المهدى الذى ولى من بنى العباس ، وقد إنتهى زمانه .

وفى سلسلة اسناد الحديث (على بن زيد) فانه ضعيف وله مناكير تفرد بها ، فلا يحتج بما ينفرد به .

القول الثالث :

أورد ابن القيم ثلاثة أحاديث اختار واحدا منها وعلق عليه كما سيأتى .

والحديث رواه أبو نعيم من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ (يخرج رجل من أهل بيتى ، يعمل بسنتى ، وينزل الله له البركة من السماء وتخرج له الارض بركتها ويملأ الارض عدلا ، كما ملئت ظلما ، ويعمل على هذه الامة سبع سنين ، وينزل بيت المقدس) .

ويرى ابن القيم أن فى كونه من ولد الحسن سر لطيف وهو أن الحسن رضى الله تعالى عنه ترك الخلافة لله فجعل الله من ولده من يقوم بالخلافة الحق ، المتضمن للعدل الذى يملأ الارض . وهذه سنة الله فى عباده أنه من ترك لاجله شيئا أعطاه الله ، أو أعطى ذريته أفضل منه ، وهذا بخلاف

الحسين رضى الله عنه ، فانه حرص عليها ، وقاتل عليها ، ولم يظفـر بها ، والله أعلم (٢٠) .

وعلى أية حال فانه فى مقارنته بين الاحاديث الواردة فى المهدى عند أهل السنة ، يقرر انه اذا كان فى اسنادها بعض الضعف والغرابة ، فهى مما يقـوى بعضها بعضا ، ويشد بعضها ببعض(٢١) والله تعالى أعلم .

والان ، نتناول الزيدية عرضا لنشأتهم وايضاحا لعقيدتهم :

الزيدية :

يتفق مؤرخو الفرق على أنهم أتباع زيد بن على بن الحسين بن على ابن أبى طالب رضى الله عنهم ساقوا الامامة فى أولاد فاطمة رضى الله عنها ، ولم يجوزوا ثبوت الامامة فى غيرهم .

ويذكر الشهرستانى أنهم جوزوا أن يكون كل فاطمى ، عالم ، زاهد ، شجاع ، سخى خرج بالامامة أن يكون اماما واجب الطاعة سـواء كان من أولاد الحسن ، أو من أولاد الحسين رضى الله عنهما(٢٢) .

ويعطينا الاشعرى تفاصيل أكثر عن الامام زيد فيذكر انه كان يفضل عليا بن أبى طالب على سائر أصحاب رسول الله ﷺ ، ويتولى أبا بكر وعمر ويرى الخروج على أئمة الجور(٢٣) ، فلما ظهر فى الكوفة فى أصحابه الذين بايعوه سمع من بعضـهم الطعن على أبى بكر وعمـر ، فأنكر ذلك على من

---

(٢٠) المصـدر نفسـه ص ١٥١ .
(٢١) المصـدر نفسـه ص ١٥٢ .
(٢٢) الشهرستانى : الملل والنحل ق١ ص ١٣٧ـ١٣٨ .
(٢٣) وكان هو نفسه قد خرج بالكوفة على هشام بن عبـد الملك وقتل : مقـالات جـ١ ص ١٥٣ .

سمعه منه ، فتفرق عنه الذين بايعوه . فقال لهم (رفضتمونى) فيقال : انهم سموا الرافضة لهذا السبب[٢٤] .

ويتميز الزيدية بأنهم يرون جواز امامة امامين فى وقت واحد ، وربما يرجع ذلك الى بواكير الحركة على أيدى أئمتهم السابقين ، حيث خرج الامامان محمد وابراهيم ابنا عبد الله بن الحسن بن الحسين اللذان خرجا فى أيام المنصور وقتلا على ذلك .

ومن هنا جوزوا خروج امامين فى قطرين يستجمعان الخصال السابق ذكرها ، ويكون كل واحد منهما واجب الطاعة[٢٥] .

ومثل هذا الرأى يفتح الباب للاجتهاد أمام الفقهاء المعاصرين فى قضايا الفقه السياسى فى ضوء واقع الامة الاسلامية ، أى بعد انقضاء الخلافة الاسلامية .

وعلى أية حال ، فان الزيدية أقرب فرق الشيعة الى أهل السنة ، وينتشرون فى اليمن .

أما الشيعة الاثنى عشرية فيعيش أكثرهم فى العراق وينتشرون حول المشاهد فى بغداد والنجف وكربلاء ، وهناك عدد منهم فى لبنان وسوريا والكويت والبحرين .

وهناك أيضا أعداد كبيرة فى الهند وباكستان وايران .

هؤلاء هم معتدلة الشيعة وعقائدهم . وبقى أن نعرض لموقف علماء السلف والسنة منهم :

---

(٢٤) الاشعرى : مقالات الاسلاميين جا ص ١٣٧ .
(٢٥) الشهرستانى : الملل والنحل ق١ ص ١٣٨ .

موقف علماء السلف والسنة من التشيع

قبل التعرض للنقد لفرق الشيعة وتفنيد الاراء التى اعتنقوها وأعلنوها نرى استطلاع نظرة السلف وأهل السنة للفرق المنشقة ، وكيف بدأت تتخذ موقفا محددا ازاءها ، وذلك بوضع القواعد الثابتة ، بحيث تتضح معالمها الرئيسية ومن ثم ، يسهل معرفة الخارجين عنها ، وأسباب انشقاقهم عن صف الجماعة • وتظهر البوادر الاولى فى قول أبى حنيفة عندما سئل عن أهل الجماعة فأجاب (الجماعة سبعة أشياء ، أن يفضل ، أبا بكر وعمر وأن يحب عثمان وعليا وأن يصلى على من مات من أهل القبلة بذنب ، وألا ينطق فى الله بشىء من رأيه ، ولكنه يصفه بما وصف به نفسه)[٢٦] •

وكذلك قال صاحب أبو يوسف « مذهب أهل الجماعة عندنا وما أدركنا عليه جماعة أهل الفقه ممن لم يأخذ من البدع والاهواء أن لا يشتم أحد من أصحاب رسول الله ﷺ ولا يذكر فيهم عيبا ولا يذكر ما شجر بينهم فيحرفوا القلوب عنه وأن لا يشك بأنهم مؤمنون وأن لا يكفر أحدا من أهل القبلة ممن يقر بالاسلام ويؤمن بالقرآن ولا يخرجه من الايمان بمعصية ان كان فيه ولا يقول بقول أهل القدر » •

ونلخص موقف علماء السنة والسلف فيما أثير من موضوعات على النحو التالى :

أولا : موقفهم من الخلفاء الراشدين :

من المتواتر أن أبا بكر لم يطلب الخلافة برغبة ولا برهبة ، فلا بذل فيها مالا ولا شهر عليها سيفا ، ولا كانت له عشيرة ضخمة ، ولا عدد من

---

(٢٦) مجموعة تفسير شيخ الاسلام ابن تيمية ص ٣٨٨—٣٨٩ تحقيق عبد الصمد شرف الدين ط بمباى بالهند ١٣٧٤هـ — ١٩٥٤م •

الموالى تقوم بنصره ، بل ، ولا قال : بايعونى ، وانما أشار فى سقيفة بنى ساعدة ببيعة عمر أو أبو عبيدة . ثم الذين بايعوه طائعين هم الذين بايعوا رسول الله ﷺ الذين رضى الله عنهم ، فقاتل أبو بكر بهم المرتدين وفارس والروم وثبت بهم الاسلام فلما جاءه اليقين (الموت) خرج من الدنيا أزهد مما دخل فيها ، ولم يستأثر فيها بشىء عن الرعية ولا آثر قرابته بل نظر الى أفضلهم فى نفسه فولاه عليهم وهو عمر رضى الله عنه . فأطاعوه كلهم ، ففتح الامصار وقهر الكفار ، وأذل أهل النفاق ، وبسط العدل ووضع الديوان والعطاء لازما لعيش من قلة فى مأكله ، ومشربه ، وملبسه ، حتى خرج منها شهيدا لم يتلوث لا بمال ولا ولى أحدا من أقاربه ولاية ، وهذا أمر يعرفه كل من يعرف وينصف .

ثم بايعوا عثمان كلهم طوعا منهم فصاروا على أمر قد استقر فى عهده وفى عهد من قبله بسكينة وهدى ورحمة وكرم ولين لكن لم تكن فى عثمان رضى الله عنه قوة عمر ولا سياسته التى بهرت العقول فطمع فيه الناس بعض الطمع وتوسعوا فى الدنيا ، وكثرت عليهم الاموال وتحركت اليهود لاثارة الفتن مستغلة بعض الاوضاع السائدة حين ذاك .

كذلك ثبت أن عليا لم يطلب الامر لنفسه فى خلافة أبى بكر وعمر وعثمان ولم يبايعه أحد على الخلافة أيام الخلفاء الثلاثة .

ثانيا : الخلافة أو الامامة :

١ — وضع الشيعة مسألة الامامة فى المكان الاول من الاهمية كما رأينا وعدوها أهم المطالب فى أحكام الدين ليست هذا فحسب بل أدخلوها ضمن العقائد الايمانية ، وقد تعرضت هذه الفكرة للنقد الشديد بواسطة أهل السنة والجماعة لان القواعد التى بنى عليها الاسلام معروفة محفوظة،

وأولها الشهادة فهى تنقل غير المسلمين الى الاسلام ، ولم يحدث أن ذكر الرسول ﷺ مسألة الامامة حين كان يدعو الناس للاسلام ، وانما دعا الى الشهادة فحسب كما لم تظهر حاجة المسلمين للامامة حال حياته لانه صلوات الله عليه وسلم كان امام المسلمين .

إذا افترضنا أن الإمامة هى أهم اصل من اصول الدين لكان من الجدير أن يوضحها الكتاب الكريم ، ولاظهرتها السنة فان القرآن بين أيدينا يتضمن مواضيع عدة تتناول ذكر الخالق سبحانه وتعالى وصفاته وآياته ومخلوقاته كما يحتوى على قصص الانبياء والرسل ، وينص فيه على الفرائض التى كلف المسلمون بأدائها ، فلو كانت أهم مسائل الدين لنص عليها الكتاب كما فعل بالنسبة لغيرها من الموضوعات ، ولكنها فى الحقيقة ليست أشرف المسائل . هذا هو الدليل الاول .

٢ — أما الدليل الثانى : فهو أن المصنفين فى أصول الدين يذكرون مسائل أكثر أهمية منها . وهى التوحيد والعدل والنبوة ثم يأتون بالامامة فى نهاية المطاف ، كذلك رتب المعتزلة أصولهم الخمس حسب درجاتها من الاهمية ، فوضعوا الاصل الخامس — وهو الامر بالمعروف والنهى عن المنكر — الذى تتعلق به مسائل الامامة فى آخر هذه الاصول من حيث الترتيب .

ثالثا : الامامة بالاختيار لا بالنص :

يرى ابن تيمية أن الاحاديث التى تؤيد فكرة النص على على بن أبى طالب لا تخلو من الوضع منها حديث يستشهد بها الحلى (عالم شيعى) حرميا كما يذكر بواسة أحمد بن حنبل فى مسنده عن أنس بن مالك قال « قلنا لسلمان سل النبى ﷺ من وصيه فقال سلمان يا رسول الله من وصيك؟ فقال يا سلمان من كان وصى موسى فقال يوشع بن نون فقال ان وصى ووارثى ويقضى بعدى وينفذ وعدى على بن أبى طالب .

ويكذب شيخ الاسلام هذا الحديث وحجته أن مسند الامام أحمد خال منه فضلا عن أن المسند احتوى أحاديث أضيفت اليه بواسطة ابنه ومع هذا فان الحديث المذكور لم يكن ما رواه الامام أحمد •

أما عن الآية القرآنية (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) [الأحزاب ٣٣] فقد اشتراك فى مضمون الآية السيدة فاطمة والحسن والحسين مع على ومعلوم أن المرأة لا تصلح للامامة فعلم أن هذه الفضيلة لا تختص بالائمة بل يشركهم فيها غيرهم ثم أن المفهوم من الاية أن الرسول ﷺ دعا لهم باجتناب الرجس والتطهير والابتعاد عن الرجس واجب على المؤمنين فقد أمرهم الله تعالى بالطهارة والكتاب الكريم حافل بمثل هذه الايات كقول الله تعالى « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » وتمشيا مع ما تضمنته مثل هذه الاية أن الرسول ﷺ قصد الدعاء لاهلبيته بأداء الاوامر الالهية واجتناب النواهى كما دعى لغيرهم بالجنة والمغفرة أما الحديث المشهور أنت منى بمنزلة هارون من موسى فينبغى تفسيره فى ضوء الاحداث التاريخية ومعرفة المناسبة التى قيل فيها •

فقد كان الرسول ﷺ يترك بالمدينة فى كل غزوة رجالا من المهاجرين والانصار باستثناء غزوة تبوك حيث أمر الرجال جميعا بالنهوض للجهاد وعدم التخلف فلم يقعد بالمدينة الا العصاة لا وامره ، أو المعذورين والنساء والاطفال ، فكره على بن أبى طالب التخلف ورغب فى الالتحاق بالجيش ولم يرض البقاء مع النساء والصبيان وهو المحارب المشهود له بالشجاعة والكفاءة القتالية ولذلك فقد خفف عنه الرسول ﷺ من وقع حزنه مبينا له أن الاستخلاف ليس فيه غضاضة وضرب له مثلا بموسى عليه السلام الذى

استخلف أخاه هارون على قومه لامانته ولكن موسى عليه السلام استخلف نبيا ولا نبى بعد محمد ﷺ وهذا تنبيه فى أصل الاستخلاف فان موسى استخلف هارون على جميع بنى اسرائيل والنبى ﷺ استخلف عليا على قليل من المسلمين وجمهورهم استصحبه فى الغزوة .

أما حديث (غديرخم) عند مرجع الرسول ﷺ من حجة الوداع فانه وصى فيه باتباع كتاب الله كما وصى فيه بأهل بيته ولكن بعض أهل الاهواء زاد فى الحديث وادعوا انه عهد الى على بالخلافة فسموه نصا جليا كما زعموا أيضا أن الصحابة تمالؤا على كتمانه ، ويرى ابن تيمية أن الدليل الذى ينقد هذا الزعم هو العادة التى جبل عليها بنى آدم ثم ما كان عليه القوم من الامانة والديانة وما أوجبته شريعتهم من بيان الحق يوجب العلم اليقين بأن مثل هذا يمتنع كتمانه .

ويطول بنا المقام لو استعرضنا آراء علماء السلف فى نقض دعوى النص الا أنهم أجمعوا على نفيه نفيا قاطعا بأدلة شرعية وعقلية وأحلوا القول بالاختيار محله اذ لو ثبت صحة نقل النص كما يذكر شيخ الاسلام ابن تيمية لما تصور سكوت القوم أو سكوت واحد منهم فى سقيفة بنى ساعدة عندما بدأ النقاش حول من يستحق منصب الخلافة اذ لم يظهر من بين الصحابة حين ذاك من يوقف المناقشات ويصدها بدعوى النص كما فعل أبو بكر مثلا حين ذكر القوم بحديث الائمة من قريش فأذعن الانصار لهذا النص القطعى ولم يجدوا بعده مجالا للمطالبة بالخلافة ومن ناحية أخرى لو كان هناك نص لاظهره صاحبه أى على بن أبى طالب ولكن خفاءه يدل على عدم وجوده أصلا اذ لو كان لاظهره المنصوص عليه واستدل على امامته، وفى علمنا أنه لم يفعل دليل على أنه لم يكن .

والآن نتساءل ما هى الخلافة أو الامامة عند أهل السنة ما دام هذا

المنصب هو محور الخلاف الاساسى بينهم وبين الشيعة للاجابة على ذلك نوجز القول بما يلى :

الامامة أو الخلافة عند أهل السنة[٢٧] :

يظهر تعريف الامامة عندهم من سياق فكرتهم عن دور الامام من حيث قيادته للمسلمين وتطبيق قواعد الدين وتقييده بأحكام الشريعة أو كما يعرفها الماوردى بأنها « موضوعة بخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا » فهو تبعا لتصور أهل السنة فى الامامة يربط بين معنى الخليفة ومعنى الامام فالاثنان مترابطان ، ويذهب بن خلدون الى نفس الرأى (واذ قد بينا حقيقة هذا المنصب وأنه نيابة عن صاحب الشريعة فى حفظ الدين وسياسة الدنيا به تسمى خلافة وامامة والقائم به خليفة واماما) •

وقد عبر الامام أحمد بن حنبل عن موقف السلف من هذه القضية الهامة فى رسالة عبدوس بن مالك العطار حيث قال :

(أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ •• •• الى أن قال : ومن ولى الخلافة فأجمع عليه الناس ورضوا به ، ومن غلبهم بالسيف حتى صار خليفة وسمى أمير المؤمنين فدفع الصدقات اليه جائز برا كان أو فاجرا) •

وعندما سئل عن تفسيره لحديث الرسول ﷺ (من مات وليس له امام مات ميتة جاهلية) •

قال : تدرى ما الامام ؟ الامام الذى يجمع عليه المسلمون كلهم يقول: هذا امام •

---

(٢٧) ينظر كتابنا (نظام الخلافة فى الفكر الاسلامى) . دار الدعوة بالاسكندرية .

وبتطبيق رأى الامام أحمد على خلافة الخلفاء الراشدين — لا سيما أبو بكر وعمر رضى الله عنهما — نصل الى قاعدتين هامتين رسخهما علماء السنة والسلف فى مجال الفقه السياسى الاسلامى :

القـاعدة الاولى :

فى كون أبى بكر كان هو المستحق للامامة — وليس غيره — وأن مبايعة الصحابة له مما يحبه الله ورسوله ، فهذا ثابت بالنصوص والاجماع .

القاعـدة الثانية :

تستحق الخلافة أو الامامة بمبايعة أهـل القدرة ، لذلك فان عمـر — رضى الله عنه — لم يصر اماما لمجرد عهد أبى بكر رضى الله عنه اليـه ، انمـا صار اماما لـما بايعه جمهور الصحابة وأطاعوه .

ولو فرضنا أنهم لم ينفذوا عهد أبى بكر ولم يبايعـوه لم يصر اماما سواء كان ذلك جائزا أو غير جائز .

ويعلل ذلك ابن تيمية فيفـرق بين أداء البيعـة كفعل من الافعـال الخاضعة لاحكام الحلال والحرام وبين اسـتحقاق الولاية نفسها اذ أن (الحل والحرمة متعلق بالافعال ، وأما نفس الولاية والسلطان فهو عبارة عن القدرة الحاصلة : ثم قدتحصل على وجه يحبه الله ورسوله — ﷺ — كسلطان الخلفاء الراشدين ، وقد تحصل على وجه فيه معصية كسـلطان الظالمين) .

وحتى اذا فرضنا أن بعـض النـاس كان كارها للبيعـة ، فان ذلك لا يقدح فى مقصودها فان نفس الاسـتحقاق لها ثابت بالادلة الشرعيـة الدالة على أنه أحقهم بها . ومـع قيام الادلة الشرعيـة لا يضر من خالفها . ونفس حصولها ووجودها ثابت بحصول القدرة والسلطان بمطاوعة ذوى الشـوكة .

والخوض فى هذه التفاصيل الخاصة بالبيعة والولاية واستحقاق الامامة لا يبعد بنا عن الغرض الجوهرى من ذلك كله — الا وهو إقامة شرع الله ونصرة دينه .

وهنا يقول ابن تيمية (فالدين الحق لا بد فيه من الكتاب الهادى والسيف الناصر) كما قال تعالى « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب — سورة الحديد » .

وتفسير الاية أن الكتاب يبين ما أمر الله به وما نهى عنه ، والسيف ينصر ذلك ويؤيده .

وبناء على تطبيق ذلك على خلافة أبى بكر — وهى الخلافة القدوة التى ينبغى أن يتخذها المسلمون — ثبتت خلافته بالكتاب والسنة ، أن الله أمر بمبايعته والذين بايعوه كانوا أهل السيف المطيعين لله فى ذلك فانعقدت خلافة النبوة فى حقه بالكتاب والحديد[٢٨] .

أما كيف يتم اختياره :

فقد أوضح أهل السنة السبيل الى ذلك عن طريق أهل الحل والعقد أو أهل الصلاح والعلم ، وقد اختلف شيوخ أهل السنة والجماعة فى مسألة عدد أهل الحل والعقد ولكننا لا نرى بأسا فى هذا الاختلاف اذ يدلنا على أن الامر متروك للاجتهاد ووفقا لمصالح المسلمين على مدى العصور لتنظيم مصالح الجماعة الاسلامية فى شئون الحكم والسياسة وفقا لظروف ومقتضيات الازمنة المتعاقبة واختلاف البيئات والمجتمعات وحمام الامن

---

(٢٨) ابن تيمية : منهاج السنة جا ص ١٤٢ .

فى ذلك كلـــه اتفاقهم على مسئولية الخليفـــة ونوابه فى حفظ أمـــور الدين والدنيــــا .

ولنترك الجوينى يوجز لنا هذا المقصـــد فيذكر (أن مطلوب الشرائع من الخلائق على تفنن المسالك والطـــرائق « الاستمساك بالدين والتقوى والاعتصام بما يقربهم الى الله زلفى »[٢٩] .

بقى بعد ذلك كله أن نعرف أنه بالاضافة الى موضـــوع الامامة فان للشيعة الاثنى عشرية ثلاثة أصول أخرى هى التوحيد ، العدل ، النبوة .

وفى هذا الصدد يقول ابن المطهر الحلى « ذهبت الامامية الى أن الله عدل حكيم لا يفعل قبيحا ولا يخل بواجب وأنه لا يفعـــل الظلم ولا العبث وانه رؤوف بالعباد وانه لمـــا بعث الله محمدا ﷺ قام بنقل الرسالة ونص على أن الخليفة بعده على بن أبى طالب ثم الحسن ثم الحسين ... الخ وأن النبى ﷺ لم يمت الا عن وصية بالامامـــة ، فنصب أولياء معصومين يأمن الناس غلطهم وسهوهم .

وقد اجأ الشيعة المتأخرون فى مسألتى التوحيد والعلل الى أصـــول المعتزلة واعتنقوها .

أما النبوة فليست ثم خلاف جوهرى بينهم وبين أهل السنة والجماعة فكلا الفريقين يختم النبوة بمحمد ﷺ .

أما من حيث التشريع فالامام عندهم هو مصدر التشريع بعد القرآن؛ والسنة المؤكدة لا تأتى الا عن طريق أهل البيت ولا يقبل الشيعة اسنادا الا عن طريقهم أو بعبارة موجزة لا اجماع ولا قياس وانمـــا نص قـــرآنى أو حديث عن امام أو اجتهاد منه .

---

(٢٩) الجوينى ــ غياث الامم فى التياث الظلم ص ٥١ تحقيق د. مصطفى حلمى و د. فؤاد عبد المنعم ــ دار الدعوة ــ اسكندرية ١٤٠٠هـ .

(٢) المـارقـون عن الاسـلام

أولا : الباطنية او الاسماعيلية :

لعل من المناسب ونحن أمام موضوع الفرق الباطنية التى اتخذت من الانتساب الى الاسلام وسيلة لنشر كل ما هو مخالف لهذا الدين ، أن نقف لنستقرىء الاحداث الجسام التى نجمت عنها .

ونحن هنا لا نسرد أحداثا تاريخية تدور حول نشـأة فـرق الباطنية وبيان معتقداتها وذكر أسماء أصحابها فقـد أشبعها الدارسـون من كتاب الفـرق وغيرهم ولكننا نبـغى توجيـه الانظار الى ضرورة العناية بالعلل والدوافع وراء هذه الفرق .

وليس من المتصـور أمام عقيدة الاسـلام السمحة التى تمكنت من النفوس والقلوب لانها تجاوبت مع أصداء الفطرة الاسـلامية ، ليس من المتصور أن ينقسم أتباع (هذا الانقسام أو يحملوا عقائد متناقضة وأفكار متضاربة تتنافر فى جزئياتها وكلياتها مع عقيدة الاسلام ، فان المطلع على كتب الفرق كمقالات الاسلامية للاشعرى أو الملل والنحل للشهرستانى أو الفصل لابن حزم وغيرها لتذهله كثرة عدد الفرق فضلا عن خروج أغلبها

---

(٣٠) الباطنية صفة تجمع الفرق الغالبة جميعا ، ويصفهم الشهرستانى بأنهم (قوم يخالفون الوثنيين والسبعين فرقة) اى يخرجهم عن الاسلام . والحق بهم (الاسماعيلية) التى امتازت عن الوثنى عشرية ، باثبات الامامة لاسماعيل بن جعفر وهو ابنه الاكبر المنصوص عليه فى بدء الامر .

ثم ذكر القابهم المختلفة ، واشهرها الباطنية لحكمهم بأن لكل ظاهر باطنا، ولكل تنذيل تاويلا . ولهم القاب اخرى ، فبالعراق يسمون الباطنية والقرامطة والمزدكية ، ونجراسان التعليمية والملحدة .. (الملل والنحل ق١ ص١٧١—١٧٢) واطلـق عليهم الاشـعرى فى مقـالاته : القـرامطة وكان يعنى الاسماعيلية (مقالات جا ص ١٠١) .

عن العقيدة الصحيحة وظهور مسحة الوثنية والافكار الفلسفية عليها وقد وضع كل ذلك فى قوالب يظهر فيها الاصطناع والوضع بقدر أكبر بكثير من مجرد الاختلاف فى الرأى أو الخطأ فى الاجتهاد ، فما السبب ؟ هل هو نشاط أعداء الاسلام وتكاتف اليهود مع الشعوبيين وغيرهم ؟ أم غفلة وسذاجة جماهير المسلمين الذين انخدعوا فساروا مغمضى الاعين وراء كل ناعق ؟.

والظاهر لنا تكاتف العاملين معا وراء تعدد الفرق لا سيما الغلاة منهم ونقصد بذلك :

العامل الاول :

الحركات النشطة لاعداء الاسلام لا سيما اليهود وتاريخهم طويل فى معادات الاديان وقد فعلوا ذلك فى المسيحية قبل الاسلام ثم دسوا على الاسلام مذاهب واتجاهات متناقضة وكان من أهم التيارات المدسوسة على المسلمين تهدف تشويه عقيدة الوحدانية المنزهة فى الاسلام .

وقبل الخوض فى مناقشة أصحاب التفسير المادى نحب أن نوضح قاعدة هامة من قواعد البحث المنهجى فى موضوعنا ، ونعنى بذلك الاستناد الى المصادر الاسلامية التاريخية التى نقلت لنا عقائد ومذاهب الفرق المختلفة وناقشتها وعرفت بانحرافاتها عن عقيدة السلف وأهل السنة[٣١] .

وهناك اجماع بين علماء السنة على خروج الباطنية بعقائدهم ونحلهم وعباداتهم عن الاسلام ، فيميزون بينهم وبين الشيعة المعتدلة من الامامية

---

(٣١) مثل : الفرق بين الفرق للبغدادى والتبصير فى الدين للاسفراييني وكشف اسرار الباطنية للباقلانى وفضائح الباطنية للغزالى وفرق المسلمين والمشركين للرازى ومنهاج السنة لابن تيمية وتاريخ الخلفاء للسيوطى .

والزيدية ، فان الباطنية من بنى عبيد بن ميمون القداح الذين ادعوا أنهم من ولد محمد بن اسماعيل بن جعفر ، لم يكونوا من أولاده ، بل كان جدهم يهوديا ربيبا لمجوسى ، وأظهروا التشيع .

ويذهب ابن تيمية الى أكثر من هـذا فيذكر أن هـؤلاء لم يكونوا فى الحقيقة على دين واحد من الشيعة — لا الامامية ولا الزيدية بل ولا الغالية الذين يعتقدون الهية على أو نبوته ، بل كانوا شرا من هؤلاء كلهم ، ولهـذا فان أكثر تصانيف علماء المسلمين فى كشف أسرارهم وهتك أستارهم وكثر غزو المسلمين لهم لكسر شوكتهم[٣٢] .

ويصف السيوطى « المهدى حاكم المغرب » فيقول : (وهو جد خلفاء المصريين الذين يسمونهم الجهلة الفاطميين ، فان المهدى هـذا ادعى أنه علوى وانما جـده مجوسى) .

وأيضا استند الى رأى القـاضى أبو بكر الباقلانى الذى وصفه بأنه مجوسى ولم يعرفه أحد من علماء النسب ، وكان باطنيا خبيثا حريصا على ازالة ملة الاسـلام (لا التطبيق الاشـتراكى المتخيل فى أذهان المحللين الماركسيين) أعـدم العلماء والفقهاء ليتمكن من اغواء الخلـق ، وجاء أولاده على أسلوبه ، أباحوا الخمور والفروج وأشاعوا الرفض[٣٣] .

ومما يعضد ذلك أيضا ما نقرأه لعبد القاهر البغدادى — وكان معاصرا لهم حيث توفى سنة ٤٢٩هـ ١٠٣٧م — الذى اختتم كلامه عن القداح بقوله : (ثم ظهرت فتنة بالمغرب وأولاده اليوم مستولون عن أعمال مصر)[٣٤] .

---

(٣٢) ابن تيمية : فتاوى شيخ الاسلام جـ٤ ص ١٦٢ وما بعدها ط الرياض
(٣٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٩١ تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ط التجارية ١٣٨٩هـ — ١٩٦٩م .
(٣٤) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٨٣ ط صبيح .

والى القارىء أيضا نص الوثيقة التاريخية التى نشرها الدكتور سهيل زكار وهى الرسالة التى بعث بها المعز الى القرامطة عندما علم باتجـاههم الى غزو مصر ، فكتب اليهم كتابا ، يذكر فيه فضل نفسه وأهل بيتـه وأن دعـوة القرامطة كانت له والى آبائه من قبله (٣٥) .

العـامل الثانى :

غفلة وجهل الجماهير التى انساقت وراء هذه الافكار الضـالة التى كان من الممكن اكتشاف زيفها وانحـرافها بأقل قـدر من النظر والفقه فى الدين ، ومعـرفة عقيدة السـلف هنا بالذات ضرورية للتمييز بين السنة والبدعـة .

ولعل هذا يذكرنا بأهمية معرفة عقيدة السلف ونشرها لتعريف جماهير المسلمين بالاسلام ، واليقظة الدائمة لمواجهة الانحرافات المدسوسة سواء فى العقيدة أو العبادات أو المعاملات .

اذ لا شك أن دعاوى الباطنية قد أحدثت أثرها العميـق فى نفـوس المسلمين فكانت بمثابة رأس حربة للغزوات الصليبية والمغولية ونعرف ذلك من متابعة تاريخ هذه الغزوات ومقارنتها بالاحوال الداخلية لدول المسلمين فحيث سادت مبادىء الباطنية فسدت أخلاق أهل الملة الاسلامية ووهنت العقائد وبدأ الوهن يدب الى جسد الدولة شرقا وغربا اذ تبدلت الشجاعة بالجبن والصدق بالكذب ووقـع المسخ فى الهمم وانصرف الجميـع عن الصالح العام سـعيا لتحقيق المـآرب الشـخصية ولذا لم يكن عجبا أن أصبحوا هدفا للغارات الصليبية ثم جاءت الطامة الكبرى فزحـف التتار

---

(٣٥) ثابت بن سنان : تاريخ اخبار القرامطة ص ٥٩ـــ٦٠ ترجمة الحسن الاعصم القرمطى تحقيق د. سهيل زكار ط دار الامانة ـــ لبنان ١٣٩١هـــ١٩٧١م

ودخلوا بغداد وحطموا آخر أثر لمدينة زائلة لذلك فاننا لنعجب أشد العجب من المحاولة التي تجرى باسم اعادة كتابة التاريخ بواسطة أنصار المذهب الماركسي[٣٦] الذين لا يعجبهم الا تلك الجوانب الشعوبية الباطنية التي كانت خروجا عن منهج الفكر الاسلامي فهل اغفل هؤلاء حقائق التاريخ وخطأ القياس اذا ما قورنت حركات الباطنية بما يدعونه من اشاعة روح العدالة الاجتماعية وتطبيق الانظمة الاشتراكية ، ان خطأهم واضح من حيث النظر الى عقيدة الاسلام والممثلين لها المعبرين عنها ونقصد بهم علماء السلف وأهل السنة والمتابعين لهم وواضح أيضا من حيث عقد مقارنات بين مجتمعات مختلفة تماما من حيث العقيدة والظروف التاريخية التي اجتازتها فيقعون في خطأ علمي ومغالطة تاريخية .

كلمة عن المنهج :

سنقتصر في هذه الدراسة على اعطاء فكرة عن المذاهب الباطنية في تجريدها النظري من زاوية مخالفتها لعقيدة السلف[٣٧] وننتقل بعدها الى ترجمة بعض دعاتها المؤثرين في الحركة الباطنية ، وبهذه الطريقة نصل الى هدفين معا لشرح مذاهبهم من العقيدة ثم ظهور دعواتهم وحركاتهم بخطواتها وأساليبها ونتائجها كانحرافات بل انسلاخ كامل عن الاسلام الذي عرفه السلف واعتنقوه ودعوا اليه ونشروه في ربوع الارض ، فأين

---

(٣٦) ينظر كتاب (الحركات السرية في الاسلام) للدكتور محمود اسماعيل من سلسلة (روز اليوسف) مايو سنة ١٩٧٣م .

(٣٧) يستطيع القارىء اذا أراد الاستزادة الاطلاع على كتب الفرق والمذاهب ، ومن اهمها كتاب الشيخ محمد ابو زهرة (المذاهب الاسلامية) وكتاب الدكتور محسن عبد الحميد : حقيقة البابية والبهائية للاستاذ عبد الرحمن الوكيل والقاديانية للشيخ محمد الخضر حسين ودراسات عن البهائية والبابية للاستاذ محب الدين الخطيب واخرين والقادياني والقاديانية للشيخ أبي الحسن الندوي.

هؤلاء من أولئك ؟ ثم اتفاقهم على ابتداع عقائد مخالفة للاســـلام والكيد لشريعته عن عمد ، وستر ذلك بالتشيع أو محبــة آل البيت أو الاتصـــال بالائمة كما سنرى عند ترجمة حياة أمثال المغيرة العجلى وأبى منصور قديما وغلام أحمد والبهاء فى العصر الحديث .

وتنكشف النوايا بصورة لا تقبل الشك اذا عرفنا عنف الحركة على يد الحسن الصباح الذى أنشأ منظمة (الفداوية) أو (الخناقين) للتخلص من علماء المسلمين وأمرائهم من أهل السنة ، وكان توقيت الحركة عندما تصدى السلاجقة لصد الحملات الصليبية .

ألا يرجع ذلك الى وجود اتفاق خفى بين العداء الخارجى والداخلى وأن وراء ذلك التوقيت رؤوس مــدبرة للكيد للاســـلام والمسلمين ؟ وأن تشابه العقائد المنحرفة عن عقيدة السلف وتشابه الحركات السرية تدل على وحدة التخطيط مع اختلاف أشخاص المنفذين ؟

نصاحبنا فى ترجمة بعض أشخاص دعاة الباطنية ، منذ عبد الله بن سبأ

ولعل هذا المنهج يفيدنا أيضا فى دحض التفسير المـادى للتاريــخ لاننا لا نعتمد على اجتهادات فى رأى يقبل احتمال أو أكثر ، ولكننا نعتمــد على سجلات التاريخ وأحداثه الثابتة .

كما سنلقى الضوء على طريقة الدعوة واتفاقها فى الاسلوب والاغراض مع محاولة تعليلها :

والآن نا علينا أن نبحث كيف نجح هؤلاء الباطنية فى تحقيق مآربهم ، وهنا يتدرج بنا الحديث عن :

طريقة الدعــوة الباطنية :

تتميز هذه الطريقة بسمات بارزة لا تخفى على الباحث منها :

أولا — ادعاء محبة آل البيت والدعـوة لهم تحت ستار أحقيتهم فى الامامة ثم ينفثون بعد ذلك سموم الالحاد والتعطيل فى نفوس المسلمين ، وكان بعضهم كما سنرى يتقرب الى أحد الائمة ثم يفترى عليه الكذب ومن أشهر هؤلاء أبى منصور العجلى وأبى الخطاب •

ثانيا — اتخاذ السرية ستارا لنشر معتقداتهم ولا نستبعد احتضـان المحافل المـاسونية لهذه المعتقدات والمذاهب ونشرها فى طى الكتمان اذ أن التنظيمات المـاسونية القديمة والتى خططت للحرب والقضاء على المسيحية منذ عصر الميلاد ما أن فوجئت بالمجتمع الاسلامى فى القرن السابع الميلادى يقوم على دعامة التوحيد لله التوحيد الخالص المنزه الذى لا يشـوبه ضم ولا وثن ، ما أن فوجئت التنظيمات اليهودية المـاسـونية حتى ظهـرت الاحقاد التى تكره الحق أن ينتصر ويسود •

ثالثا — التفسير أو التأويل الباطل للقرآن : بأن يخرجوا الايات عن دلالاتها الحقيقية التى اتفق عليها جمهرة المسلمين والزعم بأن كل ما جاء فى القرآن عن البعث والجنة والنار والفرائض والمعجزات انما هو رمـوز واشارات لا يحيط بحقيقة أمرها سوى الامام المعصوم وعلى سبيل المثال : فالطهور لديهم هو التبرؤ من كل اعتقاد آخر سوى مبايعة الامام ، والصيام هو الامساك عن كشف السر الباطن ممن هو غير أهـله ، والفرائـض انما شرعت للجهلة ، أما فرائض الخاصة والعقلاء فى زعمهم فهى اتباع الامام فاذا نال الجاهل على الباطن بعد أن ثبت صلاحيته له أى بعد الخروج عن دينه سقطت عنه أغلال التكاليف وسعد بالخلاص منها •

وما أغرب وأبعد عن النصوص الاسلامية وروحها التأويـلات التى جنحوا فيها الى الشطط والغرابة بحيث لا يسع أى مسلم — اذا أخلـص النية وتجرد لمعرفة الحق — لا يسعه الا أن يدينهم من تفسيراتهم المسرفة

فى الغرابة ، لان القرآن الكريم ميسر لـكل ذى لب . قال تعالى (ولقـد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠ سورة القمر .

أنظر مثلا الى بعض هذه التأويلات المنحرفة :

منها تأويل بيان سمعان التميمى لقوله تعالى (هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) ١٣٨ آل عمران فكذب على الله بقـوله (أنا البيان وأنا الهـدى والموعظة) .

وقد زعم أتباعه انه كان نبيا وأنه نسخ شريعة محمد ﷺ[٣٨] .

والمغيرة بن سعيد العجلى زعيم المغيرية كذب على الله تعالى عنـدما فسر قوله سبحانه (انا عـرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسـان انه كان ظلوما جهـولا) ٧٢ الاحـزاب .

كذب المغيرة وانحرف عن نـص الاية وتفسير السـلف لها بقـوله : (ان الظلوم والجهول أبو بكر)[٣٩] رضى الله عنه ..

أو تأويل أبى منصور العجلى زعيم المنصورية من الغلاة الذى أدعى انه خليفة الباقر ، فقد تأول — وأتباعه من بعـده الفرائض والمحـرمات فزعموا أن الفرائض أسماء رجال أمرنا بموالاتهم والمحرمات أسماء رجال أمرنا بمعاداتهم[٤٠] .

رابعا التدرج فى الدعوة :

يدعون المستجيب لهم أولا الى التشـيع ، والتزام ما يوجبه الشيعة

---

(٣٨) الدكتور محمد حسين الذهبى : التفسير والمفسرون جـ٢ ص ١٣ دار الكتب الحديثة بالقاهرة ١٣٨١هـ — ١٩٦١م .

(٣٩) المصـدر السابق ص ١٤ .

(٤٠) المصـدر السـابق ص ١٥ .

المعتدلة وتحريم ما يحرمونه : ثم بعد ذلك ينقلونه درجة بعـــد درجة حتى ينتهى بهم الامر الى الانسلاخ من الاسلام تماما .

ويوضح لنا البغدادى هذه الخطة اللئيمة فى الدعوة مثبتا لذلك بقوله (والدليل على أنهم كما ذكرنا ، قرأته فى كتابهم المترجم « السياسة والبلاغ الاكيد والناموس الاعظم » وهى رسالة عبيد الله بن الحسين القيروانى — أى المهدى — الى سليمان بن الحسن بن سعيد الجنابى — أوصاه فيها بأن قال له :

أدع الناس بأن تتقرب اليهم بما يميلون اليه ، وأوهم كل واحد منهم بأنك منهم ، فمن آنست منه رشدا فاكشف له الغطاء ، واذا ظفرت بالفلسفى فاحتفظ به ، فعلى الفلاسفة معولنا ، وانا واياهم مجمعون على رد نواميس الانبياء ، وعلى القول بقدم العالم(٤١) .

ولكن علماء السلف كانوا على بينة بحقائقهم . وهـــذا هو ابن تيمية يكشف الغطاء عن حقيقتهم فيقول (فان هؤلاء القرامطة الباطنية يتظاهرون عند جهال المسلمين بالتشيع وموالاة أهل البيت ، وهم فى الحقيقة لا يؤمنون بالله ولا برسوله ولا بكتابه ولا بأمر ولا نهى ولا ثواب ولا عقاب .. ولهم فى معاداة الاسلام وأهله وقائع مشهورة . وهم دائما مع كل عدو للمسلمين ثم بسببهم استولى النصارى على القدس(٤٢) .

بعض دعاة الباطنية :

تمتلىء الكتب التاريخية بأسماء الفرق والدعاة الذين شذوا عن طريقة السلف والسنة وتجمعهم رابطة واحدة هى الكيد للاسلام وأهله ، ولن نطيل فى ذكر أسمائهم وفرقهم اكتفاء بالاشارة الى بعض رؤوس الباطنية الذين

---

(٤١) البغدادى — الفرق بين الفرق ص ٢٩٤—٢٩٥ .
(٤٣) فتاوى ابن تيمية جـ٤ ص ٢٠٩—٢١٢ ط الرياض .

كان لهم أبلغ الاثر فى تشويه العقيدة الاسلامية وبث الفتن بين صفوف المسلمين واشاعة الفرقة بين مجتمعاتهم ، وهدفنا من ذلك أخذ العبرة والعظة من تاريخنا وما يتصل بذلك مما نراه فى وحدة الاساليب والطرق المتبعة كالادعاء بالانتساب الى أحد الائمة ثم الانشقاق عليهم والاعتماد على التأويل الرمزى للقرآن للقضاء على التكاليف الشرعية واشاعة الاباحية والتحلل وقتل روح الجهاد فى الامة ثم تكوين الفرق كطلائع لتدمير المجتمعات الاسلامية كما حدث بواسطة السبئية ومنظمة الفداوية كما أننا عندما سندرس بعض أفكار المنشقين عن الاسلام فى العصر الحديث فاننا سنقف على الرابطة الجامعة بين أفكارهم وأفكار أسلافهم كنظرية استمرار النبوة عند الاسماعيلية والبهائية وكان الواضع لاساسها المغيرة بن سعيد العجلى كما سنرى .

عبد الله بن سبأ :

أول الغلاة حيث أظهر الاسلام نفاقا وأول من أعلن ألوهية على بن أبى طالب رضى الله عنه . وأنه لم يمت، وسيرجع الى الدنيا قبل يوم القيامة ، وهذا هو مبدأ الرجعة .

وأتباعه يطلق عليهم اسم (السبئية)[٤٣] .

ويذكر الطبرى فى تاريخه أنه كان « عبد الله بن سبأ » يهوديا من أهل صنعاء ؛ أمه سوداء ؛ فأسلم زمان عثمان ، ثم تنقل فى بلاد المسلمين يحاول ضلالتهم فبدأ بالحجاز . ثم البصرة ، ثم الكوفة ، ثم الشام ، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام فأخرجوه حتى أتى مصر)[٤٤] .

وشرحا لدوره وبيانا لخططه يقول الاستاذ محمد الراشد : كان بتسقط

---

(٤٣) الاشعرى : مقالات ج١ ص ٨٦ .
(٤٤) تاريخ الطبرى : الطبعة الاولى القسم الاول ٢٩٤٢ .

خلال رحلته ضده كل سارق وقاطع طـريق ومفسر نالته عقوبة من أحــد الولاة فتوترت نفسه ، ويواعـدهم أن يكونوا بالمـدينة أيام يكون الناس حجاجا بمكة ، لينقلبوا على عثمان والناس غافلون •

ووضع لهم خطة أوجزها بقوله لهم :

(انهضوا فى هذا الامر ، فحركوه ، وابدأوا بالطعن على أمـرائكم ، واظهروا الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، تستميلوا الناس ، وادعـوهم الى هذا الامـر) •

هكذا ، باسم الامر بالمعروف يكون الهدم •

انها الخطة الدائمـة لكل ذى هـوى •

ثم كان من ابن سبأ أنه :

بث دعاته ، وكاتب من كان استفسر فى الامصار وكاتبوه ودعـوا فى السر الى ما عليه رأيهم ، وأظهروا الامر بالمعـروف والنهى عن المنـكر ، وجعلوا يكتبون الى الامصار بكتب يضعونها فى عيوب ولاتهم ، ويـكاتبهم اخوانهم بمثل ذلك ، ويكتبه أهل كل مصر منهم الى مصر آخر بما يصنعون، فيقرؤه أولئك فىأمصارهم وهؤلاء فى أمصارهم ، حتى تناولوا بذلك المدينة وأوسعوا الارض اذاعة ، وهم يريدون غير ما يظهـرون ، ويسرون غـير ما يبدون ، فيقول أهل كل مصر : أنا لفى عافية مما ابتلى به هؤلاء)[٤٥] •

وبهذا فسدت النفوس . وحان يوم انقـلابهم ، فاذا بهم حـول دار عثمان[٤٦] ••

---

(٤٥) المصـدر السـابق ٨ـ٣٠ـ٢٠٣٠ .

(٤٦) محمد احمد الراشد ـ العوائق ج٢ ط مؤسسة الرسـالة ـ بيروت ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م •

ويربط ابن تيمية فى شرحه لدور ابن سبأ ودور القديس بولس فى النصرانية ، فيذكر أن كلاهما كان يهوديا • ويقرر أن ابن سبأ كان منافقا زنديقا فأراد بذلك افساد دين المسلمين ، كما فعل (بولص) حيث ابتدع لهم بدعا أفسد بها دينهم ، وكان يهوديا فأظهر النصرانية نفاقا بقصد افسادها ، وكذلك كان ابن سبأ يهوديا فقصد ذلك وسعى فى الفتنة لقصد افساد الملة •

فلم يتمكن من ذلك ، لكن حصل بين المؤمنين تحريش وفتنة قتل فيها عثمان رضى الله عنه ، وجرى ما جرى من الفتنة ، ولم يجمع الله — ولله الحمد — هذه الامة على ضلالة ، بل لا يزال فيها طائفة قائمة بالحق لايضرها من خالفها ولا من خذلها حتى تقوم الساعة[٤٧] •

ونذكر من الباطنية أيضا المغيرة بن سعيد العجلى الذى كان يتردد على الامام محمد بن الباقر (١١٤هـ) ثم ابتعد عنه وأخذ فى ذم أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، فلما علم الباقر بذلك تبرأ منه وهنا أخذ المغيرة ينشر أفكاره الباطلة وربما يعتبر أول من أدخل التفسير الرمزى فى القرآن الكريم مثل قوله تعالى (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر) •

فقال ان العدل والاحسان يعنى فاطمة وعليا ، وذى القربى أبى الحسن والحسين ، وينهى عن الفحشاء أبى أبا بكر والمنكر عمر ثم أخذ يغلو

---

(٤٧) مجموع الفتاوى ج٣٥ ص ١٨٤ ط الرياض ١٣٨٦هـ •

وفى العصر الحديث رأينا من يتفق مع ما ذهب اليه ابن تيمية آنفا حيث يقول كولن ولسن (اجل ، لقد كان بولس مختلفا جدا عن المسيح — عليه السلام — كما ان الدين الذى اخترعه بولس وسماه المسيحية لم تكن له علاقة بتعاليم المؤسس ، سقوط الحضارة ص١٧٩ ط دار العلم للملايين — بيروت١٩٥٩

فى حق على أشد الغـــلو حتى قال : ان عليا يحيى المـــوتى كما كان يدعى العلم بالغيب .

وبعد ذلك أدعى الامامة لنفسه ثم ادعى النبوة .

وكان من تلاميذ أبو منصور العجلى حيث أعلن بدوره النبوة وقال ان النبوة لا تنقطع أبدا بل هى متجددة دائما وقد فتح بهذا الباب للاسماعيلية من بعد ثم بعدء للبهائية فى العصور الحديثة[٤٨] ، ووضـــع الخطط للاجهاز عليه . اذ أعلن الجهاد الخفى وهو خنق واغتيال كل من يخالفه فى مذهبه وقد أدت هذه الدعوة الى أفظع النتائج اذ تكونت فرقة الخناقين من أتباعـــه واتباع المغيرة ونشروا الذعر فى العـــالم الاسلامى كذلك ظهـــرت فـــرقة الخطابية وعلى رأسها أبى الخطاب الاســـدى الذى نشأ فى الكوفة وتردد على الامام جعفر الصادق (١٤٨ هـ) للاخذ عنه ولكن ما لبث الامام أن ذمه ولعنه لمـــا علم بأخباره وما كان يدعيه كذبا من معرفة الامام بالعلم الغيبى فتبرأ منه وأخبر أصحابه بذلك فأخذ يدعو لنفســـه وينشر مبادئه ويكون

---

(٤٨) د. النشار : التفكير الفلسفى فى الاسلام (مذاهب وشخصيات) ص١٢٧

المغيرة بن سعيد العجلى ادعى ان الامامة بعد محمد بن على بن الحسين فى محمد النفس الزكية بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن ، الخارج بالمـــدينة ، وزعم انه حى لم يمت .

وكان المغيرة مولى لخالد بن عبد الله القسرى وقد مات محروقا على يديه سنة ١١٩هـ ويسمى أتباعه (المغيرية) .

الشهرستانى : الملل والنحل ق١ ص١٥٧ ومقالات الاسلاميين للاشعرى جـ١ ص ٧١ـــ٩٨ .

أبو منصور العجلى : وهو الذى عزا نفسه الى ابى جعفر محمد بن على الباقر أولا ، فلما تبرأ منه الباقر وطرده زعم انه هو الامام ، ودعا الناس الى نفسه ولمـــا توفى الباقر قال : انتقلت الامامـــة الى وتظاهـــر بذلك . ويسمى أتباعه (المنصورية) نفسه ص ١٥٨ .

وعن أبى طالب الاسدى ينظر المصدر نفسه ص ١٥٩ .

فرقته الخطابية مدعيا أن جعفر الصادق قد جعله وصية من بعده وأن جعفرا علمه اسم الله الاعظم ثم كرمنى فادعى النبوة والرسالة ثم ادعى أنه من الملائكة وأنه رسول الله الى أهل الارض والحجة عليهم ويذكر أن أصحابه من الخطابين كان كلما ثقل عليهم أداء فريضة أتوه وقالوا يا أبا الخطاب .. خفف علينا فيأمرهم بتركها حتى تركوا جميع الفرائض واستحلوا جميع المحارم وتأولوا على ما استحلوا قول الله تعالى (يريد الله أن يخفف عنكم) وقالوا : خفف عنا بأبى الخطاب .

ومن أشهر دعاة الباطنية رجل يسمى ميمون بن ديصان (مات فى الغالب ١٩٨ هـ)[٤٩] وكان فيما يقال يهوديا وأسلم ويقال أيضا انه كان ثانويا يقول بوجود الهين تتلمذ على أبى الخطاب الذى تكلمنا عليه آنفا مما جعله عارفا بالمذاهب الفلسفية والاديان كما كان يتسم بحنكة سياسية وقد استغل جميع هذه الامكانيات فى نشر الدعوة والغلو الى حد كبير فى فضائل اسماعيل بن جعفر الصادق وابنه محمد محاولا تدعيم آرائه بمختلف العناصر الفلسفية الملم بها وأخذ يؤول الايات القرآنية بما يتفق مع عقيدته فى أمامة اسماعيل وابنه معلنا أنه حجة الامام ونائبه وداعيه ثم أخذ يضع أصول الدعوى وتتلخص عناصرها الرئيسية فى الايمان بعصمة الامام اللامتناهية وأن الامام ينصب من الله تعالى وانها واجبة لحفظ الشريعة وجوبا أزليا فى علم الله القديم ، مع وجود النور الاول الازلى الذى انتقل من نبى ثم من أمام الى امام وينسب الى ميمون هذا نشأة الفرقة الاسماعيلية اذ عندما رأى ما حل ببعض الدعاة الذين جاهروا بآرائهم الالحادية عقد العزم على تقويض أسس الاسلام فجعل الدعوة سرية

---

(٤٩) ينظر كتاب الدكتور النشار : التفكير الفلسفى فى الاسلام ص ١٨٩ وما بعدها .

وقسم النظريات التى كان يهدف بها الى القضاء على الاسلام الى سبع درجات تعليمية لا يرتقى المرء من درجة الى أخرى الا اذا اختبر اختبارا دقيقا حتى اذا انتهى المريد الى الدرجة السابعة صرح له بأن جميع الديانات أوهام وخرافات .

واستخدم التأويل فى آيات القرآن فزعم أن كل ما جاء فى القرآن الكريم عن البعث والجن والنار والمعجزات والفرائض انما هو رموز واشارات لا يحيط بحقيقة أمرها سوى الامام المعصوم وقد ضرب لنا الغزالى فى كتابه عن فضائح الباطنية أمثلة لنماذج عديدة من هذا التأويل فمن ذلك انهم أولوا جميع المعجزات فقالوا ان المراد من عصى موسى هو غلبة حجته التى تلقفت كل ما كان سحرة فرعون يقدمون اليه من شبه وأباطيل فى حين أنه يمكن تأويل الغمام الذى أظل بنى اسرائيل انه الامام الذى نصبه عليهم موسى لكى يرشدهم .

أما الجراد والقمل والضفادع فهى الالزامات والاوامر التى أوجبها موسى عليهم[٥٠] .

ولا يميز مؤرخو الفرق عادة بين الاسماعيلية والباطنية ، يقول الخوارزمى ، الاسماعيلية هم الباطنية ، ويرى الغزالى أن من أسباب تلقبهم بالباطنية هو دعواهم أن لظواهر القرآن والاخبار بواطن رأسها بصورتها الظاهرة كوهم عند الجهال والاغبياء صور جلية وهى عند العقلاء والاذكياء ، رموز واشارات الى حقائق معينة والبعض يرى أن الاسماعيلية فرقة من الفرق الباطنية أو هى احدى مظاهر الدعوى الباطنية التى اتخذت

---

(٥٠) د. محمود قاسم — جمال الدين الافغانى — حياته وفلسفته ص ١٦٤ ط الانجلو المصرية .

الاسماء المختلفة مع اتحادها فى الوسائل والاهداف كالقرامطه والنصيرية والدرزية والقاديانية والبهائية •

والواقع أننا حين نتكلم عن الاسماعيلية لا نتكلم عن احدى الطرق التى انقضت وذهبت مع التاريخ ولكننا نعرض لمعتقدات وحـركات سرية ما زالت تعيش فى قلب العالم الاسلامى وما الاسماعيلية أو القاديانية أو البهائية الا بمثابة فقاعات على السطح تخفى فى اعمـاقها البؤرة اليهودية التى ما زالت تعمل لتقويض الاسـلام والقضـاء على شـوكة المسلمين لاستمرار احتلال أراضيهم واذلالهم ونهب خيراتهم •

ويلاحظ الدارس لظهور الفرقة المنتسبة للاسلام زورا أن العـلاقة طردية بين هجمات الصليبيين والتتار وقوة شـوكة الباطنية فى الداخـل تمهيدا للغزو الخارجى فلا غرابة اذن أن يحصل الباطنية ثمار محاولاتهم المذهبية فعندما انتشر عملاؤهم فى مصر وخراسان وبلاد فارس كان ذلك من الاسباب التى ساعدت الصليبيين على غزو البلاد الاسلامية فى أواخر القرن الخامس الهجرى والحق أن الحروب الصليبية لم تنته فى الظاهـر الا فى القرن العشرين أى بعد أن نجحت بمعاونة الصهيونية فى هدم الدولة العثمانية والاستيلاء على بلاد المسلمين ومنها مدينة القدس وبها المسـجد الاقصى ، ثالث المساجد التى يشـد اليها الرحال ، كما ورد فى الحـديث النبـوى •

ونشأة اسم الاسماعيلية يرجـع الى افتراقهـا عن الاثنى عشرية فى انتقال الامامة من موسى الكاظم حينما اتخذت الاخـيرة الامام الـكاظم باعتباره الامام السابع فى سلسلة الائمة نقلت الاسماعيلية سلسلة أئمتها أما باضافة اسماعيل بن جعفر أو محمد ابن اسماعيل •

ويحدثنا النوبختي عن الاسماعيلية عند ظهورها فيذكر أنها أنكرت موت اسماعيل أثناء حياة أبيه وزعموا أن أباه غيبه عن الناس وأخبر بموته ولذا فانهم يعتقدون أن اسماعيل لا يموت حتى يملك الارض . ويقـــوم بأمـــر الناس وقد انتقلت اليه الامامة من أبيه لان أباه أشار اليه بالامامه وتكونت العقائد الباطنيه الاسماعيلية الاولى على أثر موت محمـــد بن اسماعيل اذ ادعى بعض اتباعه أنه المهدى وأنه سيبعث بشريعه جديده تفسخ شريعـــة موسى ، عيسى ومحمد ﷺ . ويضيفون عليا ومحمد بن اسماعيل أما تعليل هذا العدد فيرجع فى زعمهم الى أن النظامين الكونى والانسانى قائمـــان على هذا العدد فان السماوات والارضين سبع وكذلك الجسد الانســـانى يتكون من سبعة أعضاء والائمة سبعة فأتدبهم محمد بن اسماعيل .

وتناولت هذه الطائفة نسخ الشريعة الاسلامية بأحاديث نسبوها الى الامام جعفر الصادق ومنها انه قال (لو قام قائمنا لعلمتم القرآن جـــديدا وأنه قال بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء) .

وترى هذه الطائفة شأنها فى ذلك شأن الباطنية جميعا أن الفـــرائض والسنن التى أتى بها محمد ﷺ لها ظاهر وباطن وأن جميع ما استعبد الله به العباد (ما وضعه من عبادات ، فى الظاهـــر من الكتاب والسنة هى أمثال مضروبة لها تتمه أو معان هى بطونها ، بعبارة أخـــرى فان ظواهـــرها هى جزء من العقاب الادنى عذب الله به قوما اذا لم يعرفوا الحق ولم يقولوا به .

من هذا نفهم أن الشريعه عندهم هي عقاب يكلف به من لم يعرف امام زمانه الذي يرفعها عنه . والى الاسماعيليه تنسب رسائل اخوان الصفا . التى حاولت الاسلام بجمع نواحى الفلسفه اليونانيه وتتضح فيها مشكل خاص العبوص (اي لمعرفه عن طريق الامام او لدى أفلوطين السكندرى) لتثبت معرفه الائمه بعلوم باطنيه لا يعرفها سواهم .

وقد اتخذ الدعاة الاسماعيليون كل الوسائل لنشر دعوتهم فاستخدموا التصوف واستمدوا بعض أساليبه واستخدموا المذهب المعتزلى ووجدوا أعوانا فى أوساط الشعوبية .

ونتيجة لذلك دخل فى أعماق المذهب الاسماعيلى مزيج غريب من المعتقدات والاراء حيث أراد الدعاة أن يستسيغوا أو يشيعوا أو يرضوا رغبات ومعتقدات المزيج الغريب من البشر الذين حاولوا جذبه الى موالاة الامام الاسماعيلى حدث كل ذلك فى سرية لم يعرف التاريخ لهلا مثيلا[٥١] .

حركة القرامطة الباطنية :

تنسب القرامطة الى حمدان بن الاشعث الذى اشتهر بزهده وكان فقيرا ومن عادته السير بخطوات متقاربة فدعى بقرمط . ودعى الى المذهب الاسماعيلي وكان قبل ذلك يدعى الكيسانية أى يؤمن بمهدية أحمد بن محمد بن الحنفية وسنعود الى عرض انحرافاته العقائدية عند مناقشتنا للمذهب .

ويقول عنهم ابن كثير أن القرامطة تحركوا عام ٢٢٨هـ ويصفهم بأنهم من الزنادقة الملاحدة أتباع الفلاسفة وكانوا يبيحون المحرمات ويتبعون كل ناعق من جهة الرافضة)[٥٢] .

أخذ حمدان هذا يرسل الدعاة الى البلاد القريبة فأرسل أبا سعيد الجنابى كما يذكر البغدادى الى البحرين وتغلب عليها . كما أرسل زكرويه ابن مهرويه الى شمال العراق كما أرسل أخاه حمدان فى أرض فارس أما أهم دعاته فقد كان صهره وصديق الداعى عبد الله وقد أنشأ اسويا دار الهجرة .

ويروى المقريزى عنه انه أقام الدعاة فى كل قرية ليجمع الاموال ،

---

(٥١) د. النشار — التفكير الفلسفى فى الاسلام ص ٢١٩—٢٢٠ .
(٥٢) ابن كثير — البداية والنهاية جـ٥ ص ٣١٠ .

وينفق على الاتباع ما يكفيهم بحيث لا يملك أحد منهم الا سلاحه ، فلما استقام له ذلك كله أمر الدعاة أن يجمعوا النساء ويختلطن بالرجال وقال أن ذلك من سمة الود والالفة منهم) .

وربما كان هذا التصرف ما أدى ببعض الدراسات التاريخية المعاصرة وصف الحركة بالاشتراكية ، فمن الملاحظ أن أصحاب التفسير المادى للتاريخ جعلوا من الحركات السرية الباطنية حركات تحررية ثورية تستهدف تحقيق العدالة الاجتماعية ، بينما حقيقة أمرهم تحطيم كيان الامة الاسلامية فى أعز مقدساتها وهى العقيدة .

وكان أخطر انحراف ظهر بالقرامطة هى غزوهم للكعبة سنة ٣١٧ هـ يوم التروية برئاسة أبى طاهر الجنابى فقتلوا الحجيج وانتهكوا أموالهم ولم يسلم منهم أحد سواء فى رحاب مكة أو فى المسجد الحرام أو فى جوف الكعبة واقتلعوا الحجر الاسود فمكثت عندهم اثنين وعشرين سنة ..

ومنهم أيضا عبيد الله بن ميمون القداح (توفى ٣٢٢هـ) الذى زعم انه من نسل فاطمة رضى الله عنها ؛ ثم تمكن حفيده المعز من انشاء الدولة المسماة بالدولة الفاطمية بمصر والمغرب واستمرت نحو مائتى عام حتى أزالها صلاح الدين .

يقول ابن القيم (وكان جده يهوديا من بيت مجوسى ، فانتسب بالكذب والزور الى أهل البيت وادعى انه المهدى الذى يبشر به النبى ﷺ ، وملك وتغلب واستفحل أمره ، الى أن استولت ذريته الملاحدة المنافقون — الذين كانوا أعظم الناس عداوة لله ولرسوله — على بلاد المغرب ومصر والحجاز والشام . واشتدت غربة الاسلام ومحنته ومصيبته بهم . وكانوا يدعون الالهية ويدعون أن الشريعة باطنا يخالف ظاهرها) .

ويستطرد بعد ذلك فيصفهم بأنهم ملوك القرامطة الباطنية ، تستروا كذبا

بالتشيع وانتسبوا زورا الى أهل البيت ودانوا بدين أهل الالحاد وروجوه، ولم يزل أمرهم ظاهرا الى أن أنقذ الله الامة منهم ، ونصر الاسلام بصلاح الدين يوسف بن أيوب (٥٨٩ هـ) فاستنقذ الملة الاسلامية منهم وأبادهم وعادت مصر دار الاسلام بعد أن كانت دار نفاق والحاد فى زمنهم[٥٣] .

وظهر أخطـر دعاتهم أيضـا فى القرن الخـامس الهجرى ، ويدعى الحسن بن الصباح الذى سنعرف به بدعوته وعقيدته وعقيدة أتباعه لإزالة اللبس عند البعض حيث يظن الاخذون بالتفسير المـادى للتاريخ أن حركة الباطنية كانت حركة اشتراكية بغرض اقامة العدل الإجتماعى . وسنثبت من خلال هذا العرض لعقيدة وحركة الصباح وأتباعه أن الغرض من الثورة الباطنية القضاء على عقيدة التوحيد)[٥٤] .

الحسن بن الصباح :

بدأ بتكوين دولة اسماعيلية فى ايران سنة ٤٨٣ هـ عندما استولى على قلعة ألموت المنيعة ولم ينجح السلاجقة فى استرداد هذه القلعة لا سيما أن الاسماعيلية قتلوا نظام الملك وشغلت الاسرة الحاكمة بالنزاع على العرش وانشغل أيضا أمـراء الفـرق بالقتال فيما بينهم وتحـولوا عن مهاجمة الاسماعيلية فانتهز ابن الصباح فرصة النزاع فأخذ يثبت أقـدامه ويبث دعاته ويوسع أراضيه[٥٤م] .

أما تاريخ حياته وعقيـدته كما يوردها عطا ملك الجـوينى فى كتابه (تاريخ جهانكشاى) فتتلخص فى الواقائع الاتية :

---

(٥٣) ابن القيم : المنار المنيف فى الصحيح والضعيف ص ١٥٤ .

(٥٤) د. محمد بديع شريف : الصراع بين الموالى والعرب ص ٦٤ — دار الكاتب العربى بمصر سنة ١٩٥٤م .

قدم أبوه من اليمن الى الكوفه ، ومن الكوفة الى قم ، ومن قم الى الرى ، فاستوطنها وهناك ولد الحسن بن الصباح • ص ١٨٤ــ١٨٥

ويقرر الحسن فى احدى رسائله انه كان متبعا لمذهب آبائه ، وهـــو مذهب الشيعة الاثنى عشرية ، وكان فى الرى رجل على مذهب باطنية مصر فكانا يتناظران معا دائما •

يقـــول الحسن :

(وكنا نتناظر معا بصفة دائمة ، فيكسر مذهبنا ولكنى لم أكن أسلم بينما استقرت آراؤه فى قلبى •

وفى تلك الاثناء أصبت بمرض خطير شديد فقلت فى نفسى : أن ذلك المذهب هـــو الحق ، ولكنى لم أقبله من جراء تعصبى الشديد)[٥٥] •

وبعد أسفار وانتقالات عدة من أصفهان الى أذربيجان ثم الى الشام حتى وصل الى مصر عام ٤٧١هـ وظل بعدها يسافر من بلد الى آخر متخفيا لأنه كان مهددا بالقبض عليه بأمر من نظام الملك •

ويقول عطا ملك الجوينى :

(وعن طريق زهده الشديد وقـــع كثير من الناس فى حبـــائله وقبلوا دعوته فحملوه الى القلعة فى مساء يوم الاربعاء الســـادس من رجب سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة •

وعندما استقر بالقلعة أخذ يجاهر بدعوته حيث سماها أتباعه (الدعوة الجديدة) •

وقد أسسوا مذهبهم علـــى تأويل التنزيل وعلـــى الاخص الايـــات

---

(٥٥) تاريخ جهانكشاى ص ١٨٥ ، وقد نقل الشهرستانى ملخصا لعقيدته بعد أن ترجمها الى العربية (ينظر الملل والنحل ق١ من ص ١٧٥ الى ص ١٧٨ .

المشابهة ، وكانوا يقولون — كدأب الباطنية جميعا — ان لكل تنزيل تأويلا ولكل ظاهر باطنا ، وفتح الحسن بن الصباح باب التعليم والتعلم[٥٦] على مصراعيه وفق الطريقة الباطنية حيث زعم أن معـرفة الله تعـالى لا تكون بالعقل والنظر بل بتعليم الامام[٥٧] .

وقد استخدم دعوته فى جمع الاتبـاع والاسـتيلاء على الاراضى المتاخمة (وأما ما لم يغتر بتغريره فكان يستولى عليه بالقتل والهتك والنهب والسفك والحرب ، وكان يستولى على كل ما يستطيع من القلاع ، وحيثما كان يجد منطقة صخرية تصلح للبناء أقام عليها قلعة)[٥٨] .

وقد حاول السلطان ملكشاه استئصال هذه الطائفـة ولكنه مات ولم ينجح فى تحقيق غرضه فقويت فتنتهم[٥٩] .

وكان وزيره نظام الملك الحسن بن على بن اسحق الطوسى قـد بذل من قبل قصارى جهده فى استئصال الفتنة الصباحيـة .. (وذلك لمـا كان يراه بنظـرة الثاقب من شمائل أحوال الحسن بن الصـباح وأتباعه وهم امارات الفتن فى الاسلام ولمـا كان يشاهده من علامات الخلل) ولكنه لم ينجح أيضا وقتله أحد أتباع الصباح فى رمضان سنة ٤٨٥هـ [٦٠] .

---

(٥٦) ويرجع الدكتور محمد العبد اصول نظرية (التعليمية) الى ابى حاتم الرازى الداعى والفيلسوف الاسماعيلى المبكر — ينظر تعليقه رقم ٣ص ١١٦

(٥٧) تاريخ جهانكشاى ص ١٩٠—١٩١ .

(٥٨) نفسه ص ١٩٣ .

(٥٩) نفسـه ص ١٩٥ .

(٦٠) نفسـه ص ١٩٧ .

وظل مستمرا فى خطته بالتخلص من كل خصومه بالقتل — فقتل الامراء والقواد والمشاهير الواحد تلو الاخر (بحيلة الفداوية)[٦١] فكان يتخلص من كل من يتعصب معه بهذه الحيلة (ويطول بنا المقام لو ذكرنا أسماءهم).

وبقي مستوليا على الامور طوال خمسة وثلاثين عاما .. الى أن مرض ومات سنة ٥١٨هـ [٦٢] .

خلفه بعد موته شخص يسمى برزك أمين حيث استمر فى انتهاج نفس المنهج طيلة أربعة عشر عاما [٦٣] الى أن مات سنة ٥٣٢هـ ، فتولى بعده زمام الامور ابنه محمد وولى عهده الى أن مات سنة ٥٥٧هـ فخلفه ابنه الحسن الذى تتبع باتقان كلام الدعوة وصار بارعا فى تقرير المذهب الباطنى وتجاوز به الحد فى الانسلاخ عن الملة حيث أضاف عقيدة جديدة وشجع أتباعه على شرب الخمر وارتكاب الموبقات فى شهر رمضان يقول :

(وكان أتباعهم الكفرة الفاسقون الذين أوشكوا على الانسلاخ من شعار الشريعة ، يعتبرون ارتكاب المحظور وشرب الخمور علامة على ظهور الامام الموعود ، فلما قام مقام أبيه بدأ أشياعه وأتباعه بزيادة توقيره بحكم اعتقادهم فيه ، اذ كانوا يظنون أنه الامام)[٦٤] .

---

(٦١) يصف الدكتور محمد السعيد جمال الدين (الفداوية) بانها منظمة رهيبة كان نشاطها قائما على اساس فردى باغتيال المناوئين لكل من الدولة والمذهب على حد سواء فاوقعوا الخلل والتوتر فى نفوس المخالفين لمذهبهم حتى انعدم الامن ، ووصل الامر الى ان الملوك والسلاطين لم يجدوا فى حفظ انفسهم من الفداوية حيلة . دولة الاسماعيلية فى ايران ص ١١١—١١٢ .

(٦٢) تاريخ جهانكشاى ص ٢٠٢ .

(٦٣) كانت فى اصل المخطوطة طيلة عشرين عاما ولكن المحقق رجح المدة اعلاه . ينظر تعليقه ص ٢٠٧ من المصدر نفسه .

(٦٤) نفسه ص ٢١٣ .

الى ان يذكر انه فى رمضان سنه ٥٥٩ أمر باقامة منبر فى ساحة ميدان أسفل ألموت بحيث تكون قبلته فى الوجهة المغايرة لقبلة أهل الاسـلام فلما كان السابع عشر من رمضان[٦٥] أمر أهالى ولايته الذين كان قد استدعاهم الى ألموت فى ذلك الحين بأن يجتمعوا فى ذلك الميدان .

وأعلن على أتباعه أن رجلا قدم اليه فى الخفاء من لدن الامام المفقود حيث فتح باب رحمته وأبواب رأفته على المسلمين وعليهم كذلك ودعا أتباعه الخاصين المختارين ورفع عنهم آصـار الشريعـة ، ثم نزل من على المنبر وصلى ركعتى العيد وقال (اليوم عيد) .

ومنذ ذلك الحين — كما يخبرنا المؤرخ عطا ملك الجـوينى — وهم يطلقون على اليوم السابع عشر[٦٦] من رمضان اسم (عيد القيام) ، وفى ذلك اليوم كان أغلبهم يشرب الخمر بشره ويتظاهر باللهو والطرب[٦٧] .

كما ادعى أحد دعاتهم وهو أبو محمد عبيد الله بن ميمـون القـداح (توفى ٣٢٢هـ) ويقال انه كان يهوديا ثم ادعى الاسلام وأنه من نسل فاطمة وقد تمكن حفيده المعز من انشاء الدولة المسماه بالدولة الفاطمية فى مصر ، واستمرت نحو مئتى عام حتى أزالها صـلاح الدينى الايوبى ، ويجمـع

---

(٦٥) واختيار هذا اليوم بالذات يحتاج الى وقفة تأمل لانه يوافق — كما تروى كتب السيرة والتاريخ الاسلامى — بداية الالتحام فى معركة بدر الكبرى ، فاذا اضفنا الى هذه الملاحظة ما تعمده هذا الملحد من مخالفة جهة القبلة ظهـر لنا بوضوح الدوافع العدائية للاسلام وعباداته وتاريخه .

(٦٦) واختيار هذا اليوم يحتاج الى وقفة تأمل كما قلنا آنفا . للمقارنة ينظر كتاب (مختصر سيرة الرسول ﷺ) لمؤلفه الشيخ محمد ابن عبد الوهاب حيث يذكر ص ٢١٠ (.. وكانت ليلة الجمعة السابع عشر من رمضان فى السنة الثانية من الهجرة ، فلما اصبحوا أقبلت قريش فى كتائبها واصـطف الفريقان) المطبعة السلفية بالروضة بالقاهرة ١٣٩٦هـ .

(٦٧) تاريخ كهانجشاى ص ٢١٤—٢١٥ .

المؤرخون على عدم صحة انتساب هؤلاء الفواطم الى السيدة فاطمة مؤكدين أنهم من أصل يهودى •

وظهر أخطر دعاتهم أيضا فى القرن الخامس الهجرى ويدعى الحسن ابن الصباح — جال من الاقطار الاسلامية للقضاء على الدولة العباسية فذهب الى مصر وتلقى تعليم الباطنية فى دار الحكمة ثم عاد الى الشام ورجع فى آخر الامر الى خراسان فى عهد نظام الملك حيث مد سلطانه الى مناطق بلاد فارس الجبلية فبنى بها حصونا يشن منها هجماته •

مناقشة المدافعين عن الباطنية :

نود بعد هذا كله أن نعرض باتجاه بعض البحوث المعاصرة التى تبرز فى عرضها لحركات الباطنية من اسماعيلية وقرامطة وغيرها ، تبرز العامل الاقتصادى مستندة الى ما أقامه حمدان القرمطى من نظام سموه نظاما اشتراكيا لانه حرص فى دعوته على التنظيم النقابى والاجتماعى وفرض الضرائب المتدرجة على أتباعه[٦٨] •

وقبل مناقشة هذه الدعوى ينبغى أولا التعرف على الاتجاه الذى يتبنى هذا التفسير الاقتصادى فاذا عرفنا أن القائمين بهذه الابحاث أو الدراسات هم أصحاب الميول الماركسية فلا ندهش عندئذ تقويمهم لحركات الباطنية ولن نتعرض لما أكده المؤرخون جميعا من كذب ادعاء نسبة الباطنية لآل البيت اذ ربما نواجه بالحجة القائلة أن مصادر أهل السنة والجماعة هى التى تشكك فى نسبهم ، ولا ينتظر من خصومهم الا مثل هذا الموقف أما مدخلنا لنقد هذا التفسير المادى فانه يبدأ من نقطة أساسية

---

(٦٨) ينظر على سبيل المثال كتاب الدكتور محمود اسماعيل : الحركات السرية فى الاسلام من سلسلة كتاب (روز اليوسف) مايو سنة ١٩٧٣م .

لابد من تسليم المعارضين بها وهى أننا نناقش هـده الحـركات من حيث بواعثها وأهدافها ومن حيث وسائلها أيضا ، نناقش هذا كله ونزنه بميزان الإسلام عقيدة وشريعة وسلوكا ، ثم تأتى الى تفسير علماء المسلمين وأدلتهم .

أولا : بواعث الحركة وأهدافها :

من المتفق عليه حتى فى مصادر الاسماعيليه أنفسهم مثل رسائل اخوان الصفا انهم أباحوا لرؤسائهم تأويل الكتب السماويه فخرجوا بهذا التأويل عن عقيدة الاسلام بدعوى أن للشريعه ظاهرا وباطنا وأن الباطن الحقيقى لا يعرفه الا الامام الذى يفيض الله عليه نور المعرفة فتنكشف له الحقائق وتنتج عن ذلك استطاعة الامام التصرف فى العقيدة كما يشاء ، وهذا دليل على أنها لم تكن حركة اصلاحية اجتماعية تبغى التنظيم الاقتصادى داخل الاطار الاسلامى بل هى عبارة عن خروج على العقيدة بدافع العـداء لها ، غذتها خصومه اليهود والشعوبيه وغيرهم .

فهى فى حقيقتها لم تكن الا حركة هدامه تحاول قلب الدولة الاسلامية عن طريق الثورات والقلاقل وتبديل العقيـده وما تحصـيل الضرائب الا وسيلة للحصول على المـال الذى تحتاج اليه الحركة .

وهناك أدله أخرى لا نود الاطاله بذكرها غير أنه يكفينا معرفة النتائج التى أسفرت عنها اذ لمـا استقرت الحركه فى مصر أسـس لها الجامـع الازهر لبث آراء الباطنيه واستمرت حكومتهم حتى أيام الحاكم بأمر الله الذى أدعى الالوهيه . والقارىء للتاريخ بوعى يرى المظالم والانتهـاكات ومظاهر التعسف وشيها موضح عكس ما يصوره الاخذين بالتفسير المادى التاريخ كما نذكر من واقعه اقتلاع الحجر الاسود وقتل الحجيج بالحرم ثم أسلمنا . ولا ننسى أيضا أن حـركه الاغتيالات على يد حسن الصباح

بلغت ذروتها ضد السلاجقة وكانوا السد المنيع فى مواجهة الحروب الصليبية •

ثانيا : وسائل التنفيذ .

من الحديث عن الحسن بن الصباح اتضحت خطورته بين الدعاة مما تجاسر عليه من أعمال القتل والاغتيال وقد وصفه أحد المؤرخين للماسونية، أنه ليس هناك من يجهل اسم الأستاذ الأكبر الرهيب لما سماه بالماسونية الاسلامية الذى يعرف على وجه الخصوص باسم «شيخ الجبل» حيث قسم المريدين والاتباع الى طبقات منها طبقة الرفقاء وطبقة الدعاة . أو المرشدين وهم يقابلون الاساتذة فى درجات الماسونية والطبقة الثالثة تتألف من جماعة الفدائيين الذين أعدوا اعدادا خاصا للتضحية بأنفسهم فى سبيل الجماعة وهم يشبهون أمثالهم أيضا فى بعض الجماعات الماسونية الغربية وقد استخدموا نفس الاساليب لبث الرعب فى نفوس كل من يقف ازاء الدعوة الباطنية •

وأما التفسير الاسلامى الصحيح كما ورد فى كتب السنه والسلف ، أن تسليط القرامطة — أى الباطنية — فانما كان عقوبة بسبب ذنوب الناس، فأخذوا الحجر والباب وقتلوا الحجاج وسلبوهم أموالهم •

يقول ابن رجب (ولم يتمكنوا من منع الناس من حجه بالكلية ، ولا قدروا على هدمه بالكلية كما كان أصحاب الفيل يقصدونه ، ثم أذلهم الله بعد ذلك وخذلهم وهتك أشعارهم ، والبيت المعظم باق على حاله من التعظيم والزيارة والحج والاعتمار والصلاة) •

وعلل بعد ذلك ما فعلوه من اخافة حج العراق حتى انقطعوا بعض السنتين ثم عادوا ، علله بأن الله تعالى لم يزل يمتحن عباده المؤمنين بما يشاء من المحن ، ولكن دينه قائم محفوظ لا يزال تقوم به أمة من أمة محمد ﷺ،

لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك ؛ أى لا بد أن يبقى من أمته من يقوم بهذا الدين .

ومعلوم أنه يستند الى حديث نبوى صحيح بهذا المعنى(٦٩) .

كذلك الاية فى قول الله تعالى (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ٣٢ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ٣٣) التوبة .

وابن رجب(٧٠) يعبر بتفسيره بهذه الاية وذاك الحديث عن علماء السلف والسنة ، فان طاعة الامة لربها عز وجل ورسوله ﷺ هو أساس العز والسؤدد ، ، وبالعكس فأن المعاصى والذنوب تورث الهزائم والمحن وانتصار الاعداء ، وكان الباطنية من أقوى الاعداء وأشدهم على المسلمين ، وليبسوا دعاة عدالة اجتماعية أو تطبيقات اشتراكية ..

وللقارىء فكرة عامة عن نفسير أحد علماء السلف للاحداث التاريخية من وجهة النظر الاسلامية :

فكرة عن تفسير ابن تيمية للتاريخ(٧١) :

---

(٦٩) روى البخارى فى صحيحه عن معاوية بن ابى سفيان رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : من يرد الله خيرا يفقهه فى الدين ، والله المعطى وأنا القاسم ، ولا تزال هذه الامة ظاهرين على من خالفهم حتى يأتى امر الله وهم ظاهرون) .

(٧٠) ابن رجب (متوفى ٧٩٥هـ) : لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف ص ٩٧ ط مكتبة الرياض الحديثة — الرياض .
نسخة مصورة عن مطبعة دار احياء الكتب العربية بمصر سنة ١٣٤٣هـ بتصحيح محمد الزهرى العمراوى .

(٧١) سبق أن عرضنا لنفس الموضوع بكتابنا (قواعد المنهج السلفى فى الفكر الاسلامى) ص ١٢٥—١٢٩ وقد اعدناه هنا لاتفاق الغرض باعتبار ابن تيمية ممثلا عن الاتجاه السلفى .

كثيرا ما يتوقف الباحث عند النظرات العميقة لابن تيمية فى تاريخ الامم السالفة . وفى نظرقنابعة من مقارنة بين الامم أصحاب الرسالات وغيرها التى لم يبعث فيها أنبياء ، وبلغتنا المعاصرة ، وفى ضوء دراستنا لفلسفة التاريخ ، قد لا يصبح من قبيل التسرع فى الحكم ، القول بأنه صاحب نظرة تفيد أن التاريخ سجل لاعمال الإنبياء والرسل ، وأن الحضارات من صنعهم ، وبقدر الاقتراب أو الابتعاد من تنفيذ الرسالات السماوية التى نيطت بهم ، تنهض الحضارات الانسانية أو تندثر . بل تتحقق سعادة البشر أو تشقى (والله سبحانه يثبت وجود جنس الانبياء ابتداء فى السور المكية حتى يثبت وجود هذا الجنس ، وسعادة من اتبعه وشقاوة من خالفه)[٧٢] ، وتوجه عز وجل للمكذبين بالرسل بمثل قوله (أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .

والامم — حسب تقسيمه — نوعان : نوع لهم كتاب منزل من عند الله تعالى كاليهود والنصارى ، ونوع لا كتاب لهم كالهند واليونان والترك ، وكالعرب قبل مبعث محمد ﷺ ، وقد بعث ابراهيم عليه السلام الى الروم الصابئة الذين عاشوا بمقدونيا وغيرها ، فان من آثار الصابئة بحران الهياكل التى للعلة الاولى والعقل والنفس والكواكب ، فان هذا ليس من دين اليهود والنصارى ولا فارس والروم المنتصرة[٧٣] وكثيرا ما يرى أن هناك علاقة بين فلاسفة اليونان وبين عبدة الكواكب لانهم يعظمون الافلاك ، كما سمحت له قراءاته فى التاريخ تصحيح الخطأ الذى كان شائعا عن اسكندر

---

(٧٢) النبوات ص ٢٧ .

(٧٣) الجواب الصحيح : ليدن جـ٤ ص ٩٩ والاستغاثة جـ٢ ص٤، ٣٠٤ـ٣٠٥

ذى القرنين الوارد بالقرآن الحكيم ، اذ ظن البعض أنه اسكندر المقدونى تلميذ أرسطوطاليس .

ان مسار التاريخ يمضى على أقدام الانبياء والرسل ، فهم رسل الله الى البشرية خصهم بآيات ودلائل ومعجزات ، وييسر معرفتهم على خلقه ، بل ان طريق معـرفة الانبياء كطريق معـرفة نوع من الاديان خصهم الله بخصائص يعرف ذلك من أخبارهم واستقراء أحوالهم كما يعـرف الاطباء والفقهاء ، مثال ذلك من رأى نحو سيبويه ، وطب أبقراط ، وفقه الائمـة الاربعة نحوهم ، كان اقراره بذلك من أبين الامور . ومن هنا قرب الله تعالى فى القرآن أمر النبوة واثبات جنسها بما وقع فى العالم من قصة نوح وقومه، وهـود وقومه ، وصـالح وقـومه ، وشـعيب ولوط وابراهيم ومـوسى وغيرهم[٧٤] .

كما يحدثنا القرآن أن كل أمة قد جاءها رسول ، قال تعالى (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هـدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ، فسيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) ١١٩ البقرة (انا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا) ٢٤ فاطر (وان من أمة الا خلا فيها نذير)[٧٥] والانبياء وسائط بين الله وبين عباده فى تبليغ أمره ونهيه ووعده ووعيده[٧٦] وقد بعثوا صـلوات الله عليهم بتحصـيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، فأصبح أتباع الرسل أكمل الناس ، وعلى العكس من ذلك ، فان المكذبين للرسـل يتبعـون المفاسـد ويعطلون المصالح[٧٧] .

---

(٧٤) النبـوات ص ٢٦—٢٧ .
(٧٥) النبـوات ص ٢٥ .
(٧٦) طريق الوصول ص ١٤٠ .

ويقرر ابن تيمية أن السعادة اذن فى اتباع الانبياء والرسل ومناهجهم أدعى الى الاقناع ومجادلة الكافة، ودليله على ذلك أن البشرية لم تنقطع صلتها بالانبياء على طول تاريخها ، مع توافر أخبارها ، فصار ظهور الانبياء مما تؤرخ به الحوادث فى العالم لظهور أمرهم عند الخاصة والعامة ، فان التاريخ يكون بالحادث المشهور الذى يشترك الناس فيه ليعرفوا به كم مضى قبله وبعده[٧٨] .

أما اذا قارن بين الانبياء والفلاسفة ، فانه يرى أن منهج الانبياء قائم على أمر البشر بما فيه صلاحهم ونهيهم عما فيه فسادهم ، سالكين فى ذلك أقرب الطرق فلا يشغلونها بالكلام فى أسباب الكائنات كما تفعل الفلاسفة ، فان منهج هؤلاء كثير التعب قليل الفائدة ، أو موجب الضرر . ويضرب مثلا على ذلك ، فيذكر أن مثل النبى ﷺ مثل طبيب زار مريضا فرأى مرضه فدله على شرب دواء معين وأمره بنظام خاص فى الطعام والشراب فأطاع المريض فشفى ، ولكن الفيلسوف يسلك طرقا طويلة ، اذ يتكلم فى سبب للمرض . وصفته ، وذمه ، وذم ما أوجبه ولو سأله المريض عما يشفيه ، عجز عن الاجابة[٧٩] .

ويمثل هذه القاعدة ، ينتقل الى النظر الى تاريخ المسلمين خاصة ، فيبرهن ابن تيمية على أن أتباع محمد ﷺ أدعى للعلم والتوحيد والسعادة. ويعنى بذلك المقارنة بين الصحابة والتابعين لهم ، وبين المتكلمين وفلاسفة المسلمين ، ويقف أمام الاحداث التاريخية فيعللها بسبب مخالفة الاصول الاسلامية فى القرآن والحديث ، فيرى أن انقراض دولة بنى أمية كانت

---

(٧٧) نقض المنطق ص ٦٨ .
(٧٨) نقض المنطق : ص ١٥—١٤٦٤ .
(٧٩) نفس المصدر ص ١٣٦—١٣٧

بسبب الجعد بن درهم والجهم ابن صفوان ، الى جانب أسباب أخرى أوجبت أدبارها[٨٠] •

وربما يعنى بذلك أن العقيدة عندما خمدت فى النفوس وفقدت فاعليتها عما كانت لدى المسلمين ، ظهر الضعف فى الامة ، اذ تحولت العقيدة الراسخة من قوة محركة ناجمة عن اقتناع عقلى ويقين قلبى ، الى مجرد أفكار جدلية تتطاول الى الحديث عن الذات الالهية ، ففقدت القلوب الهيبة • ولما تضاءلت العقيدة فى النفوس وأصابها الوهن ، وتحولت الى مناقشات وجدل كلامى وفلسفى ، وظهر النفاق والبدع والفجور ، هان المسلمون على أعدائهم ، فغزى الصليبيون أراضى الاسلام واستولوا على بيت المقدس فى أواخر المائة الرابعة[٨١] وكذلك بالنسبة لحروب التتار حتى رأى البعض أن هولاكو ملك التتار بمثابة بختنصر لبنى اسرائيل ، مستندين الى تفسير سورة بنى اسرائيل التى توعدهم الله تعالى اذا أفسدوا فى الارض[٨٢] •

ويمضى شيخ الاسلام فى تفسير الاحداث التاريخية وفقا لهذه القاعدة • فيذكر أن محنة خلق القرآن كانت بداية لتشجيع القرامطة الباطنية فى اظهار آرائهم • بعد ترجمة كتب الفلاسفة ولما رأت الفلاسفة أن القول المنسوب الى الرسول ﷺ وأهل بيته هو القول الذى يقوله المتكلمون الجهمية ومن اتبعهم ، ورأوا أن هذا القول الذى يقولونه فاسد من جهة العقل ، طمعوا فى تغيير الملة ، فمنهم من أظهر انكار الصانع ، وأظهر الكفر الصريح ، وقاتلوا المسلمين ، وأخذ قرامطة البحرين الحجر الاسود[٨٣] ، ولم يقتصر الامر على انتصار الخصوم فى مجال الحروب

---

(٨٠) الفرقان بين الحق والباطل ص ١٢٢ — ط السنة المحمدية بالقاهرة.
(٨١) نفس المصدر ص ١٢٠ •
(٨٢) نفس المصدر ص ١٢٠—١٢١ •
(٨٣) شرح حديث النزول ص ١٧٣ — ط المكتب الاسلامى ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م

فحسب ، بل اشتد الخطب الى مجال الفكر والعقيدة ، لان فتح باب القياس فى العقليات بواسطة المتكلمين ، شجع الزنادقة على المضى فى تنفيذ مخططاتهم ، فانتهى بالقرامطة الى ابطال الشرائع المعلومة كلها ، كما قال لهم رئيسهم بالشام . لقد أسقطنا عنكم العبادات فلا صوم ولا صلاة ولا حج ولا زكاة(٨٤) .

وقبل الانتهاء من هذه اللمحة لموقف ابن تيمية من التاريخ ، فاننا نعجب من تفاؤله بينما كان فى وسط ظروف حالكة الظلام ، ومع هذا فانه يقدم تفسيرا للحديث (ان الله يبعث لهذه الامة فى رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها) . فالتجديد انما يكون بعد الدروس ، وذلك هو غربة الاسلام ، ثم يحاول ادخال الطمأنينة على القلوب بقوله (وهذا الحديث يفيد المسلم بأنه لا يغتم بقلة من يعرف حقيقة الاسلام ، ولا يضيق صدره بذلك ، ولا يكون فى شك من دين الاسلام ، كما كان الامر حين بدأ ، قال تعالى : (فان كنت فى شك مما أنزلناه اليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك) (الى غير ذلك من الايات والبراهين الدالة على صحة الاسلام)(٨٥) ، ولكنه فى الوقت نفسه يحذر من مخالفة الاوامر الالهية ، لان الذنوب تورث الهزائم والكوارث للمسلمين ، كالهزيمة التى أصابتهم يوم أحد ، ويعلل المقصود بقصص بنى اسرائيل فى القرآن اتخاذهم عبرة لنا ، مستشهدا ببعض السلف القائلين (ان بنى اسرائيل ذهبوا ، وانما يعنى أنتم) ومن الامثال السائرة (اياك أعنى واسمعى يا جارة) .

وهكذا يعود بنا الى نفس الاصل يفسر به التاريخ .

ونقطة الخلاف الرئيسية بين التفسير الاسلامى والتفسير المادى

---

(٨٤) نفس المصدر ص ١٦٩ (وينظر ايضا ص ١٦٣ و ١٦٥) .
(٨٥) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ج١٨ ص ٢٩٨—٢٩٩ ط الرياض .

للتاريخ ، ان علماء المسلمين أخضعوا تفسيرهم للسنن الالهية كما وردت في القرآن الحكيم ، بينما يرى الماديون اخضاع حوادث التاريخ الى القوانين التاريخية وفلسفة الصراع بين الطبقات .

ويظهر بوضوح الفرق بين المنهجين :

(فان الماركسية تعتبر أن للحدث التاريخي مغزى واحدا وهو المغزى المادي البحت ، بينما يرى الاسلام للحدث التاريخي مغزيين أحدهما مادى أى دنيوى والاخر معنوى أى أخروى)(٨٦) .

مع العلم بأن النهضة الاسلامية المعاصرة قدمت الكثير من البحوث المستفيضة في مجال التفسير الاسلامى للتاريخ وهى تضع أصولا للبحث والتفسير التاريخي للاحداث التى مرت بالامة بحيث ينبغى على أى دارس فى هذا الصدد أن يطلع عليها والا سيقع فى نتائج خاطئة ويجافى الروح العلمية التى تلزمه بالاطلاع على وجهات النظر المختلفة فى الموضوع الذى يبحثه(٨٧) .

---

(٨٦) الاستاذ عبد المغنى سعيد فى رده على صاحب كتاب (الحركات السرية فى الاسلام وهو ملحق بنفس الكتاب ص ٢٤٤ .

(٨٧) ونقترح الاطلاع على كتب العلماء المعاصرين الذين كتبوا فى التفسير التاريخي الاسلامى ملتزمين بالموقف السلفى بابعاده الثلاث : اى اولا : من حيث النظر الى العقيدة السلفية خالية من البدع وثانيا : اعمال المسلمين ومدى التزامهم بشرع الله تعالى واقامة العدل الذى اقام به السموات والارض وامر بالحكم به ، واخيرا : موقف الامم الاخرى فى السلم والحرب من الامة الاسلامية.

كل هذا مع استلهام الايات القرآنية والاحاديث النبوية التى اكدت وجود سنن الهية تحكم المجتمعات والامم كما تحكم مخلوقاته الكونية .

وبتطبيق هذا المنهج — دون غيره — سيظل الباحث باذن الله وعونه الى استجلاء النتائج الاقرب الى الصواب .

واذا كان هدفنا (التفسير التاريخي) استخدم نتائجه والدروس المستفادة منه فى بناء المستقبل والارتقاء بالاجيال الجديدة بناء على التربية المعتمدة على التوجيه العلمى واهم مقرراته الاقتناع بالادلة .

أما رؤية التاريخ الاسلامى من احدى زوايا فلاسفة الغرب فسيبعد بنا عن التفسير الصحيح ، فضلا عن مجافاة هذه الخطة للروح العلمية ومنهج البحث الذى يشترط مراعاة اختلاف الامم فى عقائدها ومواقعها الجغرافية واحداثها التاريخية وعوامل نهوضها وكبوتها .. الخ .

ولنلقى نظرة الان الى هذه (القوالب) الغربية لكى نزداد اقتناعا بما نريد ايضاحه .

يقول هيوج . اتكن :

وبينما يقترب المؤرخ من دراسة التغير ، يجد مجموعة كبيرة من الافكار العامة عن موضوعه . فهناك ، أولا ، الحقيقة البدهية التى تقول ان المجتمع يتغير بعض الشىء باستمرار ، حتى ولو اقتصر التغير على تحديد اعضائه بسبب المواليد والوفيات . ومن هنا يمكن القول بأن التغير اصيل فى المجتمع .

ثانيا : سواء من حيث الحيلولة دونه أو زيادته ، هم اعظم ما تعنى به البشرية . وعلى هذا فان التغير هو هدف غالبية السياسات الخاصة والعامة اى هدف محاولات الانسان للتحكم فيما يحدث وتنظيمه .

ينظر كتاب (دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية) هيوج اتكن ترجمة د. محمود زايد تقديم د. قسطنطين زريق ص ١٢١ دار العلم للملايين — بيروت سنة ١٩٦٢م .

وقد تجد هذه التصورات قبولا مباشرا لدى المؤرخ . اما فيما يختص بتفسير سبب التغير وكيفية حدوثه فان العالم يواجه صعوبات اكثر خطورة . ذلك أنه يجد هنا نظريات كثيرة تستهويه . فاذا سبق له ان درس كتاب ارنولد ج. توينبى (دراسة التاريخ) (١٩٣٤ — ١٩٣٩) فقد يكون قد اعجب بالازدواجية التى يعتقدها المؤلف بين (التحدى والاستجابة) و (الانسحاب والعودة) أو يكون قد أخذ بسحر كتاب (انحطاط الغرب — ١٩٢٦—١٩٢٨) لازفلدا شبنجلر ، واستحالته مقارنة المؤلف للمجتمع بالجسم الحى — اى بشىء

يولد ، ويصبح شابا قويا ، ثم ينضج ، واخيرا يموت . او يكون قد أعجب بالتحليل الماركسى فيسعى الى تفسير التغير بالدرجة الاولى على اساس الصراع بين الطبقات الاقتصادية — الاجتماعية ، ونظرية العمل فى القيمة .

او يكون قد استمد من مونتسكيو وبكلى وهنتنجن الاعتقاد بأنه ينبغى البحث عن مصدر التغير فى تعاقب الاحوال الجغرافية والمناخية . وقد يكون سبق له ان تأثر بالقائلين بالتطور الاجتماعى ، مثل هربرت سبنسر وكون رايا فحواه ان التغير يحدث بسبب الصراع التى تكتب الحياة فيه (للاصلح) من المؤسسات الاجتماعية والثقافية . او قد يكون استمد من احدى الفلسفات اللاهوتية الايمان بقوة خارقة تقرر ما يحدث على الارض من تغير . نفسه ص١٢٢

فباى هذه الفلسفات نأخذ عند النظر الى تاريخنا ؟

لاول وهلة يبدو اختيار التفسير الماركسى تحيزا غير مقبول فى البحث العلمى .

هذا ، وقد اجتهدنا مستعينين بالله تعالى فى الفصل الاخير من هذا الكتاب الى محاولة وضع ضوابط للتقدم او التغير الذى يتحدثون عنه فى الغرب ويعلقونه على الزمن أو القيم الاقتصادية .

والتعليق الاخير لنا على النص المتقدم هو التحفظ فى قبول رأيه عن الفلسفة اللاهوتية التى تؤمن بقوة خارقة تقرر ما يحدث على الارض من تغير ، ولا شك ان المؤلف يعبر عن النظرة الدينية فى الغرب ، وربما هو متأثر ايضا بعقيدة القضاء والقدر .

ويجب هنا تصحيح النظرة وفقا للتفسير الاسلامى الذى يأخذ فى الاعتبار عاملين اساسيين :

الاول : ان (الابتلاء والاختبار) من السنن الماضية على الانسان لا يمكن رفعها من واقع الحياة ، اى الحكمة الرئيسية من خلق الانسان .

الثاني : مترتب على الاول فان الابتلاء والاختبار يقتضي منح الانســـان حرية الاختيار وهي الامانة الكبرى ومناط المسؤولية والتكليف بها يكون النجاة، ويكون الهلاك يوم يعود ليحاسب عن تلك الحرية من خالقه — عز وجل — فاما الوفاء بتلك الامانة واما الهلاك . ينظر كتاب الاستاذ ابراهيم بن على الوزير : على مشارف القرن الخامس عشر الهجرى ص ٦٨—٩٦

دراسة للسنن الالهية والمسلم المعاصر دار الشروق ١٣٩٩هـ —١٩٧٩م .

ومن المؤلفات التى نعنيها :

— كتاب العلامة الشيخ السيد أبى الحسن على الحسينى الندوى بعنوان: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين وقد صدر فى عدة طبعات .

— كتاب الاستاذ الدكتور عماد الدين خليل : التفسير الاسلامى للتاريخ ط دار العلم للملايين — بيروت الطبعة الثانية — فبراير سنة ١٩٧٨ .

— كتاب الاستاذ الدكتور محمد فتحى عثمان : التاريـــخ الاســـلامى .. والمذهب المـــادى فى التفسير — الدار الكويتية ١٩٦٩م

— كتاب الاستاذ ابراهيم بن على الوزير : على مشارق القرن الخامس عشر الهجرى (دراسة للسنن الالهية والمسلم المعاصر) .

دار الشروق ١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩م .

وغيرها كثير — فضلا عن المقالات والابحاث فى الموضوع نفسه .

ثانيا : البابيــة والبهائيــة

١ ــ البابيــة :

تحدثنا فيما تقدم عن الانحــرافات العقائديه التى ابتــدعها الباطنية وانسلخوا بها عن الاسلام الذى أنزله الله تعالى على رسوله ﷺ ــ وتلقاه عنه سلف الامة ومن تابعهم باحسان : انسلخوا عن الاسلام بعقائد باطلــة كالقول بأن النبوة لم تنقطع ، وادعاء بعض الدجاجلة النبوة مــع التأويل الغالي بزعم أن الشريعة لها ظاهر وباطن •

وها نحن مرة أخرى أمام فرع من فروع النحل الباطنيــة المتصــلة بأسلافها عقائديا وتاريخيا ، ولكنه ظهرت فى العصر الحــديث تحمل نفس الافكار وتلبس نفس الثياب لتشبهم بدورها فى اضعاف شــوكة المسلمين ببعث النحل والعقائد الخارجية عن الملــة ، وتضم الى صــفوفها المنافقين والحاقدين ليؤدوا دور الطابور الخامس[1] فى المجتمعات الاسلامية افسادا وهــــدما •

---

(١) ولله دار ابن الجوزى الذى أجاد فى التحليل النفسى لاتباع الباطنيـــة عموما : وحصرهم فى الاصناف الاتية :

أ ــ منهم قوم ضعفت عقولهم وغلبت عليهم البلادة والجهل .

ب ــ طائفة انقطعت دولة اسلافهم بظهور دولة الاسلام كأبناء الاكاسـرة واولاد المجوسى . فهولاء موتورون استكن الحقد فى قلوبهم .

جـ ــ ومن اتباعهم قوم لهم تطلع الى التسلط والاستيلاء وحب الرئاســة ولكن حالت دونهم العقبات فرأوا فى إتباع هذه المذاهب تحقيق غاياتهم .

د ــ ومنهم قوم جعلوا على حب التمييز عن العوام فــزعموا أنهم يطلبون الحقائق .

هـ ــ ومن اتباعهم ملاحدة الفلاسفة الذين مالوا الى عاجل اللذات ولم يكن لهم علم ولا دين .

(تنظر رسـالة « القرامطة » للامام ابن الجـوزى ص ٦٦ ــ ٦٨ تحقيــق الدكتور الصباغ ــ طبع المكتب الاسلامى) .

وقد مر بنا أن الباطنية يعرفون بأسماء عدة ، ولكى يعرفهم المسلم المعاصر ويستدل عليهم ينبغى أن يعرف أسماءهم فى بلاد العالم الاسلامى اليوم :

ان الباطنية اليوم — كما يذكر الدكتور الذهبى — رحمه الله تعالى — يوجدون بالهند ويعرفون بالبهرة أو الاسماعيلية ، وزعيمهم الان كريم خان حفيد أغا خان الزعيم الاسماعيلى المعروف • ويوجدون فى بلاد الاكراد ويعرفون بالعلوية حيث يقولون : على هو الله (تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا) ، وفى تركيا ويعرفون (بالبكداشية) ، ويوجدون فى ايران[٢] ويعرفون (بالبابية) ، وفى فلسطين ويعرفون (بالبهائية) ، ومنهم جماعات فى بلاد متفرقة ، وتوجد بالهند فرقة أخرى من الباطنية هى القاديانية ، وهى أحدث فرقهم عهدا ، وأقربهم ظهورا[٣] •

وقبل التطرق الى التعريف بالبابية وعرض عقائدهم ، ينبغى التنويه بأنهم فى حقيقة الامر طائفة واحدة نسبت إلى زعيمها الأول فقيل لها (بابية) ونسبت إلى زعيمها الثانى ، فقيل لها بهائية كما سيأتى : .

وحركات الباطنية تكاد تكون حلقات سلسلة لا تنقطع بدأت بالسبئية وظهرت فى شكلها المعاصر فى مذهبى البابية والبهائية •

وكنا عند الحديث عن أبى منصور العجلى قد بينا أنه فتح الباب للاسماعيلية فى الماضى ثم للبابية والبهائية فى العصر الحديث للادعاء بأن النبوة لا تنقطع أبدا ، بل هى متجددة دائما •

---

(٢) د. الذهبى : التفسير والمفسرون جـ٢ ص ٢٥٣ .

(٣) وقد اعلن اخيرا ان الحكومة هناك حظرت جميع انشطة البهائيين واعدمت منهم ١٤٢ شخصا (الاهرام فى ١٥—٩—٨٣ .

(٤) الذهبى : نفس المصدر والصفحة تعليقة ٣

وتنسب البابية الى شخص يدعى محمد على الشيرازى (١٢٣٦هـ — ١٨٢١م — ١٢٦٦هـ — ١٨٥٠م) .

ولد عام ١٢٣٦هـ وتوفى والده وهـو صغير ، فكفله خاله ورباه الى أن بلغ سن الرشد فشرع يشتغل بتجارة والده ، ولكنه منذ نعومة أظفاره شغل بالبحث فى الامور الاعتقادية متظاهرا بالزهد والنسك ، ولقى هناك بعض المنتمين للطريقة الشيخية[٥] — وهم طائفة من الشيعة أتباع الشيخ أحمد زين الدين الاحسائى — ولما عاد الى شيراز ، شرع يقـرأ فى المساجد ويجادل علماء الدين ، ويثير الخلافات معهم ويدعو الى مذهبه .

ثم أعلن أنه (باب المهدى) المنتظر[٦] ، وأنه المراد من الحديث (أنا

---

(٥) نسبة الى الشيخ احمد الاحسائى الذى ولد سنة ١١٦٦هـ — ١٧٥٣م، والذى اسس طريقة فى مذهب الشيعة الامامية سميت فيما بعد بالشيخية .

والشيخية يقـولون : ان الحقيقة المحمدية تجلت فى الانبياء — عليهم السلام — قبل محمد ﷺ تجليا ضعيفا ، ثم تجلت تجليا اقـوى فى محمد — ﷺ — والائمة الاثنى عشرية ، ثم اختفت زهاء الف سنة ، وتجلت فى الشيخ احمد الاحسائى ، والسيد كاظم الرشتى ، ثم تجلت فى كـريم خان الكرمانى وأولاده الى ابى قاسم خان ، وهذا التجلى هـو أعظم التجليات لله تعالى ، والانبياء والائمة .

د. محسن عبد الحميد : حقيقة البابية والبهائية ص٤٥ ط المكتب الاسلامى ١٣٩٥هـ — ١٩٧٥م .

وينظر ايضا كتاب الاستاذ عبـد الرحمن الوكيل — البهائيـة تاريخها وعقيدتها ص ٧٣—٧٤ مطبعة السنة المحمدية بمصر ١٣٨١هـ — ١٩٦٢م .

(٦) يقول الامير شكيب ارسلان : ولفظـة الباب متـداولة كثيرا عنـد الصوفية ، وعند بعض الفرق الباطنية ، يطلقونها على بعض اركان دعـوتهم بمعنى أنهم هم واسطة الدخول ، وسبب الوصـول .. والباب هـو الوسيلة الوحيدة لمعرفة ما يوجد فى داخل البناء من البدائع والنفائس وخزرات الانفس ، مما كان يبقى مجهولا عند الناظر الى خارج البيت لولا الباب ، فالبـاب عنـد المتصوفة وعند هذه النحل ، هو رمز الدخول ، والابتداء ، والواسطة واللمـح والمعرفة ، وجميع انواع المقاصد العالية ، وقد شاع استعمال لفظة (الباب)

مدينة العلم وعلى بابها) وأدعى أن العناية الالهية أرسلته لاصلاح ما أفسده علماء المسلمين لانهم اقتصروا فى رأيه على ظاهر الشريعة فحسب ، مع العلم بأن الحديث موضوع .

واستطاع بذكائه وسعة حيلته وطلاوة عبارته أن يستغل بعض الدهماء وضعفاء النفوس من المثقفين ويجعلهم يصدقونه فى زعمه أنه باب المهدى .

ولما انتشرت تعاليم الباب كثرت الفتن والمنازعات بين الناس ، فرأت الحكومة الفارسية حينذاك استئصال شأفتهم ، فاجتمعوا وقرروا الدفاع عن أنفسهم بالسلاح ، ثم دارت معارك كثيرة ، وقبض عليه وقدم المحاكمة .

وفى أول الامر عقدت له جلسة بواسطة العلماء لامتحانه والحكم عليه أو عليه ، فأعلن لهم كتابه (البيان) مفضلا اياه على القرآن الكريم ، فأفتى بعضهم بكفره بعد الاطلاع على عقيدته المكتوبة بخطه ، وقال آخرون نختل عقله ، وعتهه وأجاز تعزيزه[٧] .

وقد أدخله حاكم شيراز السجن ولكنه تمكن من الفرار ، ثم قبض

.. (فالباب العالى) هو مكان الوزارة ، لانها هى الواسطة بين الراعى والرعية ، والكتاب يتسمونه الى أبواب ، ويقولون أبواب الرزق وقولهم (يا مفتح الابواب) يعنون به يا ميسر الاسباب .. ولكن لم يشهرها احد بمثل ما شهرها به على محمد الشيرازى ، الذى سمى نفسه (الباب) بمعنى الوسيلة الموصلة الى معرفة الحقيقة الالهية وتبعه أناس تلقبوا من اجله بالبابية .

شكيب ارسلان : تعليقه بكتاب حاضر العالم الاسلامى ج٤ ص ٣٥١ دار الفكر ١٣٩١ هـ — ١٩٧١م .

(٧) ينظر تفاصيل محاكمته بمقالة الاستاذ محمد كرد على (البابية) بكتاب: دراسات عن البهائية والبابية ص.١١٠—١١٨ المكتب الاسلامى ١٣٩٧هـ —١٩٧٧م

عليه مرة أخرى وأعيدت محاكمته بواسطة العلماء ، وانتهى الامر باعدامه رميا بالرصاص فى ١٢٦٦هـ (يوليو ١٨٥٠م)[٨] .

عقيدة الباب وتعاليمه :

زعم الباب أن الانبياء — عليهم السلام — تنقضى شرائعهم بموت كل واحد منهم وبذلك ينتهى دوره ، وادعى أنه جاء بعد محمد — ﷺ — بديانة وشريعة جديدة ؛ وهى فى حقيقتها لا تمت الى الاسلام بصلة .

(أ) أعلن أنه الممثل الحقيقى لكل الانبياء والسابقين وأنه تتجمع فيه كل الرسالات الالهية ، وانه لهذا يلتقى عنده كل أهل الديانات ، ففى البابية ، تلتقى اليهودية والنصرانية والاسلام ، ولا فارق بينها .

(ب) عدم اعتباره نبينا محمدا ﷺ آخر الرسل والانبياء ، فقد أعلن ان الله تعالى قد حل فيه — تعالى الله عما يقول علوا كبيرا وأنه سيحل فى آخرين من بعده[٩] .

(جـ) أسس العقيدة والعبادات فى الغالب على العدد (١٩) ، فقسم

---

(٨) وقد تدخلت الحكومة القيصرية عن طريق تنصليتها فى طهران تدخلا مباشرا لانقاذ الباب من الاعدام مما كشف الستار على أنه صنيعتها ، ولكن بعد فوات الاوان . ويلفت الدكتور محسن عبد الحميد النظر فى كتابه القيم عن البابية والبهائية الى ظاهرة تثير التأمل وهى دخول عدد ضخم من اليهود فى هذه الحركة تحت شعار (وحدة الاديان والانسانية) . وقد كتب مفصلا عن البهائية واليهودية العالمية) — ينظر ص ١٢٧ من كتابه .

(٩) الشيخ محمد ابو زهرة : المذاهب الاسلامية ص ٣٥٩ (الالف كتاب — العدد ١٧٧ باشراف وزارة التربية والتعليم بمصر .

وقد أوضح الشيخ — رحمه الله تعالى — عند تناوله لنحلة البهائية فى هذا الكتاب ، انها خارجة عن المبادىء الاسلامية التى أجمع عليها المسلمون ، والتى تعتبر المقومات الحقيقية لهذا الدين الحكيم ص ٣٥٧ .

السنة الى (١٩ شهرا) كل شهر منها ١٩ يوما ، وجعل عدد كل فرقة من الفرق التابعة للمذهب ١٩ شخصا •

(د) وفى النظام المالى جعل الضريبة بمقدار الخمس•ورفع عن أتباعه كافة العقوبات ما عدا الغرامة والطلاق مكروه وليس بمحرم ، وأعطى للزوجين مهلة سنة حتى يتصالحا ، ويمكنهما استئناف حياتهما الزوجية بعد شهر من الطلاق ، وذلك الى حد تسع عشرة مرة(١٠) •

(هـ) ويجب الصيام كل عام لمدة ١٩ يوما من شروق الشمس الى غروبها ؛ والوضوء مستحب وليس بفرض ويجوز رؤية جميع النساء بغير حجاب أو نقاب ، والكلام معهن بدون حرج الا أنه لابد من الاقتصاد والحشمة فى الكلام معهن(١١) •

وسن لاتباعه أن لا يصلوا الى الكعبة وأن يتوجهوا فى صلاتهم حيث يدفن • وقد نقل خليفته جثته سرا الى قبر بناه له بعكا بأرض فلسطين وجعل عليه مشهدا كبيرا ، وأصبح كعبة لطائفته يحجون اليه بدل البيت العتيق ••

٢ ــ البهائية :

أما البهائية فهى امتداد للفرقة السابقة وتنسب الى أحد تلاميذ الباب وهو المدعو الميرزا حسين على المازندارى الملقب ببهاء الله المولود سنة

---

(١٠) وواضح من الاعتماد على الارقام تاثير فلسفة (فيثاغورث) ، حيث يرى استاذنا الدكتور النشار ــ رحمه الله ــ ان الفيثاغورية الجديدة وجدت لها مكانا ممتازا فى آراء البهائية ــ وهى فرقة شيعية غالية متأخرة ــ انفصلت عن الشيعة الاثنى عشرية مؤخرا ، ثم عن الاسلام كله . (نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام جـ١ ص ١٤٩ دار المعارف سنة ١٩٧١م) •

(١١) الامير شكيب ارسلان : حاضر العالم الاسلامى جـ٤ ص ٣٥٣ •

١٢٣٣هـ واليه تنسب البهائية ، وكانت طريقته فى الدعوة الى نحلته الباطلة قائمة على عدة طرق لخداع أتباعه : منها محاولة اسباغ هالة من الهيبة والعظمة على نفسه ، وذلك بعدم السماح بمقابلته الا لاشخاص معدودين. وكان هؤلاء أيضا يمرون بمراسم معقدة قبل الوصول اليه ، توقعهم حاشيته أثناءها تحت تأثير ايحاءات نفسية مستمرة ، ويشيرون عليهم باتباع تقاليد معينة فى الدخول والجلوس والكلام والرجوع .

كذلك يحذرونهم من النظر الى وجه الميزرا حسين ، حيث كان يضع برقعا على وجهه ، ويدعى أن (بهاء الله) المتجلى فى وجهه لا يرى بالابصار[١٢] .

وبتتبع مراحل دعوته الباطلة ، نجده استند أولا الى تنبؤ سلفه الباب حيث أخبر أتباعه أثناء حياته بأن نبيا سيأتى بعده ، وسماه تارة (الرجل الموعود) وتارة (من يظهره الله) .

زعم أولا انه هو هذا الرجل فادعى النبوة ثم ادعى الالوهية .

ولما هلك البهاء سنة ١٣٠٩ هـ ودفن بعكا قام ابنه عباس بعده بالامر ولقب نفسه بعبد البهاء ، فقدسه البهائيون وعبدوه كما فعلوا مع أبيه .

وكان أكثر خداعا من أبيه اذ دأب على ايهام كل ملة أنه من أبنائهم وسلك أتباعه هذا المسلك الخادع : ففى الشرق يصلون مع المسلمين مظهرين الاسلام مبطنين الكفر ، ولكنهم فى أمريكا مثلا يجهرون بعقيدتهم لا يخشون حسابا ولا نقدا . حيث أقاموا مؤسسات لهم هناك وانتشرت معابدهم واتخذوا مركزا فى شيكاغو ويسمون المعبد (بدار مشرق الاذكار) .

---

(١٢) د. محسن عبد الحميد — حقيقة البابية والبهائية ص ١٤٨—١٥٠ ط المكتب الاسلامى ١٣٩٥هـ — ١٩٧٥م .

ولهم هناك مجلتهم المعروفة باسم (نجم الغرب) ويستمذون عونهم من اليهود هناك حيث بلغ الامر ببعض اليهود أن استخلصوا بالتأويل نصوصا من العهد القديم ، زاعمين انها بشرت بظهور عباس أفندى عبد البهاء ، وأن كل آية تشير بظهور بهاء الله انما تعنى ظهور مخلص لعالم فى شخص هذا البهاء[١٣] .

ومن مظاهر الانحلال فى هذه النحلة ما نقرأه من آراء تنسب الى أحد كبار الاتباع وهى السيدة المسماة زرين تاج وكانت قد طلقت نفسها من زوجها على خلاف حكم شريعة الاسلام وآمنت بالباب عن غيب وكانت تكاتبه ويكاتبها فكان يخاطبها فى مكاتباته بقرّة العين فلقبت بذلك[١٤] .

ونستخلص من خطبة أعلنت فيها اباحة النساء للرجال جميعا ، وشبهت النساء بالورود والازهار التى ينبغى اقتطافها والتمتع بها والسياق العام للخطبة يومىء يحض نساء المسلمات على الثورة والانخلاع من تعاليم الدين ونحن نرى أن زعمها انها آمنت به غيبا زعم لا يمكن تصديقه ونرجع انهما ينتميان معا أى هى والباب الى جمعية سرية كالماسونية مثلا رأت فى جهودهما ما يخدم المخططات العدائية للاسلام[١٥] .

ولكى نعلم مدى ارتباط البهائية بالاستعمار البريطانى والصهيونى معا حسبنا أن نعرف أنه عندما هبطت قوات الاحتلال البريطانى أرض فلسطين هتف لها عبد البهاء قائلا ان الله خلص فلسطين من أيدى العرب

---

(١٣) عبد الفتاح عبد الحميد : يا مسلمى العالم اتحدوا ص ٨٤ دار الانصار بالقاهرة يوليو سنة ١٩٧٦م .

(١٤) العقاد : الاسلام فى القرن العشرين : حاضره ومستقبله ص ١٥٧ . دار الكتاب العربى بيروت فبراير سنة ١٩٦٩م .

(١٥) الصواف : المخططات الاستعمارية لمكافحة الاسلام ص ٢٥٤ . الدار السعودية بجده سنة ١٣٨٤هـ .

لتعود الى أصحابها — يقصد اليهود — ومكافأة له قدم له الجنرال اللنبى وسام الامبراطورية من طبقة سير فى احتفال كبير ، ومن المعروف أن الطائفة البهائية التى تتولى شؤونهم اليوم تقيم فى حيفا وتطبع كتبها لدى الحكومة الاسرائيلية التى تمدها بالاموال والمعونات[١٦] .

وقد كشفت الاخبار أخيرا عن اجتماع للبهائيين فى مؤتمر عالمى فى القدس المحتلة سنة ١٩٦٨م أعلنوا فيه أن دعوتهم مستمدة من الصهيونية أساسا . كما أن التاريخ كما رأينا يثبت كيف كان لهم نشاط ابان الاحتلال الانجليزي لفلسطين . ومنه امتد الى كثير من البلاد الاسلامية والعربية وقد خدع فيهم كثير من الناس دون أن يتبينوا مدى صلتهم بالتلمود[١٧].

ثالثا : القاديانية :

عندما استعمر الانجليز شبه القارة الهندية ، وبلاد العالم الاسلامى، وجد فى طريقه عقبتين :

أولاهما : وحدة المسلمين الفكرية وتمسكهم الشديد بالمعتقدات الدينية والاخوة الاسلامية التى جعلت المسلمين فى الشرق والغرب كجسد واحد .

والثانية : حماس المسلمين الدائم للجهاد الذى كان وبالا على الاستعمار الاوروبى . فعمد الانجليز الى تمزيق وحدة العالم الاسلامى الجغرافية — عن طريق الغاء الخلافة الاسلامية — والفكرية عن طريق بث الفرقة بين المسلمين بابتداع نحل ومذاهب باطلة .

---

(١٦) عبد الله عبد الجبار . الغزو الفكرى فى العالم العربى ص ٣٢—٣٣

(١٧) انور الجندى وحدة الفكر الاسلامى مقدمة للوحدة الاسلامية الكبرى ص ٧ـ مطبعة دار الاعتصام ١٩٧٥م.

وقد قاومت الشعوب الاسلامية الاستعمار البريطانى مقاومة شديدة فى أفغانستان ومصر والسودان و (الخليج العربى) و (عدن) .

لذلك أرسلت انجلترا وفدا من المفكرين البريطانيين الزعماء فى سنة ١٨٦٩م الى الهند لدراسة الوسائل والطرق التى يمكن أن تتخذ لتسخير المسلمين وحملهم على طاعة السلطة البريطانية فلما رجع الوفد قدم تقريرين وذلك فى سنة ١٨٧٠م وذكر فيهما (ان أكثر المسلمين فى الهند يتبعون زعمائهم الدينيين اتباع الاعمى ، فلو وجدنا شخصا يدعى انه نبى حوارى لاجتمع حوله كثير من الناس ، ولكن ترغيب شخص كهذا أمر فى غاية الصعوبة ، فان حلت هذه المسألة فمن الممكن أن ترعى نبوة هذا الشخص بأحسن وجه تحت اشراف الحكومه . والان — ونحن مسيطرون على سائر الهند — نحتاج الى مثل هذا العمل لاثارة الفتن بين الشعب الهندى وجمهور المسلمين واضطرابهم الداخلى)[١٨] .

وليس هناك فيما نعتقد أوضح من هذه الوثيقة بيانا لدور الانجليز فى ابتداع نحلة (القاديانية) كما سنرى . حيث وجدوا بغيتهم فى شخص يسمى مرزا غلام أحمد القاديانى :

شخصية المرزا غلام أحمد :

ولد سنة ١٢٥٢هـ — ١٨٣٩م فى بيت معروف بالولاء للانجليز حيث

---

(١٨) كتاب الازهر عن : موقف الامة الاسلامية من القاديانية (وثيقة تاريخية ضد القاديانية اتفق على قبولها اعضاء مجلس الامة فى باكستان وبضوئها اصدر مجلس الامة الباكستانى قرارا باعتبار القاديانية اقلية غير مسلمة تأليف نخبة من علماء باكستان . من مطبوعات مجمع البحوث الاسلامية بالقاهرة ١٣٩٦هـ — ١٩٧٦م ص ٩٩—١٠١ .

تعاون كل من أبيه وأخيه مع القوات البريطانية ، وتلقى علوما فى داره على يد استاذة فى المنطق والحكمة والعلوم الدينية والادبية وعرف بالعكوف على المطالعة واجهاد النفس ، ثم توظف لمدة أربع سنوات ودخل اختبارا فى الحقوق واخفق فيه . أما عن حالته النفسية والاخلاقية فقد كان معروفا بالغفلة وقلة الفطنة . وأصيب فى شبابه بنوبات عصبية عنيفة وكان يشتغل بالعبادات والخلوات ثم منعه انحراف صحته وضعفه من مواصلة المجاهدات ومات عام ١٩٠٨م[١٩] .

قال فى أحد كتبه (قرأت فى كتب سوانح آبائى ، وسمعت من أبى : ان آبائى كانوا من الجرثومة المغولية ولكن أوحى الى : انهم كانوا من بنى فارس) لا من الاقوام التركية .

ومع ذلك أخبرنى ربى بأن بعض أمهاتى كن من بنى الفاطمه ، ومن أهل بيت النبوه ، والله جمع فيهم نسل اسحاق واسماعيل من كمال الحكمة والمصلحة[٢٠] .

ولم يجرؤ غلام احمد على اعلان (نبوته) دفعة واحدة ، ولكنه خطط لكيلا يفاجىء المسلمين بهذا الكذب ، فبدأ فى المرحلة الاولى بدعوى الاصلاح والتجديد حيث ألف كتابه (براهين أحمدية عام ١٨٧٩م) فأعلن انه مأمور من الله تعالى لاصلاح العالم والدعوة الى الاسلام ومجدد لهذا الدين . لذلك أدعى أن له مماثلة للمسيح عليه السلام منكرا الحاجة الى نبوة جديدة.

---

(١٩) ابو الحسن الندوى : القاديانى والقاديانية ص ١٦٤ ط دار السعودية للنشر بجدة ١٣٩١هـ — ١٩٧١م ولفظ ميرزا معناه : السيد ويلقب به الاشراف .

(٢٠) حسن عيسى عبد الظاهر : القاديانية — نشأتها وتطورها ص ٤٠ عن كتاب (الاستفتاء ص ٧٥) ط مجمع البحوث الاسلامية بالازهر ١٣٩٣هـ—٧٣م

وكان فى هذه المرحلة مظهرا لفضل الاسلام ومبينا لاعجاز القـرآن ومثبتا لنبوة محمد ﷺ (٢١) .

ثم بدأ فى المرحلة الثانية يستغل عقيـدة المهـدى المنتظـر والمسيح الموعود ، يشجعه على ذلك من وراء الستار الانجليز — كما قدمنا — وصديقه الحميم (الحكيم نور الدين) الذى اقترح على غلام أحمد بأن يظهر المسيح — ويدعى أنه هو المسيح الذى أخبر بنزوله — حيث قدر الحكيم بذكائه أن المسلمين بعد ما تأثروا بدفاع مرزا عن الاسلام واعتقدوا فيه الولاية لكثرة الهاماته ومناماته ومبشراته يرحبون به ويخضعون له .

وقد صادف هذا الاقتراح هوى فى نفس غلام أحمد فأعلن على الناس انه المسيح المنتظر (مفسرا ظهور المسحاء فى الاسلام بأنهم الاولياء ورثة الانبياء وانه له خصائص المسيح وما سيؤديه من دور فى الحياة) . وقـد انتهى فى هذه المرحلة الى الزعم بأن المسـيح — عليه السـلام — توفى فى كشمير ودفن هنالك بعد أن هاجر اليها من فلسطين قبل ألفى سنة (٢٢) .

وفى المرحلة الثالثة والاخيرة كشف النقاب عن نواياه الخبيثة ، ولم يعد يتذرع بحجج الالهام أو التجديد أو المهـدية والمسيحية وغـيرها من المقامات التى تحتمل التأويل ، فانتهى الى ادعاء النبوة صراحة وكتب ما نصه (ان الروضة الانسانية كانت لا تزال ناقصة وقد تمت بأوراقها واشعارها بقـدومه) (٢٣) .

وظهرت عمالته للانجليز سافرة عندما أعلن انه وضع الجهاد بالسيف بأمر الله وقال (من رفع السيف بعد هذا على الكفار مسميا نفسه غازيا فقد

---

(٢١) المصـــدر السابق ص ٦١ .
(٢٢) المصـــدر الســـابق ص ٦٧—٦٩ .
(٢٣) نفســه ص ٧٦ نقلا عن (براهين احمدية جـ٥ ص ١١٣) .

عصى رسول الله ﷺ الذى أنبأنا منذ ثلاثة عشر قرنا من الزمان أن يوضع الجهاد بالسيف عند ظهور المسيح الموعود فلا جهاد بالسيف عند ظهورى ، وها قد رفعنا اللواء الابيض للصلح والامان[٢٤] .

وليت أمر الوحى المزعوم قد خصه وحده ، بل صار الى أتباعه من بعده أيضا فادعوا كذبا أيضا أنه ينزل عليهم الوحى ، وورد فى أحد منشوراتهم (أن طريق الوحى لا يمكن أن يسد فى وجه الناس) وأيضا (أن المهدى والمسيح قد ظهر فى الهند بمحل يقال له (قاديان) وأنه يوجد الان آلاف من من حوارييه يستمعون الوحى الالهى)[٢٥] .

ولكن بموت الغلام سنة ١٩٠٨م انقسم أتباعه الى فريقين :

فريق يسمى القاديانية ، وهم القائلون بنبوته .

وفريق يسمى (الاحمدية) وهم الذين يؤمنون بامامته ولا يؤمنون بنبوته[٢٦] .

ولكن الدراسة التى أجراها علماء الباكستان أثبتت أنه لا فرق بين عقيدة الجماعتين اذ تبين لهم ان عقائد الجماعة الاحمدية — أو اللاطورية — التى نشروها بعد سنة ١٩١٤م .

فوجدوا أن موقفهم كان محض حيلة ولا فرق حقيقيا بينهم وبين الجماعة القاديانية ، فالجماعة القاديانية تعتبر الهام المزرا حجة شرعية يجب اتباعها ويراه هؤلاء أيضا واجب الاتباع .

---

(٢٤) نفسه ص ٩٥ عن (الخطبة الالهامية) .

(٢٥) الشيخ محمد الخضر حسين : القاديانية ص ٢١ ط مجمع البحوث الاسلامية ١٣٨٩هـ — ١٩٧٠م .

(٢٦) العقاد : الاسلام فى القرن العشرين ، حاضره ومستقبله ص ١٦٦ — ١٦٧ ط دار الكتاب العربى — بيروت فبراير ١٩٦٩م .

ويجمع بين الطائفتين عقيدتان :

١ — استعمال لفظ (النبى) على مرزا غلام أحمد القاديانى •

٢ — تكفير غير الاحمديين •

رابعاً : النصيرية :

النصيريه تنسب الى (أبى شعيب محمد بن نصير النميرى) عاش فى القرن الثالث الهجرى (توفى حوالى ٢٧٠هـ) وعاصر ثلاثة من الائمة الاثنى عشر وهم على الهادى (٢١٤هـ — ٢٥٤هـ) والحسن العسكرى (٢٣٠ — ٢٦٠هـ) ومحمد المهدى (المولود ٢٥٥) •

زعم ابن نصير انه (الباب) الى الامام الحسن و (الحجة) من بعده، فتبعه طائفة من الشيعة سموا (النصيرية) • ولكن ابن نصير لم يكتف بذلك وانما أدعى النبوة والرسالة ، وغلا فى حق الائمة فنسبهم الى الالوهية ، ولما بلغت مقالته الامام الحسن العسكرى تبرأ منه ولعنه وحذر أتباعه من فتنته[٢٧] •

وتتلخص عقيدة النصيريين بالايمان بأفكار ثلاثة :

أولها : زعم النصيرية أن الله تعالى حل فى على بن أبى طالب — تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا — وأن عليا كان موجودا قبل خلق السموات والارض •

الثانية : التناسخ — أى انتقال الروح من بدن الى بدن آخر وهو معنى القيامة عندهم وبذلك ينكرون البعث والثواب والعقاب فى جنة أو نار والقول بالجزاء فى الدنيا وذلك اما بانتقال الروح الى بدن أسعد فتسعد

---

(٢٧) السيد عبد الحسين مهدى العسكرى : العلويون او النصيرية ص٧ ط شركة الشماع للنشر — الكويت ١٤٠٠هـ — ١٩٨٠م •

بذلك ، واما الى بدن اشــقى فتشقى بذلك وهــكذا أبد الابدين فالابدان جنتهم ونارهم(٢٨) .

الثالثة : التأويل الفاسد مدعين أن القرآن ظاهرا وباطنا وأن المراد منه باطنه دون ظاهره وهم لا يختلفون عن غيرهم من الباطنية فى عقيدتهم فهم يستحلون الخمر من حيث القول بقدم العالم وتناسخ الارواح وانكار البعث والنشور والجنة والنار فى غير الحياة الدنيا وبأن الصلوات عبارة عن خمسة أسماء على ، وحسن ، وحسين ومحسن ، وفاطمة فــذكر هــذه الاسماء الخمسة على رأيهم بجزئهم عن الغسل من الجنابة والوضوء وبقية شروط الصلاة وواجباتها والصيام عنــدهم عبارة عن اسم ثلاثــين رجلا واسم ثلاثين امرأة ، يعدونهم فى كتبهم ويدعون ألوهية على بن أبى طالب، فهو عندهم الامام فى السماء والامام فى الارض .

فكانت الحكمة فى ظهور اللاهوت بهذا الناسوت على رأيهم أن يؤنس خلقه ، ولن نطيل كثيرا فى تنــاول تاريخهم ولكننا نكتــفى بالاستناد الى حادث بارز ونعنى به سقوط بغداد فى أيدى التتار وكان معــول الهدم للخلافة العباسية على يد نصير الدين الطوسى الذى لا نستبعد بعد معرفتنا بعقيدته وتصرفاته أن يكون منهم ، فقد ذكر ابن تيمية عن هذا الباطنى انه سبب زوال الخلافة العباسية لانه استغل صفته كوزير للمستعصم وصار يكاتب هولاكو ويطمعه فى ملك بغداد ويطالعــه على أخبارها ويعلمه كيفية أخذها ويخبره بضعف الخليفة وانصراف الجند عنه بينما ينصح المستعصم بتسريح الجنود لاضعاف شوكته متظاهرا بالعمــل على توفير نفقــاتهم وما زال بكيد حتى دخل التتار بغداد فقتلوا من المسلمين ما يقارب بضعة عشر ألف انسان أو أكثر أو أقــل .

---

(٢٨) نفس المصدر ص ١٤ــ١٩ باختصار .

ولو ترجمنا المصطلحات والرموز العقائدية النصيرية لوجدنا بأن الغاية الرئيسية التى ترمى اليها هى أن لكل عمل وكل قول تأولا خاصا لا يعرفه الا المشائخ الذين تعلموه عن الائمة .

ويقول صاحب كتاب (الحركات الباطنية فى الاسلام) مستطردا :

(وهذا التأويل الباطنى هو الذى يفرقهم عن اخوانهم الشيعة لغلو النصيرية فى تأويلاتهم بسبب اسباغ مناقب خاصة وصفات قدسية عالية على الإمام على بن أبى طالب — ع — هذا بالاضافة الى الغموض الشديد الذى يشوب الاصول والاحكام النصيرية مما يحملنا على التروى والحذر والإنتباه الشديد للمعنى المقصود من وراء الرموز والمصطلحات والكرامات والمعجزات التى بنوا عليها عقيدتهم ومصطلحاتهم) .

ويمضى بعد ذلك فيصرح بأنه لا ينكر المعجزات والكرامات التى ملئت بها الكتب النصيرية ولكنه يعترض على استغلالها كبرهان على تأليه الائمة[٢٩] .

ويبدو من كتابه انه متعاطف مع أصحاب هذا المذهب ، محاولا التقريب بينهم وبين الشيعة الاثنى العشرية ، ولكن الحقيقة أن الطائفة الاخيرة لا تعترف بالنصيرية بخاصة والغلاة بعامة بين صفوفهم وتخرجهم من دائرة الاسلام . والسبب فى ذلك واضح لا يحتاج الى دليل ، لان القول بالحلول معناه انكار الالوهية وافساد النبوة والقول بالتناسخ انكار للحياة الاخرى بما يتخللها من حساب وثواب وعقاب فى جنة أو نار والتأويل الفاسد افساد للوحى الالهى .

---

(٢٩) مصطفى غالب : الحركات الباطنية فى الاسلام ص ٢٧٣—٢٧٤ ط دار الكاتب العربى — بدون تاريخ .

وهذا مما دفع أئمة الشيعة الى البراءة منهم ومحاربتهم[٣٠] ثم أصبح نصير الدين الطوسى وزيرا لهولاكوملك التتار بعد دخولهم بغداد .

وأما عن واقعهم المعاصر فنقول : كما كان أجدادهم ركائز للصليبيين والتتار فان طائفة النصيرية الان (وقد سمتهم فرنسا بالعلويين)[٣١] لاخفاء حقيقتهم وخداع المسلمين لايهامهم بأنهم من الشيعة المعتدلة ولكنهم يتعاونون مع الصليبية واليهودية كليهما . وكما وجدت انجلترا فى القاديانية بغيتها كذلك أقامت فرنسا للنصيرية دولة أيام الانتداب فى مطلع هذا القرن ومازالت خططهم قائمة على البطش والارهاب بالمسلمين وعلمائهم واشاعة الفساد والاباحية وتضيق الحياة والتسيب لكى يقع المسلمون فريسة فى أيدي الصهيونية .

تعقيب :

وبعد ، فنكتفى بما قدمنا عن النحل الباطنية فى ضوء الغرض المستهدف من الكتاب ، أى تمييزا بينها وبين عقائد السلف ، وتحذيرا من الوقوع فى أخطاء الحكم على ممثلى الاسلام الحقيقيين فان الله تعالى قد أمر بالعدل فى الاحكام .

والمعلومات لمن يريد المزيد لا حصر لها فى بطون الكتب ، ولكننا لم نفعل أكثر من اختصار مادتها الى الحد الذى يفى بالغرض — أى لاستخلاص ما رأيناه من وحدة الخطط وتشابهها من حيث العقائد الغالية واللجوء الى العنف واثارة الفتن . كل ذلك من أجل النيل من الاسلام فى عقيدته التى

---

(٣٠) السيد عبد الحسين مهدى العسكرى ص ١٤—١٨ ، ص ٢٧ .

(٣١) وقد لزمتهم هذه التسمية وقد ارتاحوا لها لانها تخلصهم مما علق تاريخيا باسم النصيرية من ذم وتشنيع وتكفير ، كما انها تفتح لهم آفاقا أرحب للتقارب مع الشيعة .

حملها السلف بين جوانحهم وعضوا عليها بالنواجذ من جيل الى جيل . كما رأينا أيضا تكرار المحاولات على طول التاريخ بنفس الطريقة والاسلوب مع تغيير القادة والمنفذين ، وكأننا أمام ابن سبأ فى كل عصر ومصر ، اختفى شخصه وبقى دوره ودور أتباعه . اختلفت الاشخاص ولكن الخطة واحدة منذ عهد الله بن سبأ فى اشعال نيران الفتنة وابتداع عقائد باطلة تظل تعمل فى السر والعلن فى دوائر متلاحقة حتى وصلت الى العصر الحديث فى شكل البابية والبهائية وهذا ما أثبته أيضا الاستاذ عبد الرحمن الوكيل اذ علل الحوادث الجارية تباعا الى (السبئية — وجعل الصهيونية مرادفة لها) ، ولم يقصد بطبيعة الحال تلك التى سببت القلاقل والحروب أيام الصحابة رضوان الله عليهم فحسب ، ولكن اعتبرها عنوانا واحدا على كل الخطط الهادمة التى صاحبت تاريخ المسلمين حتى العصر الحاضر حيث بثت العقائد الضالة وهى أمشاج من اليهودية والمجوسية والصليبية[٣٢] .

كذلك فان كل من يطلع على العقائد المنحرفة عن الاسلام وخطط معتنقيها لمحاربة الاسلام والمسلمين ، لا يشك فى روح العداء التى تحركها وتوجهها الى أهدافها التخريبية — مع الاختفاء وراء التشيع ومحبة آل البيت للنفاذ الى قلوب الجماهير وخداعها . وقد أورد الدارمى (٢٨٠هـ) فى كتابه (الرد على الجهمية) نصا هاما فى هذا الصدد على لسان أحد الملاحدة الذى سئل عن سبب تظاهره بالتشيع ، بينما هو فى الواقع ليس كذلك ، فأجاب (اذن أصدقك ، انا ان أظهرنا رأينا الذى نعتقده رمينا بالكفر والزندقة ، وقد وجدنا قوما ينتحلون حب على ويظهرونه ، ثم يعقون بدن شاءوا ، ويقولون ما شاءوا فنسبوا بذلك الى الترفض والتشيع ، فلم نر

(٣٢) عبد الرحمن الوكيل : البهائية تاريخها وعقيدتها وصلتها بالباطنية والصهيونية ص ٣٢ مطبعة السنة المحمدية ١٣٨١هـ — ١٩٦٢م .

لمذهبنا أمرا ألطف من انتحال حب هذا الرجل ثم نقول ما شئنا ، ونعتقد ما شئنا ونقع بمن شئنا فلأن يقال لنا رافضه أو شيعة . أحب الينا من أن يقال زنادقة كفار ، وما على عندنا أحسن حالا من غيره ، ممن نقع بهم)[٣٣].

أضف الى ذلك توقيت الحركات الباطنية كأعمال خيانة للامة الاسلامية فى المواقف الحرجة من تاريخها ، (كحروب الروم مع المسلمين ، وهجوم الصليبيين على ديار الاسلام ، ومؤمرات المجوسية لاستعادة مجدها القديم واندفاع التتر للقضاء على الحضارة الاسلامية)[٣٤] .

كان الخناقون أتباع أبى منصور العجلى والمغيرة بن سعيد يقتلون الناس بالخنق والحجارة لانهم لا يستحلون حمل السلاح حتى يظهر القائم[٣٥] .

والمسلمون أمام أمرين كلاهما مر : اما اتباع هؤلاء الائمة الضالين المضلين جهلا أو خوفا . واما التعرض للفتك بهم وقتلهم واشاعة الذعر فى قلوبهم .

ومما يجدر ذكره أن كتب التاريخ تروى أن المسلمين المستمسكين بعقيدة السلف والسنة أيام الحسن الصباح كانوا يخفون عباداتهم ويؤدونها خلسة خوفا من بطش أعوانه ..

ولا ننسى أيضا كيفية اختيار القادة لهذه النحل الباطلة ، وأقربها الى البهائية فى العصر الحديث شخصية الاحسائى معلم الباب ، حيث

---

(٣٣) كتاب عقائد السلف ص ٣٥١ بتحقيق د. على سامى النشار و د. عمار الطالبى منشاه المعارف بالاسكندرية ١٩٧١م .

(٣٤) د. محسن عبد الحميد : حقيقة البابية والبهائية ص ٤٨ .

(٣٥) ابن حزم : الفصل فى الملل والنحل جـ٤ ص ١٨٥ .

يستند أحد الاراء الى تقارير المستشرقين فيقرر (أن الاحسائى لم يكن أصله من الاحساء ؛ ولا ثبت ذلك تاريخيا ، وانما كان قسا غربيا أرسل من أندونيسيا الى الشرق حسب خطة مرسومة لافساد العقيدة ، وتغيير أحكام الدين)[٣٦] .

وخلاصة القول أن أمثال الباب والبهاء وعباس وغلام أحمد وغيرهم ليسوا الا دجالين حذرنا الرسول ﷺ منهم . فقد روى أبو داود فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال (سيكون فى أمتى ثلاثون كذابون كلهم يزعم انه نبى ، وأنه خاتم الانبياء والمرسلين ، لا نبى بعدى) .

وفى صحيح مسلم عن جابر بن سمرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول (ان بين يدى الساعة كذابين فاحذروهم) .

هذا من جهة أشخاصهم .

أما من جهة الاختفاء وراء أفكار خادعة براقة ، فقد كشف القرآن الكريم عنها بجلاء . ولعل أظهرها زعم طائفة البابية والبهائية انها ترمى الى اخضاع الشرائع السماوية للعقل وحل المشكلات القائمة بين أهل الاديان وانها ترمى الى وحدة العالم الانسانى ونشر السلام العام[٣٧] .

---

(٣٦) د. محسن عبد الحميد : حقيقة البابية والبهائية ص ٤٩ نقلا من (البصرة تستأصل شأفة الشيخية) لمحمد مهدى الخالصى .

كذلك عندما تابع دراسة خطط تلميذ الاحسائى — وهو كاظم الرشتى — الذى سار على طريقة استاذه خلص الى وجود اتصال بين هذه الحركة ومراكز التبشير العالمى ومساندة الاستعمار واليهودية العالمية لها .

انظر الفصول الاتية فى كتاب الدكتور محسن :

مناصرة المستعمرين للبهائية — و — البهائية والانجليز — و — البهائية واليهود .

(٣٧) محمد كرد على : البابية (من كتاب دراسات عن البهائية والبابية) ص ١١٧ ط المكتب الاسلامى ١٣٩٧هـ — ١٩٧٧م .

وهذه دعوى باطلة وهى تردد على ألسنة الكثير من المسلمين مع الاسف ولو عرفوا فهم السلف لايات القرآن فى هذا المعنى لتنبهوا لما يحاط لهم من مؤمرات ، ولعل أيسر سبيل لفهم حقيقة هذه الدعوى ، ان الحق واحد لا يتعدد .

أما ما كان يزعمه عباس أفندى من رغبته فى ازالة الخلافات واشاعة روح المحبة والسلام والوئام فمردود عليه أيضا بأن القارىء للتاريخ يوقن أنه لم تمر فترة فى تاريخ البشرية الطويل بلا نزاع وحروب وصراعات بسبب اختلاف الامم فى عقائدها ومصالحها ، ولولا ذلك لم يقم للحق وأهله قائمة وهذه سنة من سنن الله تعالى اذ قال (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين) ٢٥١ البقرة . وقال عز وجل (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا واينصرن الله منينصره ان الله لقوى عزيز) ٤٠ من سورة الحج .

والمعنى انه لولا أن الله تعالى يسخر للقوى المعتدى من هو أقوى منه لطغى فى الارض وعم شره حتى خرب بيوت العبادة[٣٨] .

---

(٣٨) الشيخ عبد الجليل عيسى : المصحف الميسر ص ٤٣٩ ط دار الشروق ١٣٩١هـ .

الفصـــل الرابـــع

هـــــدف الســـلفية وضـــوابطها

ـــ تمهيـــد :

ـــ التقدم ومعناه فى ضـــوء القيم الاقتصادية المعاصرة :

هل تحققت السعادة فى ظل التقدم ؟

لابد للتقدم من (عقيدة) أو (أيديولوجيا) •

النظرة الشمولية للاسلام •

نهى الشرع عن تقليد الامم الاخـــرى •

ـــ الزمن كمقياس للتقـــدم •

ـــ التقدم فى الاســـــلام •

تمهيـــد :

ان السؤال الذى نطرحه بين يدى الفصل الرابع والاخير من الكتاب هـــو :

كيف نعلل هذه الظاهرة المحيرة ؟

نحن أمام عقيدة دينية — أو أيديولوجيـة[1] كاملة بلغـة الفلســفة المعاصرة ، نابضة بالحياة ، وكانت سببا فى اقامـة حضـارة عظمى احتلت مكانتها المؤثرة فى تاريخ العالم لعدة قرون ، وما زالت مع ضمورها فى قلوب معتنقيها ترهب العالم وتجعله خائفا يترقب ؟..

كيف ضمرت هذه العقيدة فى نفوس أصحابها فانعكست على أعمـالها ونظمها وأضعفت من قدرتها فى الاسهام فى واقع العالم المعـاصر الاليم ، وكيف أصبحت فى الصــفوف الخلفية ويشار اليها بأنها من الدول المتخلفة واذا روعيت آداب اللياقة فى الوصف اعتبرت نامية ؟.

واذا أنصتنا الى أحد معللى انحسار الحضـارات وجـدناه يرى أن العالم كله قد تغرب ، ولا توجد أمة جديرة بقيادة الحضارة من جديد لانقاذ العالم مما ينتظره من كوارث .

فهل هـذا صحيح ؟

هل ماتت حضارة الاسلام ؟ أم أنها مجرد حضارة نائمة ولابد للنائم من أن يستيقظ يوما ؟.

---

(١) لعل افضل تعريف لهذا المصطلح ما اورده الاستاذ الدكتور فؤاد زكريا بقوله انها : (مجموعة الافكار الاساسية التى تشكل نظرة المجتمع الى نفســه والى العالم او الموقف الاساسى الذى يعبر به المجتمع عن اتجاهاته فى الحاضر وامانيه فى المستقبل) ص ٥٧ من كتابه : العرب والنموذج الامريكى ط دار الفكر المعاصر بالقاهرة — مايو سنة ١٩٨٠م .

كذلك كثيرا ما نواجه بالسؤال الاتى :

الى متى سنظل نتغنى بأمجاد الاجداد والاباء ؟ ألم يحن الوقت بعد للحياة فى العصر ؟ اننا نعيش فى القرن العشرين ، وينبغى التطور مع مفاهيمه وأساليبه فى الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية أفرادا وشعوبا ..

ومثل هذا التساؤل يفتح بابا واسعا للبحث فى موضوعات ذات صبغة حضارية عامة . انه ليس مجرد سؤال قد يعن لبعضنا أو أغلبنا ثم نطويه بين صدورنا ونمضى غير مبالين ، بل ان له مغزى خاص لانه يعبر عن انعكاس أثر الثقافة العصرية السائدة ، ولا يستطيع المسلمون تجاهل الاجابة عليه لانه يمس طريقتهم فى الحياة وألوان عقائدهم ومثلهم وقيمهم ونظمهم ، فقد أصبح العالم صغيرا يؤثر فى بعضه البعض ، وتنتقل المؤثرات بوسائل الاعلام والمواصلات والاسفار والهجرات من بلد الى آخر فى أقل وقت عرفته المجتمعات الانسانية من قبل .

السؤال اذن يزداد الحاحا فى عصر تقريب المسافات وتشابك المصالح بين أقطار الارض حيث تتبادل العلاقات عن طريق الثقافات والمصالح الاقتصادية والسياسية وبسبب المقدرات العلمية التقنية لاوروبا وأمريكا وأطماع الشعوب الغربية فى أراضى الشرق الاسلامى وخيراته واستغلال شعوبه ، بسبب كل هذا أصبحت مؤثرات المفاهيم الغربية فى الفكر والسلوك ذات نفوذ كبير على الشعوب وتؤثر فى أعماق نفوسها كوسيلة من وسائل الحرب النفسية حتى تفقد هذه الشعوب مقوماتها الشخصية وتفقد احساسها بكيانها وحضارتها وتاريخها . والحق ان هذا الشعور بالتميز الذاتى يعد ضرورة ملحة فى الاونة الحاضرة حتى لا تذوب الامة فى كيان غيرها ومن ثم تفقد القدرة على المقاومة وتنقاد طائعة لما يراد لها .

ونرى أولا أنه لا ينبغى أن تخدعنا العبارات الطنانة والاصطلاحات الرنانة كالفكر الحر والعقلانية والتقدم والحرية التى يقصد بها النيل من السلف ومنهجهم ، حيث أثبتنا فيما تقدم من هذا الكتاب أن السلف يحترمون أحكام العقل خضوعا لاوامر القرآن والحديث وانهم استنادا الى الادلة العقلية سواء فى التفسير والفهم أو فى الرد على مخالفيهم ، وكان هذا المنهج كفيلا بلفظ كل المذاهب والنحل المنشقة عن طريقة الرعيل الاول

ونتوقع بعد هذا ، بل نتطلع الى اجتذاب النافرين من الموقف السلفى تحت التأثيرات المختلفة ، اما لعدم الاطلاع على مؤلفاتهم أو الخضوع لتأثير فلسفة العصر وأفكاره واستخدام معاييره واصطلاحاته فى الحكم على عقيدة وقيم وحضارة لها ذاتيتها الخاصة وطابعها المميز •

وهى بلاشك تختلف — بل تتفوق على حضارة العصر الحالية •

فلنستخدم اذن هذه الضوابط والمعايير — وهى مستمدة من المنهج السلفى — فى الولوج الى حضارة العصر غير هيابين ولا وجلين من (عقدة النقص) ازاءها ، وسنتكلم فى هذا الفصل عن هدف السلفية وضوابطها من خلال مناقشة حقيقة (التقدم) سواء بلغة الاقتصاديين المعاصرين ، أو المرتبط بالزمن عند آخرين •

وبعد ذلك نختم حديثنا بتوضيح التقدم فى الاسلام :

هـدف السلفية وضوابطها

ان الضوابط والمقاييس الثابتة التى تحددها السلفية كفيلة بتخريج طلائع أفذاذ لقيادة الحضارة الاسلاميه من جديد كلما خفت ضوؤها ، وهم يشكلون باجتهاداتهم سلسلة متصلة من الجهـود المبذولة المحـافظة على طريقة الاتباع — لا التقليد — ومقوماتها الراسخة الجامعة بين اخـلاص التوحيد لله تعالى وحده ، والايمان بالوحى طريقا لمعرفة عالم الغيب ، مـع استسلام الانسان فى شئون حياته لمـا أمر به الله بواسطة خاتم الرسـل والانبياء وتحرير العقول من الوثنيات واصر الشرك لتتفرغ فيما يعود على الانسان بالنفع فى ميادين المعارف والعلوم ووسيلتها النظر والتجربة مـع ثبات الفضائل الاخلاقية والاداب الانسانية .

وهنا تظهر لنا ضوابط السلفية فى نصوص كثيرة سنختار منها ما يشرح معنى (الصراط المستقيم) لاننا نلاحظ فى التصور الاسلامى أن أصـوله وقواعده محددة وفق هذا الصراط المستقيم ، وهو المانع من التـذبذب أو الارتداد أو الدوران فى حلقات مفرغة قد توحى بها أشكال أخرى غير الخط المستقيم ، كالخطوط المتعرجة أو أشكال الدوائر والمنحنيات مثلا ، اذا جاز لنا التشبيه بالاشكال الهندسية للتوضيح والبيان .

قال تعالى (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعـوا السـبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) سورة الانعام ١٥٠ .

وفى شرح معنى هذه الاية ، نستدل بالحـديث : عن جابر قال : كنا جلوسا عند النبى ﷺ فخط خطا هكذا أمامـه . فقال (هـذا سبيل الله) ، وخطين عن يمينه وخطين عن شماله وقال (هذه سبل الشيطان) ثم وضـع يده فى الخط الاوسط ثم تلا هذه الاية [٢] .

---

(٢) ابن كثير — تفسير القرآن العظيم جـ٢ ص ١٩٠ ط دار الفكر .

وفى حديث آخر ، سأل رجل ابن مسعود رضى الله عنه ، ما الصراط المستقيم ؟ قال : تركنا محمد ﷺ فى أدناه وطرفه فى الجنة وعن يمينه جواد وعن يساره جواد ، ثم رجال يدعون من مر بهم ، فمن أخذ فى تلك الجواد انتهت به الى النار ، ومن أخذ على الصراط انتهى به الى الجنة . ثم قرأ ابن مسعود (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله)[٣] .

وبعد أن عرفنا هذا الصراط ، فقد أصبح لزاما علينا أن نعرف السائرين على هداه ، وهذا ما أخبرنا به الرسول ﷺ ، فعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى ، الا كان لهمن أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم انها تخلف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون ويفعلون مالا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل) رواه مسلم .

فاذا أضفنا اليه حديثا آخر أمر فيه الرسول ﷺ باتباع سنته ، وسنة الخلفاء الراشدين ، ازداد الامر وضوحا .

قال العرباض بن سارية : صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب ، فقال قائل : يا رسول الله ، كأن هذه موعظة مودع ، فماذا تعهد الينا ؟ فقال (أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة ، وان عبدا حبشيا فانه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا

---

(٣) نفس المصدر ص ١٩١ .

بها وعضوا عليها بالنواجذ واياكم ومحدثات الامور ، فان كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة) رواه أبو داود .

وابقاء على هذا العهد نستطيع أن نتحقق تاريخيا — وفى العصر الحاضر أيضا — من الدور الذى أداه السلف ، فيتأكد لدينا موضوعية المنهج وتعلقه بمعايير وضوابط لا بعصور وأزمنة ، فمن الثابت تاريخيا :

وقوف السلف فى وجه الفرق المنشقة كالخوارج والشيعة والقدرية والجهمية وغيرها كما رأينا .

شجب الاتجاه العقلى المنحرف عن السلف كالمعتزلة والفلاسفة ، وحتى أصحاب المواقف الوسط كالاشاعرة ، وهذا ما تعبر عنه مواقف الفقهاء وعلماء الحديث أمثال ابن حنبل والدارمى والشافعى ومالك .

وظهر أيضا كأوضح ما يكون فى مؤلفات ابن تيمية وابن القيم حيث أحاطا بعلوم وثقافة عصرهما — فى القرنين السابع والثامن الهجرى — ووقفا بثبات ضد كل الاتجاهات التى استفحل خطرها فى دوائر علم الكلام والفلسفة والتصوف والتشيع .

ظهرت ملامح متعددة للاتجاه السلفى فى العصر الحديث وان بدت فى جهود متفرقة لعلماء فى شتى أنحاء العالم الاسلامى لا تجمعهم وحدة المكان والامثلة على ذلك : اظهار التوحيد بواسطة الامام محمد بن عبد الوهاب وتبعه آخرون فى الجزيرة العربية ومصر والشام والعراق والمغرب والقارة الهندية .

وكان دور السلفيين ظاهرا فى هذا الدور للمحافظة على نقاء التوحيد الاسلامى فى العقيدة والعبادة ، ثم الجهاد للتخلص من نير الاستعمار الغربى الصليبى .

وعندما ظهرت مشـكلات جـديدة بسبب ازدياد حمـلات الغـزو الاستعمارى وفتح منافذ جديدة للتسلل منها الى عقيدة الاسـلام ، كانت السلفية بارزة المعالم فى عدة مواقف ، نذكر منها :

معارضة دعوى التجديد وتطوير المفاهيم الدينية خضوعا للنظريات العلمية المعاصرة •

نقد الفلسفة الحديثة الغربية والمعاصرة وشجبها بمنطـق القـرآن الكريم وعدم الخضوع لتصوراتها التى أخـذت فى الزحـف على العـالم الاسلامى وأحدثت ثغرات فى الجبهة الاسلامية مستهدفة النيل من أصالة العقيدة الاسلامية ووحدتها وشمولها ؛ متبعـة فى ذلك شتى الاسـاليب كالفصل بين الدين والدولة أو العلمانية ، والنيل من السنة واحلال القوانين الوضعية بدل الشريعة الاسلامية • وكلها حيل جديدة منبثقة مما مر بحضارة الغرب وتاريخه وفلسفاته ، وما أصاب مجتمعاته من تغييرات اقتصـادية وسياسية تخصه وحـده •

وما دام الامر كذلك ، فان مما يستوقفنا ملاحظة طرق وأساليب أعداء الاسلام ، اذ تتجمع كلها ــ بالرغم من تعداد وسائلها ــ للنيل من الاسلام عامة ، ومن الطريقة السلفية خاصة ، ثقافيا واجتماعيا وسـياسيا • ففى المجال الثقافى والتعليمى ، كان من دأب المستشرقين وما زال تعظيم الفرق المنشقة من الجماعة أمثال الخوارج والشيعة ، واثارة الافـكار المخالفـة للسلفية كالمعتزلة والجبرية والقدرية ، وغيرها من المذاهب الكلامية والافكار الفلسفية مع تعظيم أصحابها وترويج أفكارهم ، مع النيل من شيوخ السلف وعلمائهم • أضف الى ذلك فرض دراسة الفلسفات الغربية قديمها وحديثها بكافة مذاهبها وأصحابها •

وفى المجال الاجتماعى توسيع دائرة التصوف وتشجيع الفرق الصوفية

وتحبيذ نشر البدع باسم الاسلام ، أو تكوين ما يسمى فرق الانشاد الدينى بصورة مشابهة للنصرانية كالموالد وبناء مساجد جديدة على الاضرحة ، والهاب مشاعر الجماهير العاطفية عن طريق التفسير الصوفى للدين ، واخفاء منهج السلف فى فهم الاسلام وتطبيقه .

وسياسيا . دأب الاستعمار الغربى على تشجيع الفرق المنشقة عن أهل السنة والجماعة كما أسلفنا ، مع ابتداع أساليب جديدة كالبابية والبهائية والقاديانية ، ومدها بالعون المادى ، وتمكين أتباعها من الوصول الى مراكز التأثير . الى جانب اذاعة آراءها والترويج لها تحت ستار الاسلام، مع الاعتماد أيضا على الفرق التى ما زالت تتوارث عقائدها الباطلة المنحرفة عن الاسلام منذ ظهورها فى المجتمعات الاسلامية كالباطنية الاسماعيلية والنصيرية والدروز .

واذا كان خصوم السلفية ينفرون منها بدعوى منافاتها للتقدم ، فما التقدم ؟

أصبح لفظ (التقدم) هو الشائع الان وأخذت الغالبية تخضع للتفسير الذى يميل الى وصف كل ما هو حديث ومعاصر بالتقدم ، وامتدت هذه النزعة الى الاعمال الأدبية والفنية حتى الكتابات الصحفية اليومية وامتد نفوذ الفكرة ليشمل كل شىء ، فلم يميز بين التقدم فى دوائر العلوم التجريبية وغيرها من ألوان الانشطة الانسانية .

ولبيان خطأ الفكرة بالرغم من ذيوعها وانتشارها ، فاننا سنناقشها وفقا للترتيب التالى :

ان الفكرة مرتبطة بالمراحل التاريخية التى مر بها الغرب ، اذ انتقل فى تطوره المادى من العصور القديمة الى الوسطى فالحديثة والمعاصرة ،

وفى ضوء هذا التقسيم واقتران كل مرحلة بظروفها ، أصبح الغربى عندما ينظر الى تاريخه ، يفزعه المدلول السلفى لان مضمونه التاريخى والحضارى يلقى فى قلبه الرعب . فالسلفية فى نظر الانسان هناك عموما — وقد عرفنا تفصيل ذلك فيما تقدم — تعوقه عن التقدم المادى فى الصناعة والزراعة وحقول العلوم والمعارف المختلفة التى انفجرت على أثر الثورة الصناعية ، واستخدام المنهج التجريبى فى العلوم ، بدلا من المنهج الصورى اليونانى، وهو من نتائج سلف الحضارة المعاصرة وكان منطقا عقيما لم يتقدم بالعلم خطوة واحدة ; كما تحرمه السلفية هناك من العلمانية التى فصلت بين الدين والدولة سياسيا واجتماعيا طبقا للشعار (دع ما لله لله ودع ما لقيصر لقيصر) .

وفى الميدان العلمى ، انطلق العلماء يبتدعون سعيا وراء الحقائق التى تقدمها التجارب والاكتشافات العلمية ، فيأتى العلم كل يوم بالجديد المذهل، بعد أن فك عن نفسه قيود تفسير رجال الكنيسة . ولان السلفية عنده كانت مضادة للفكر الفلسفى الذى أراد التحرر من علم اللاهوت وحاول حل مشكلة التعارض بين الايمان والعقل فى الدين المسيحى .

والسلفية بعد كل ذلك بالمضمون الغربى تعيد الى الاذهان الصور المظلمة المقترنة بالظلم الاجتماعى والسيطرة السياسية فى عصور طغيان الملوك والامراء ورجال الاقطاع فى القرون الوسطى .

ولكن نتوقف لنتساءل : ماذا نريد بقولنا : التقدم ؟ التقدم على ماذا ؟ أو على من ؟ أو بالنسبة لماذا ؟ أو لمن يكون التأخر أو التقدم[٤] .

ويجيب على هذا السؤال أحد المؤرخين الذين فسروا الحضارة

---

(٤) دكتور حسين مؤنس — الحضارة صفحة ١٤٩ .

بالتغير وليس بالتقدم : فان المجتمعات تتغير والتغير قد يكون تخلفا أو تقدما من نموذج ومثل أعلى ذلك لان فى كيان الانسان مقومات ثابتة كالروح والغرائز والميول وحاجته الى المسكن والطعام والشراب والنوم والتناسل، ولكن التغير يصيب وسائله للوصول الى اشباع حاجاته . قد يتقدم فى استخدام وسائل أرقى ، ولكنه يستخدمها فى الحروب وميادين القتال والسطو والسرقة .

ولكن هل خفف الانسان من أنانيته وأحقاده وظلمه وتعطشه لسفك الدماء وفرض سيطرته على الضعفاء ؟ أما زالت الحروب المستهدفة لاذلال الشعوب واستغلالها ونهب ثرواتها مستمرة فى القرن العشرين الميلادى ؟ ألم تعجز الشعوب الصغيرة والضعيفة — التى كانت مستعمرة بالامس — أن تجد لها مكانا فى عالم الاقوياء من الدول الكبرى ؟ وفى ضوء ذلك كله ، هل التقدم حقيقى أم مجرد وهم وخيال ؟

يجيبنا على هذا التساؤل هارى ألمر بارنز بقوله :

(وعامة المؤرخين اليوم على أن ما يسمى بالتقدم أو مسيرة التاريخ والحضارة الى الامام أو الى الاحسن انما هو وهم ، لان غرائز الانسان وأخلاقياته المركبة فى طبعه باقية كما هى ، بل زادت حدة وضراوة ، ولا زال الوحش راقدا تحت جلد الانسان المتحضر ، بل ان لفظ (الوحش) فيه تجمل فى وصف خلفية الانسان المتحضر اليوم . فان الوحش يهاجم ليأكل أو ليدافع عن نفسه ، وفيما عدا ذلك فهو ساكن أو وسنان ، أما الانسان فيدبر لابادة الالوف أو الملايين وهو راقد فى فراش وثير فى غرفة مكيفة الهواء تضم آخر مبتكرات التقدم المادى . فأيهما الوحش ؟

ان الانسان اليوم مخلوق ضعيف العقل فى يده قنبلة يمكن أن يحطم

بها نفسه وغيره ، وهذا هو وضع الانسان القائد للحضارة والسياسة اليوم[٥] ٠

وازاء كل مانراه ماثلا للعيان ، فان البعض ومنهم المسلمين يميل إلى الاخذ بالتفسير التاريخي القائل بأن التاريخ في سيره يأخذ اتجاها منحدرا[٦] مستندين فى ذلك إلى أن العصر الذهبى للإنسانية تحقق فى عصر النبوة ثم الصحابة والتابعين ، وبعد القرون الثلاثة المفضلة أخذت مراحل الانحدار تزداد كلما افترق المسلمون شيعا وأحزابا مبتعدين عن تلقى الإسلام حسبما فهمه السلف وطبقوه عقيدة وشريعة وأخلاقا .

ويتضح من حديث نبوى أن الرسول ﷺ قد أمر فى هذه الاحوال بالصبر على الشدائد والمحن متنبئا بأنها ستزداد على مر الاعصر :

عن الزبير بن عدى قال : أتينا أنس بن مالك رضى الله عنه فشكونا اليه ما نلقى من الحجاج فقال . اصبروا فانه لا يأتى زمان الا والذى بعده شر منه حتى تلقوا ربكم ٠ سمعته من نبيكم ﷺ ٠ (رواه البخارى)

وربما نقع أحيانا تحت تأثير الاخذ بهذا التفسير — أى اتجاه الانحدار — لا سيما عند مراقبتنا لاحوالنا الحاضرة معشر المسلمين ٠ ولكن الحقيقة أن هذه النظرة تعبر عن طرف واحد للقضية وتتطلب نظرة أخرى من الطرف المقابل للتوفيق بين الحديث الانف الذكر والاحاديث النبوية الاخرى المبشرة بانتشار الاسلام وعودته للظهور ظافرا مقتحما كل العقبات من جديد ٠

---

(٥) هارى المر بارنز فى كتابه المسمى (النظم او المؤسسات الاجتماعية) نقلا عن كتاب الحضارة للدكتور حسين مؤنس ص ٣٥٩—٣٦٠ ٠

(٦) وظهر كتاب بهذا العنوان لمؤلفه ف. نيل

والاحاديث المبشرة كثيرة منها :

(لا تزال طائفــة من أمتى على الحــق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك)[٧] . ويروى الامام أحمد عن تميم رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول (ليبلغن هذا الامر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك بيت مدرولا وبر الا أدخله هذا الدين يعز عــزيزا ويذل ذليلا ، عزا يعز الله به الاسلام ، وذلا يذل الله به الكفر) فكان تميم الدارى يقول : قد عرفت ذلك فى أهل بيتى ، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز ، ولقد أصاب من كان كافرا منهم الذل والصغار والجزية[٨].

وفى تفسير قول الله تعالى (هو الذى أرســل رسوله بالهــدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) سورة براءة آية ٣٣ ، يقول ابن كثير (أى على سائر الاديان ، كما ثبت فى الصحيح ، عن رسول الله ﷺ انه قال : ان الله زوى — أى جمع — لى الارض مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها)[٩] .

ويستند ابن كثير أيضا فى شرح الاية الى مسند الامام أحمد بن حنبل حيث روى بسنده عن أبى حذيفة عن عدى بن حاتم سمعه يقــول : دخلت على رسول الله ﷺ فقال : يا عدى ، أسلم تســلم ، فقلت : انى من أهــل دين ، قال :أنا أعلم بدينك منك . فقلت : أنت أعلم بدينى منى ؟ قال : نعم، ألست من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك ؟ قلت : بلى . قال : فان هذا

---

(٧) الحديث بروايات متعددة والفاظ مختلفة فى البخارى ومسلم وابى داود والترمذى .

(٨) تفسير ابن كثير جـ٤ ص ٧٨ ط دار الشعب .

(٩) المصدر السابق — والحديث رواه مسلم ، كتاب الفتن باب (هلاك هذه الامة بعضهم ببعض).

لا يحل لك فى دينك . قال : فلم يعد ان قالها فتواضعت لها ، قال : اما انى أعلم ما الذى بمنعك من الاسلام ، تقول : انما اتبعه ضعفة النـــاس ومن لا قوة له ـــ وقد رمتهم العرب ، أتعرف الحيرة ؟ قال : لم أرها ، وقد سمعت بها ، قال : فوالذى نفسى بيده ليتمن هـــذا الامر حتى تخـــرج الظعينة من الحيرة ، حتى تطوف بالبيت فى غير جوار أحد ، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز ـــ قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : نعم ، كسرى بن هرمز وليبذلن المال حتى لا يقبله احد ـــ قال عدى بن حاتم : فهذه الظعينة تخرج من الحيرة ، فتطوف بالبيت فى غير جواز أحد ، ولقد كنت فيمن فتح كنـــوز كسرى بن هرمز ، والذى نفسى بيده لتكونن الثالثة . لان رسول الله ﷺ قد قالها[10].

ونعود الى الحديث الذى بدأنا به ، والذى قد يشعر بقرب الساعـــة مما يوجب على من يأخذ به الفرار بدينـــه من الفتن والاعتزال فى شـــعاب الجبال . والحق انه كما يرى الاستاذ الدكتور محمد رشاد ســـالم ـــ أن اعتزال الدنيا والناس هو نوع من الهروب من تحمـــل الامانة والمسئولية ، وهو أيسر من مخالطة الناس والصـــبر على أذاهم ، ومن جهـــاد الكفار والمنافقين والعصاة الفاسقين) وقد يؤدى الى اليأس والقنوط ، وقد نهانا الله تعالى نهيا شديدا عن ذلك بقوله سبحانه وتعالى (ومن يقنط من رحمـــة ربه الا الضالون) الحجر ٥٦ وقوله عز وجل (ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون) يوسف ٨٧[11] .

كذلك يتضح لنا من مناسبة ذكر الحديث وملابســـاته أن المقصـــود باشتداد الزمن شدة المحن والابتلاءات للامة الاسلامية على مدار تاريخها

---

(١٠) المصـــدر السابق ص ٧٩ .

(١١) د. رشاد سالم ـــ المدخل الى الثقافة الاســـلامية دار القلم الكويت ١٣٩٧هـ ـــ ١٩٧٧م .

الطويل حيث يذكر المناسبة ، فيروى عمن ذهب الى أنس بن مالك للشكوى من الحجاج فقال (اصبروا فانه لا يأتى عليكم عام أو زمان أو يوم الا والذى بعده شر منه حتى تلقوا ربكم عز وجل ، سمعته من نبيكم ﷺ • وهذا رواه البخارى (لا يأتي عليكم زمان الا والذي بعده شر منه) الحديث[١٢] وهذا ما نستخلصه مما رواه ابن كثير فى تاريخه حيث أورد حديثا آخر متضمناً المعنى نفسه ، قال

وروى فى الحديث (كل يوم ترذلون نسما خبيثا) فيحتمل هذا انه وقع للامام أحمد مرفوعا ومثل أحمد لا يقول هذا الا عن أصل • وقد روى عن الحسن مثل ذلك ، والله أعلم •

ثم يعلق بعد ذلك بقوله مفسرا للحديث فى ضوء الاحداث التاريخية التى عاصرها (فدل على أنه له أصلا ، اما مرفوعا واما من كلام السلف ، لم يزل يتناوله الناس قرنا بعد قرن ، وجيلا بعد جيل ، حتى وصل الى هذه الازمان ، وهو موجود فى كل يوم ، بل فى كل ساعة تفوح رائحته ولا سيما من بعد فتنة تمرلنك ، والى الان نجد الرذالة فى كل شىء ، وهذا ظاهر لمن تأمله ، والله سبحانه وتعالى أعلم)[١٣] •

والذى يستوقفنا بعد هذه الرواية التى ذكرها ابن كثير فى تاريخه أن الامام الحسن البصرى قد سئل هذا السؤال (انك تقول الاخر شر من الاول ؛ وهذا عمر بن عبد العزيز بعد الحجاج) فقال الحسن : لابد للناس من تنفيسات)[١٤] ••

---

(١٢) البداية والنهاية جـ٩ ص ١٣٤—١٣٥ •

(١٣) ابن كثير — البداية والنهاية جـ٩ ص ١٣٤—١٣٥ •

(١٤) ابن كثير : البداية والنهاية جـ٩ ص ١٣٤—١٣٥ •

اما اشارة ابن كثير الى الطاغية (تمرلنك) فيحسن بنا شرحها للقارىء حيث أورد السيوطى بعض افعاله ، قال (وفى هذه السنة — ٧٧٣هـ — كان ابتداء

وفى ضـــوء هــذا الرأى ، يصبح الاصــل أن تمضى المحن وصـــور الابتلاءات قدما فى شدتها وقوتها . وتأتى فترات (التنفيسات) على حــد قوله ، استثناء على فترات مؤقتة — والله أعلم .

وعلى أية حال فان أقرب التفسيرات التاريخيه لحضــارة المســلمين يستند الى ملاحظة أن انتصار المسلمين وعــزتهم كانت فى كل مرة بعــد الاستمساك بتعاليم الكتاب والسنة — وفقا لمنهج السلف — والعكس ، ان هزائمهم والكوارث التى حلت بهم ، كانت جــزاء وفاقا لمخــالفتهم لتعاليم الاســــلام .

والنظرة المعاصرة لمــا يدور فى العصر الحاضر من ابتلاءات للامــة الاسلامية ترجح امتداد التفسير بالمد والجزر وصــاحب هــذا التفسير العلامة الشيخ أبو الحسن الندوى ، حيث يحلل النكبات التى حلت بالعالم الاسلامى من زاوية الرسالة المناطة بهذه الامة لانها حاملة لواء الاسلام — أى رسالة الله تعالى الاخيرة .

ومن هنا يحدد النكبات الحادثة للامة وما يعوضها ، فعندما حــدثت كارثة خسارة الاندلس الاسلامية عوضها الله تعــالى بدولة آل عثمان فى تركيا قامت فى نفس القارة الاوربية ! وعلى أثر نكبة بغداد بغارة التتار ، اتسعت الدولة المسلمة فى الهند وأخذت فى الازدهار .

وبنفس القدر من النكبات ، خسرت الدول العربية فلسطين العربية

خروج الطاغية تمرلنك الذى خرب البلاد وأباد العباد — واستمر يعثو فى الارض بالفساد الى ان هلك لعنه الله فى سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة ، وكان اصــله من ابناء الفلاحين ونشأ يسرق ويقطع الطريق ، ثم انضم الى خدمة صاحب خيل السلطان ثم قرر مدنه بعد موته . وما زال يترقى الى ان وصل الى ما وصل .

السيوطى : تاريخ الخلفاء — تحقيق محمد محيى عبد الحميد . المكتبة التجارية الكبرى ١٣٨٩هـ — ١٩٦٩م .

الاسلامية ولكن عوضها الله تعالى بدولتين فتيتين احداهما دولة باكستان والاخرى أندونسيا .

ويعلل الشيخ الندوى تأرجح التاريخ الاسلامى بين الاسفل والاعلى بأن الاسلام رسالة الله الاخيرة والمسلمون هم الامة الاخيرة (فاذا ضاعوا فقد ضاعت الرسالة ، واذا هلكوا فقد غرقت السفينة التى تحمل الذخيرة)[15] .

ويشترك فى هذا التفسير التاريخى أحد المؤرخين الغربيين بحيث يتفق مع غيره فى التنبؤ ببزوغ شمس حضارة الاسلام من جديد بناء على دراسة مقارنة لحدثين بارزين فى تاريخ الاسلام :

الاول : فى عهد الخلفاء الراشدين بعد رسول الله ﷺ ، حرر الاسلام سورية ومصر من السيطرة اليونانية التى أثقلت كاهلها مدة ألف عام تقريبا .

الثانى : وفى عهد نور الدين وصلاح الدين والمماليك ، احتفظ الاسلام بقلعته أمام هجمات الصليبيين والمغول .

وبناء على استقراء توينبى لما كان فى هاتين المناسبتين يتنبأ بظهور شمس الاسلام مرة أخرى اذا (سبب الوضع الدولى الان حربا عنصرية ، يمكن للاسلام أن يتحرك ليلعب دوره التاريخى مرة أخرى)[16] .

---

(١٥) الندوى : الانسان الكامل كما يراه محمد اقبال مجلة البعث الاسلامى — لكهنؤ — الهند محرم ١٣٩٧هـ — يناير سنة ١٩٧٧م .

(١٦) ارنولد توينبى " الاسلام .. والغرب .. والمستقبل ص ٧٣ تعريف د. نبيل صبحى ط دار العروبة بيروت ١٣٩٩هـ — ١٩٦٩م .

« التقدم » فى ضوء القيم الاقتصادية المعاصرة

معناه وتاريخ ظهوره :

أصبح (التقدم) باصطلاح الاقتصاد من أكثر الكلمات شيوعا في العصر الحاضر ، ويقترن عادة بخطط التنمية وزيادة الدخول وتحقيق المزيد من الرفاهية فى البلاد الغنية أو الانتقال من (التخلف) الى مستوى الدول الغنية أو (المتقدمة) .

وأصبح للكلمة تأثيرها العميق فى تصوراتنا وسيطرت على الأذهان ان حقا وان باطلا — فكرة ان الغنى والفقر مترادفان للتقدم والتأخر .

يقول الدكتور جلال أمين (.. وهكذا نجد أنه منذ آدم سميث ، أخذ الاعتقاد بأهمية زيادة الثروة والدخل يزداد قوة مع الزمن ، وكلما زادت قدرة الدولة علي الانتاج وارتفع مستوى الاستهلاك وبدأ الاستهلاك العالى يمتد الى الطبقات الدنيا ، أمعن هذا الاعتقاد فى الرسوخ حتى وصلنا الى حد اعتبار أن الدولة (المتقدمة) هى الدولة صاحبة الدخل الاعلى ، أيا كانت درجة انحطاط قيمها وأخلاقياتها ، والدولة (المتخلفة) هى صاحبة الدخل المنخفض)[١٧] .

ويعد هذا التصور انعكاسا لصورة التقدم فى الحضارة الغربية حيث تنحصر الامال فى السعى لمزيد من الثروات وتحقيق المتع الحسية والملذات

---

(١٧) د. جلال امين : تنمية ام تبعية اقتصادية وثقافية ص ٥٥ مطبوعات القاهرة ١٩٨٣م .

وهو كتاب فريد فى منهجه حيث تجاوز حديث الارقام الى فلسفة الاقتصاد ، واعطى القضايا الاقتصادية بعدها الاجتماعى والانسانى محذرا من اساليب الغزو الحضارى والتبعية الفكرية ، ومنبها الى مكانة القيم والاخلاق فى التصور الصحيح للحضارة .

الجسدية بالاكثار من الامـوال والقناطير المقنطـرة من الذهب والفضـة والسيارات والاجهزة والالات التى تحقق المزيد من الراحة والتقليـل من الجهد .

وهكذا يصبح الالحاح على القيم الاقتصادية بمدلولاتها الغربية فى معنى (التقدم) وكأنه الغاية الكبرى لامتنا حيث أدخل فى روعنا سهـولة التحول الى مصاف الدول المتحضرة بمجرد تحقيق معـدلات النمـو التى يحققها الغرب .

وعلى هدى التفسير التاريخى لتطورات أهداف الحضارة الغربية فى مراحلها المتتابعة ، فان الدارس المتخصص يلحـظ أن التفسـير بالعـامل الاقتصادى وحده دون غيره من العوامل يرجع الى مدة قصيرة لا تزيد عن قرنين من الزمان . وقبل ذلك ساد تاريخ البشرية عوامل أخرى مثل النزعة الدينية حيث كان الهدف الاسمى ارضاء الله تعالى .

ثم تحول الهدف فى عصر النهضة الاوروبية الى تحقيق الفرد لـكافة قدراته وملكاته ، وفى عصر التجاريين — خلال القـرنين السـادس عشر والسابع عشر — كان التفوق الاقتصادى وسيلة لتحقيق قوة الدولة . وفى القرن الثامن عشر كان أسمى الشعارات هو شعار الحرية .

أما التحول الحقيقى فقد اقترن بقيام الثورة الصناعيـة فى انجلترا أولا ثم فى غيرها فى الربع الاخير من القرن الثامن عشر .

ويمضى الدكتور جلال أمين صاحب الرأى آنفا فيعتبر كتاب (ثروة الامم لادم سميث (١٧٧٦م) ليس مجرد كتاب اقتصادى عادى ، وانمـا

علامة من علامات العصر ، فيه بدأ شيوع فكرة أن رفاهية الامم تقاس بما تنتجه وتستهلكه من سلع وخدمات(١٨) .

هذه هى مراحل التطورات الاقتصادية فى تاريخ أوروبا ويعكس لونا من ألوان حيرة الانسان حيث تنقصه النظرة الثابتة التى توجهه الى الغايات والاهداف الصحيحة التى افتقدتها الحضارة الغربية فى بعدها عن ثبات الدين بقيمه وأهدافه ، كذلك أصبحت العادة هدفا عسير المنال كما سنرى .

---

(١٨) د. جلال امين — تيمية ام تبعية اقتصادية وثقافية ص ٥٤ .

ويعود ذيوع المصطلح — فى راى الدكتور جلال امين — الى النفوذ الواسع الذى اصبح الاقتصاديون يتمتعون به فى عصرنا حيث امتد الى المراكز المؤثرة فى المجتمع فأصبح عدد الوزارات التى يتولاها الاقتصاديون يتزايد مع الزمن ، واهتمت الصحف بتخصيص صفحات ثابتة لمشاكل الاقتصاد والمال ، وأصبحت العلاقات الاقتصادية هى الموضوع الرئيسى لاهتمام رجال السفارات ، بل مما يدعو للدهشة ايضا امتداد سطوتهم الى رؤساء الدول فأصبحوا يقيسون نجاحهم وفشلهم بمدى قدرتهم على رفع معدل نمو الناتج القومى أو تحقيق فائض فى ميزان المدفوعات .

وفى ضوء هذا التحليل يصبح من الخطأ ان ننسب الى الماركسيين وحدهم التأكيد على اهمية العامل الاقتصادى على حساب غيره من العوامل ص ٥٤ نفس المصدر .

(التقدم) فى ضوء القيم الاقتصادية المعـاصرة

لن نتعرض فى بحثنا هذا ــ ذى الطابع الفلسفى للنظام الاقتصادى فى الإسلام مع المقارنه بالنظام الغربى ، ولكن سنهتم فقط بمناقشة مدلول اللفظ الذائع الان أى (التقدم) حيث يعبر للوهلة الاولى عن حياة الرفاهية والترف على النمط الغربى ، فيظن البعض أنه لكى نحقق التقـدم الذى سبقونا اليه ، فما علينا الا أن نحقق معدلات النمو نفسها التى حققوها .

والحق أن القضية أكثر تشعبا وأعمق غورا من هـذا الفهم المبتسر ومن ثم تحتاج الى تناولها بقدر من العناية : شرحا وتحليلا ومقارنة .

وسنبدأ بمشيئة الله تعالى بشرح مدلول اللفظ ثم نبحث كيف ظهـر هناك نتيجة التطورات التاريخية وآثار ذلك على الفرد والمجتمع بعد زيادة الثروات وارتفاع معدلات الدخول ، ومدى امكان اللحاق لمستويات المعيشة فى الغرب طبقا لمعدلات النمو المتعارف عليها .

وسنرى أن السعادة المنشودة لم تتحقق ، بل ان الحضارة المعاصرة تعانى من أزمات طاحنة أعيت الفلاسفة والقادة ورجال الفكر والاصلاح فى البحث عن الحل .

وسنبحث ضرورة استناد (التقدم) الى عقيـدة أو (أيديولوجيا) يخضع لتصوراتها وأنماطها وأهدافها . لان تحقيق الرفاهيـة والسـعادة للانسان كل لا يتجزأ وهنا تظهر الحكمة من الطابـع الشمولى للاسـلام وأخيرا سنبين مخاطر اتباع الغرب فى تصوره للتقدم .

ولعل أشدها خطوره تتمثل فى القضاء على مقومات شخصية الامـه

أو على الاقل اهتزازها واضطرابها . ولهذا جاء الشرع محذرا من محاكاة الامم الاخرى وتقليدها .

هل تحققت السعادة فى ظل (التقدم) ؟

تحتاج الأجابة على هذا السؤال الى معرفة نتائج الانقلابات المتتابعة فى القرون الاخيرة بأوروبا على الفرد والمجتمع هناك ، ثم التحليل النفسى القائم على بحث علاقة أدوات الحضارة (المتقدمة) على نفسيات وسلوك الانسان أيضا فافتقد السعادة المنشودة :

أولا — ان المتتبع لسير الحضارة الغربية يرى فترات من الهرج فى تاريخ الانسان اذ تميز بانقلاب شديد فى النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، انقلاب هدد القيم الثابتة وخلق ألوانا من الفوضى والاضطراب وبعض هذه الازمات التى حدثت فى الماضى ، مثل الاصلاح الدينى وما صاحبه من حروب دينية أو الثورة الفرنسية وما تخللها من عصر الارهاب وما أعقبها من حكم نابليون ، فكانت هذه الاوقات عصيبة وحشية وتميزت بالعنف الشديد واراقة الدماء[١٩] .

وأهم ما يستوقفنا عند هذا السرد التاريخى المسجل ان القيم الثابتة كانت تتعرض للضربات تلو الضربات على أثر الانقلابات المدمرة والثورات الداميـة .

تقول أدريين كوخ فى كتابها (آراء فلسفية فى أزمة العصر) .

(هذا القرن الفظيع . من ذا الذى يتدبر مسيره وتاريخه ولا يحكم

---

(١٩) ادريين كوخ : آراء فلسفية فى ازمة العصر ص ٢١ .

عليه بالفظاعة ؟ ومن ذا الذى ينكر أن الثقة التى كانت تملأ نفوسنا عند مطلعه قد زالت من النفوس ؟ ليس من شك فى أن الازمة التى نعانيها فى العصر الحاضر فريدة فى تاريخ الانسان ، فهى أعمق وأوسع انتشارا من أية أزمة أخرى عرفها تاريخ الانسان ، لانها أزمة الوجود البشرى ذاته)[٢٠].

وتمضى أدريين كوخ فى تفسيرها التاريخى لتطورات الحضارة الغربية الحديثة منذ طفولتها القوية ابان النهضة وعصر الاصلاح الدينى ، فتذكر انها كانت على ثقة تامة بكرامة الانسان وقدرته على الخلق والابداع .. ولكن كل هذه التطورات المبشرة التى ترتبت على نمو القوميات الكبرى وتقدم التطبيقات العلمية انقلبت على شخصية الانسان فى القرن العشرين، فكلما اتسعت رقعة التمدن فى الحياة اليومية وفى انتشار المصانع فى ميدان العمل ازداد الاحساس لضعف روح الجماعة واشتد الشعور بالعزلة وذاب الفرد فى المجموع فى مجتمع بيرقراطى .

ثم ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية الشكوى من ضعف روح الانسانية عند الانسان ، حيث عزا شفيتزر انعدام المدنية الى عدم التوازن بين تقدم الغرب المادى والتقدم الروحى[٢١] .

وما أن انتهت الحرب العالمية الثانية حتى كاد الناس جميعا يتفقون على أن الانسانية أشرفت على عصر جديد من عصور الحضارة ، وهو عصر أزمة طاحنة شاملة قربت بين شعوب العالم أجمعين ، لا بروح المحبة التى حلم بها الفلاسفة ذوو النيات الطيبة فى كل قرن من قرون الزمان ، ولكن

---

(٢٠) المصدر نفسه ص ١١ .
(٢١) المصدر نفسه ص ١١—١٢ .

بانتشار الفزع فى قلوب الناس جميعا ، واشتراك الشعوب فى الشعور بالخوف والهلع • وقد أخذ هذا الشعور يتزايد ، والمشكلات تتضاعف حتى آمن الناس بقرب انتهاء المدنية الغربية[٢٢] •

أين اذن التقدم المتوهم باتباع معدلات النمو الاقتصادى ؟ وهل لو طبقناه نضمن تحقيق التقدم ؟ ان الاجابة مع الاسف تأتى بالسلب •

فقد ثبت أن التقدم الاقتصادى بالمفهوم الغربى لو حاولنا السير على نمطه يصبح كسرابا بعيدا •• سيظل هدفا مستحيل التحقيق ، لان الغرب تخطانا بمعدلات مرتفعة جدا تجعل بيننا وبينه فوارق شاسعة ، اذا قيست بالارقام ، تصل فى بعض البلدان الى قرون [٢٣] •

ونحن نرى فى ضوء ما تقدم ، ومن متابعة آلام المخاض فى الحضارة الغربية منذ ولادتها وما عانته بعد ذلك من أزمات وشدائد ، نرى أنها تعود

---

(٢٢) ادريين كوخ : آراء فلسفية فى أزمة العصر ص ١٤ •
وقد عالج الفلاسفة والمربون وعلماء الاجتماع فى كتاباتهم انهيار الغرب وانقسام العالم •
(٢٣) يقول الدكتور جلال امين :
لبيان ذلك دعنا نجرى عملية حسابية بسيطة نفترض بها ان دول العالم الثالث سوف تستمر فى النمو طبقا لنفس معدلات النمو التى حققتها فى السبع سنوات من ١٩٥٨ الى ١٩٦٥ وان دولة كالولايات المتحدة سوف تستمر فى النمو بمعدل يرتفع بمقتضاه متوسط الدخل منها ٣ فى المائة سنويا •
اذا افترضنا ذلك نجد ان دولة كالهند او دولة عربية كتونس تحتاج كل منهما الى اكثر من قرنين للوصول الى مستوى المعيشة الامريكى وان دولة كاوغندا او ماليزيا او بيرو تحتاج الى اكثر من اربعة قرون للوصول الى نفس المستوى بينما تحتاج دولة كالباكستان الى اكثر من سبعة عشر قرنا او بالضبط الى ١٧٦٠ عاما ••
ص ١٥ من كتاب (تنمية أم تبعية اقتصادية وثقافية) •

أول ما تعود الى العجز الانسانى فى اجتهاداته لنفسه ومحاولة الانسان تحقيق الرفاهية والسعادة بغير العون الالهى .

ان الازمه اذن ليست اقتصادية فحسب ، ولكن ذات علل شتى وهى فى جوهرها أزمة حضارة .

وهكذا يظهر لنا الغرب المتقدم فى حالة معاناة من أزمات مستحكمة ، وهو نفسه فى حاجة الى حل من خارج دائرة فلسفته وحضارته ، ويحرص على الظهور أمامنا بمظهر براق لامع لاغراض سياسية واقتصادية ، فيحول ذلك بيننا وبين الغوص فى أعماقه ومعرفة أزماته .

ثانيا — الاثار النفسية للحضارة المادية :

ان الغرب نفسه فى رأى فلاسفته لا يعانى بصفة جوهرية من (التأخر) فى مجال الانتاج ومعدلات التنمية بالرغم من معاناته من مشكلات اقتصادية كالبطالة والتضخم والكساد ، وهى مشكلات موقوتة بالدورات الاقتصادية فى النظام الرأسمالى الا أن أزمته الحقيقيه ناجمة عن أزمة فى القيم ومحاولة التوفيق بين التطور التكنولوجى وبين التطور الانسانى والروحى القائم على أساس كمال شخصية الانسان وضرورات المجتمعات البشرية والتزاماته[٢٤] .

---

(٢٤) ادريين كوخ — آراء فلسفية فى ازمة العصر ص ٣٨ .
ويرى برتراند رسل أن مساوىء الغرب تتمثل فى القلق والروح العسكرية والغضبيه والاعتقاد الجازم فى الالة وافضل ما فى الغرب فهى روح البحث الحر ولكن الغرب يصرف الشرق عن التحلى به وما دامت هذه الحالة قائمة فسوف يبقى أهل الشرق على حافة الفقر والغور . ص ٣١٦—٣١٧ نفسه .

ومشكلة الانسان فى الحضارة الغربية اذن لها أبعاد كثيرة ، سنكتفى فقط فى هذا الحيز باثبات أنه حقق التقدم الاقتصادى بأعلى المعدلات ولكن أخفق فى تحقيق السعادة المنشودة حيث افتقد القيم الثابتة فاضطربت حياته . ذاك لان الافة فى ظل حضارة قائمة على أهداف (غرائزية) تبحث عن المتعة والمزيد منها ، وتبحث عن الراحة فلا تجدها ، ويزداد فهمها الى المزيد من لذات الحس ومطالب الجسد ولا شأن لها بالروح :

ان البحث عن الراحة مثلا أدى الى نتائج مضادة فتسبب فى الارهاق، والسعى وراء الرخاء أدى الى القضاء على مصادر المتعة والبهجة ..

والدراسة النفسية الممتعة التى أجراها الدكتور جلال أمين تصل بنا الى نتائج ذات بال فيما نحن بصدده ، اذ تبين أن ما تخلقه زيادة السلع والخدمات من ارهاق ونفقات نفسية واجتماعية لا يمكن التخلص منها الا بانتاج المزيد من السلع والخدمات[٢٥] .

وهكذا يدور الانسان فى حلقة مفرغة تصيبه بالدوار ويعجز عن الخروج منها ..

وقد ضرب أمثلة كثيرة على ذلك نخص منها الالات التى تستخدم بحثا عن الراحة وتخفيض العمل العضلى كوسائل المواصلات والمصاعد الكهربائية والسلالم المتحركة والادوات الكهربائية المستخدمة بالمنزل ، فهى بدورها تحتاج الى سلع أخرى ناجمة عن تخفيض النشاط الجسمانى كمستلزمات الالعاب الرياضية والرحلات وأنواع الغذاء المضادة للسمنة والادوية

---

(٢٥) د. جلال امين : تنمية ام تبعية اقتصادية وثقافية ص ١٥١ .

المعوضة عما فقده الانسان من صحة نتيجة الامعان فى استهلاك وسائل الراحة)[٢٦] .

وهناك الاثار النفسية الضارة من الراحة أو المتعة كالاقبال على المقامرة كمحاولة من الرجل الثرى حيث يعرض نفسه عمدا للخسارة طمعا فى الفوز بلذة تعويضها بعد أن منعه ثراؤه من متع أخرى كمتعة السير على الاقدام أو متعة العمل لكسب الرزق .

وفى مجتمعات كهذه تسيطر عليها البحث عن المتعة فى مزيد من استهلاك السلع . ولكن سرعان ما تعجز السلعة الجديدة عن توليد المتعة التى ظن المستهلك أنها ستستمر[٦٧]

أضف الى ذلك انه كلما أمعن المجتمع فى زيادة انتاجه من السلع الكمالية اكتشف آثارا جانبية لها تسبب الضرر فسبب مادة كيماوية تستخدم فى بعض السلع الاستهلاكية قد تسبب الاصابة بالسرطان أو الافراط فى استخدام أنواع من المبيدات الحشرية يؤدى الى التسمم ، أو أن الاستعانة باللبن الصناعى عن لبن الام الطبيعى قد يسبب أمراضا للطفل أو يحرمه من الحنان الخ[٦٨] .

وخلاصة هذا البحث تقرر أنه :

ليس هناك نهاية لما يمكن تعداده من أمثلة لما يقدمه مجتمع الرخاء المزعوم ويؤدى الى القضاء على مصادر المتعة والبهجة .

---

(٢٦) د. جلال امين : تنمية أم تبعية اقتصادية وثقافية ص ١٥١—١٥٢ .
(٢٧) نفسه ص ١٦٠ .
(٢٨) نفسه ص ١٦٢ وينظر الفصل بعنوان (طلب الراحة وطلب المتعة) ص ١٦٤ وما بعدها .

واذا بالحياة تصبح أكثر راحة حقا ولكن يكاد يموت الناس سأما ، وفى محاولة للتعويض عن رتابة الحياة الناتجة عن الافراط فى استخدام وسائل الراحة يقبل شباب مجتمعات (الرخاء) على مختلف أنواع العنف والمخدرات ويزداد تناول الخمور وترتفع معدلات الطلاق[٢٩] .

وبعد ، فهذه نبذة عن تخيل التقدم فى صورة منافسة على الاستزادة من السلع الاستهلاكية خضوعا للظن بأنها ستؤدى الى الرفاهية والسعادة، أو البحث عن الراحة والمتعة الى غير ذلك من أهداف .

فقد رأينا ما ترتب على جعل الهدف هو التنمية الاقتصادية حيث أصبح الانسان إما دائراً حول نفسه باحثا عن الراحة فلا يجدها أو مستزيدا من السلع الاستهلاكية لاشباع رغباته فلا يشبع أو منحدرا بمستواه الى الادنى فالادنى بالعنف والجريمة والمخدرات والشذوذ الجنسى الى غير ذلك من مظاهر النكوص عن مستوى الانسانية .

ولا نظن أن حركة الانسان على هذه المستويات الثلاث تعبر عن (التقدم) .. لان التقدم الحقيقى يرتفع بمستوى الانسان الاخلاقى بحيث يرتقى الى أعلى فى سلم القيم والفضائل .

ولكن الذى حدث أن الاضطرابات التى تفجرت فى أحشاء الحضارة الغربية أحدثت ازدواجا بين الروح والجسد وأخذ الشقان يتباعدان ، ومرد ذلك الى عدم الارتفاع بمستوى الانسان الاخلاقى

---

(٢٩) المصدر نفسه ص ١٧٠—١٧١ .

والنتائج المستخلصة من كل ما تقدم تتلخص فى مخاطر كثيرة تتعرض لهـا الامة اذا رفعت شعار اللحاق بالغرب وحضارته . ويكفى فى التحذير من سلوك هذا المسلك ان الدراسة المتأنية العميقة بهذا الشأن تثبت أن ربط البلاد بفلك النظام الاقتصادى الغربى ونمط الثقافة الغربية يعـنى محـو شخصية الامة التابعة[٣٠] .

هذه هى أسرع النتائج تحققا اذا ضيقنا مفهوم (التقدم) وأخضعناه لتصورات الاقتصاديين وحدهم .

وهنا مناسبة لطرح قضية أخرى لا تقل أهمية ، وهى أن من التبسيط المخل تفسير حركات الانسان ودوافعه بعامل واحد هو زيادة الدخل ، لان الانسان كائن شديد التعقيد . ومن العبث الادعاء (بأن مبرر التنمية انها تجعل الناس أكثر سعادة ، فالسعادة كما يعرف الجميع ، تتوقف على أكثر من مجرد زيادة الدخل : فهنالك مثلا الشـعور بالاطمئنان على المستقبل ، وهناك الحرية ، وهنالك نوع العلاقات الاجتماعية السائدة ، بل وحتى مجرد الرضا بالنصيب وكلها قد لا تتغير بزيادة الدخل بل وقـد تؤثر فيها زيادة الدخل تأثيرا سلبيا)[٣١] .

لابد اذن من استناد تصور (التقدم) الى عقيـدة أو (أيديولوجيا) يخضع لتصوراتها وانماطها وأهدافها .

---

(٣٠) د. جلال امين . تنمية ام تبعية اقتصادية وثقافية ص ٣٥ .

(٣١) آرثر لويس: نظرية النمو الاقتصادى،نقلا عن المصدر السابق ص٤٧

ضرورة العقيدة أو الايديولوجيا فى السعى للتقدم

يرى الاستاذ الدكتور فؤاد زكريا انه لا ينبغى الفصل بين قضية (التمية) والايديولوجيا .

فاذا عرفنا الايديولوجيا من جديد بأنها (مجموعة الافكار الاساسية التى تشكل نظرة المجتمع الى نفسه والى العالم أو الموقف الاساسى الذى يعبر به المجتمع عن اتجاهاته فى الحاضر وأمانيه فى المستقبل) .

ففى ضوء ذلك لا تصبح التنمية مجرد (نمو) كما قد يوحى أصل اللفظ ذاته ، وانما هى مسيرة شاملة توجهها ، ومن واجب كل من يتصدى لعملية التنمية فى مجتمعه أن يجيب عن أسئلة أساسية مثل :

لصلحة من تتم هذه التنمية ؟

وهل تكون التنمية اقتصادية فحسب ؟ أم تشمل المجال الاجتماعى والثقافى بدوره ؟ وما نوع المجتمع الذى نريد أن نحققه عن طريق هذه التنمية ؟[٣٢] .

اذن نحن أمام قضايا تتصل بالمقومات الحضارية للامة فى المقام الاول، وينبغى النظر اليها من زاوية (عقيدة) الامة .

---

(٣٢) مقدمة كتاب (عصر الايدولوجية) ص ٧ لهنرى د. ايكن ترجمة د. فؤاد زكريا ومراجعة د. عبد الرحمن بدوى . ط الانجلو المصرية ١٩٦٣م .

وفى موضع آخر يستبعد الدكتور فؤاد زكريا ترجمة لفظ (الايديولوجية) (بالعقائدية) ويميل الى قبول الشرح الذى اتى به (ما نهيم) ويلخص فى ان اللفظ يطلق بمعنيين : احدهما مذموم والاخر مقبول . فالمعنى المذموم تكون الايديولوجية فيه هى آراء الخصم الظاهرية . التى تخفى الطبيعة الحقيقية لموقفه ، والتى ليس من صالح ذلك الخصم الكشف عنها . وبالمعنى المقبول يقال ان ايديولوجية عصر او طبقة ما هى الا خصائص الذهن وتركيبه فى ذلك العصر او تلك الطبقة .

والتقدم من هذه الزاوية ذو أبعاد شمولية لينهض بالامــة لتستأنف دورها ورسالتها تنفيذا لامر الله تعالى (كنتم خير أمــة أخــرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) ١١٠ آل عمران •

وسيأتى تفسير هذه الاية فى موضعه •

وعقيدة الاسلام تجعل المسلم يؤمن بأنه فى حياته الدنيوية انما يعمل أيضا للاخرة • وهذه الحقيقة يجب أن تشكل قاعدة أســاسية من قــواعد البحث فى علوم الاقتصاد وغيرها فان منهج البحث فى الاسلام (أيا كانت مجالات هذا البحث ، لابد أن يرتكز على هذا الاساس ، ترابط عضوى بين الدنيا والدين ، والحياة الاخرة ، فالحياة وسيلة الى غاية ، واذا صلحت الوسيلة صحت الغاية ، وتحقق الهدف المراد من الحياة • وفى هذا يقول الله تعالى (وابتغ فيما آتاك الله الدار الاخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ••) القصص ٧٧[٣٣] •

هذا فضلا عن استقلال الاسلام بنظامه الاقتصادى الخاص النابع من عقيدته وشريعته ، والذى يحفظ للامة الاسلامية أصالتها ويحول بينها وبين التبعية لغيرها من الامم التى لها عقائدها ونظمها الخاصة بها •

وتتضح هذه الظاهرة للباحث المنصف التى يتحــرى الحــق ويلتزم بالصدق • يقول العالم الاقتصادى الفرنسى المعاصر جاك أوسترى فى كتابه (الاسلام فى مواجهة التنمية الاقتصادية) بعد شرحــه وتحليله المــذهب الاقتصادى الاسلامى (ان الاسلام يشكل طريقا ثالثا للتنمية الاقتصادية

(٣٣) د• عبد الهادى على النجار : الاسلام والاقتصاد ص ٥ من سلسلة (كتب ثقافية) — الكويت ١٤٠٣هـ — ١٩٨٣م •

وانه لا يوجد طريق وحيـد وحتمى للبناء الاقتصـادى كما تزعم المذاهب الدنيوية المعاصرة من ليبرالية الى ماركسية[٣٤] .

النظرة الشمولية للاسلام :

ولا مجال فى كتابنا هذا لبحث النظام الاقتصـادى ، ولكن الذى نود بيانه استنادا الى روح الفكرة العامة للكتاب ان نصور (التقـدم) قاصرا فقط على معدلات النمو وأرقام ميزان المدفوعات لا يتصل بمعنى التقـدم الحقيقى فضلا عن أنه بعيد كل البعد عن علاج المشكلات الاقتصـادية من منطلق اسلامى .

ويرى الدكتور محمد البهى ـ رحمه الله ـ ان اقتصـاد الامة الاسـلامية اقتصاد متكامل فى ذاته ، ولكن اختل توزيعه بين الدول الاسلامية بالنسبة لسكانها بفعل الاستعمار الذى استهدف من تجزئته للامـة أن يتمـكن من الاستغلال الاقتصادى ، وأن يبقى ضعف الامة الاسلامية ككل .

ويقـول فى نص جامع :

(وكما أعز الله المسلمين باقتصاد متكامل فى أراضيهم التى يعيشون عليها من المحيط الى المحيط والذى من أجـله يتنافس عليهم ذئاب الغـرب والشرق على السواء ، فانه قد أعزهم بدين متكامل (اليـوم أكملت لـكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا) المائدة ٣ أى منهجا للحياة فى السلوك ، والمعاملة . وفى الترابط . وتكامل هذا الدين هو : فى بعده

---

(٣٤) نقلا عن كتاب الاقتصاد الاسلامى ـ مقـوماته ومنهاجـه ص ٤١ للدكتور ابراهيم دسوقى اباظه وراجعه د. على عبد الواحد وافى ط دار الشعب بالقاهـرة ١٩٧٤م .

عن الاحتراف بسياسة النظام الديمقراطى الغربى وكـذلك عن التسلط فى الحكم فى النظام البلشفى الشرقى)(٣٥) •

ولهذا فان النظرة الشمولية للاسلام كدين وحضـارة تقتضى عـدم الفصل بين عقيدة التوحيد وآثارها فى العبادات والسلوك ونظم الحيـاة الانسانية فى دروبها المختلفة فى الاقتصاد والسياسة والاجتماع •

يمكن القول اذن ـ كما يذهب الى ذلك أحـد علماء الاقتصـاد ـ أن التنمية الاقتصادية فى الاسلام تعتبر جزءا لا يتجزأ من مضمون خلافة الله للانسان على الارض حيث يتطلب ذلك تحقيق التقدم للافراد والمجتمع فى اطار العرفان بالشكر لله عز وجل •

ومع أن مفهوم التنمية الاقتصادية فى الاسلام لا يكتمل الا بطـرح أهدافها ، فان هذا المفهوم لا يختلف كثيرا عن مفهوم التنمية الاقتصـادية فى الفكر المعاصر ، اللهم الا فى الهدف من هذه العملية وما اذا كان مجـرد تحقيق اشباع الحاجات المادية أم أن ذلك مرحلة لهدف أسمى وهو العبودية لله تعالى • كما فى قوله تعـالى (وما خلقت الجن والانس الا ليعبـدون) الذاريات ٥٦(٣٦) •

والحديث عن المـال وثيق الصلة بأحكام الحلال والحـرام والزكاة والبر بالفقراء والتضامن الاجتماعى وغير ذلك من القيم الانسـانية العليا التى لم تتوافر فى أى نظام اقتصادى لمجتمع آخر سابق أو لاحق •

---

(٣٥) ينظر كتابه (الاسلام فى حل مشاكل المجتمعات الاسلامية المعاصرة) ص ١٣٤ ـ مكتبة وهبه بالقاهرة ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م •

(٣٦) د. عبد الهادى النجار : الاسلام والاقتصاد ص ٧١ من سلسلة (عالم المعرفة) بالكويت جمادى الاولى ـ جمادى الاخرة ١٤٠٣هـ مارس ١٩٨٣م

ولا نريد الاطالة حتى لا يخرج بنا الحديث عن القصد ، ولكننا فى ضوء التوجيهات القرآنية والارشادات النبوية يتأكد لدينا أن المال بكافة صوره وأشكاله ليس هدفا فى ذاته ولكنه وسيلة الى غاية فى حدود ما أحله الله تعالى وأباحه .

قال تعالى (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة) .

يفسر الشيخ رشيد رضا هذه الاية بقوله :

(فجعل اباحتها فى الدنيا غير منافية لنيلها فى الاخرة ، ولانها قد تكون وسائل للاخرة بتكثير النسل وكثرة الصدقات والمبرات والجهاد)[٣٧] .

وقال تعالى (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب) آل عمران

وفى تفسير هذه الاية قال الشيخ رشيد رضا :

(أى ذلك الذى ذكر من الانواع الستة هو ما يستمتع به الناس فى حياتهم الدنيا أى الاولى والله عنده حسن المرجع فى الحياة الاخرة التى تكون بعد موت الناس وبعثهم فلا ينبغى لهم أن يجعلوا كل همهم فى هذا المتاع القريب العاجل ، بحيث يشغلهم عن الاستعداد لما هو خير منه فى الاجل .

---

(٣٧) تفسير المنار جـ٣ ص ٢٣٩ ط مكتبة القاهرة لصاحبها على يوسف سليمان الطبعة الرابعة ١٣٧٩هـ — ١٩٦٠م .

وجاء التصريح بذلك فى الاية التالية اذ قال تعالى (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جناب تجــرى من تحتها الانهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد) [آل عمران ١٥]

خلاصة القول أننا عندما نتصور (التقدم) قرين ارتفاع معــدلات الدخل وأرقام الميزانيات وحــــدها ، عنــدئذ نخلــط بين (الوســائل) و (الاهداف) ونلهث وراء تصورات حضارية مخالفة لتصوراتنا ، ذلك أن الانتاج بكافة صوره الصناعى والزراعى مجرد وسائل فى التصور الاسلامى اذ أن المسلم يؤمن بأن الدنيا مزرعة على سبيل الابتلاء والاختبار .

إذا قال عز وجل (انا جلعنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهما أحسن عملا) [الكهف آية ٧٠]

أضف الى ذلك أن الانشغال بالوســائل عن الغــايات ينسى الامــة الإسلامية دورها الجوهرى الذى لا ينبغى نســيانه أو العــدول عنه الى أهداف أخرى .

أما الخضوع لاهداف حضارة العصر والجرى وراء التنمية وجعل كل همها الاستزادة من الرفاهية ، فسيؤدى الى فقدان الامة لهدفها الاصلى ويجعلها تجرى وراء سراب لن تدركه ، ويدور بها فى فلك التقليد ، ذلك لان حضارة الغرب تجعل موازين التقدم قاصرة على الانتاج المــادى ولا تعتد الا بالموازين الاقتصادية وتلقى وراء ظهرها بما لا يخدم هذا الهدف .

ولو تطلعنا الى التماس النموذج الواقعى للمجتمع الاســلامى الذى حقق الحضارة الاسلامية بمقوماتها الروحية — والمادية بالنظر الى عصره — لوجدناه متحققا فى عهد المسلمين الاوائل . (حيث كانت السمة البارزة

للمجتمع الاسلامى الصحيح فى عصر الصحابة والتابعين وهو المقياس النبوى الذى يقاس به الناس فى كل عصر ومصر ، مهما تغيرت الظروف ومهما تقدمت المدنية وتعقدت الحضارة واختلطت الوسيلة والغاية)[٣٨] .

ان هذه السمة الثابتة — فى رأى الاستاذ محمد الحسنى رحمه الله تعالى — تميز الانبياء عليهم السلام ، فكانوا يعيشون كما يعيش الناس بمتعها كلها ، ولكن لا تذهلهم — لدقيقة واحدة — عن ايمانهم بأنهم ذاهبون الى الاخرة . وكانت هذه الروح (تسرى فى أصحابهم وتخلق منهم انسانا آخر يتحرك شوقا الى الجنة وحنينا الى الاخرة وسعيا الى الجهاد وسابقا فى الخيرات)[٣٩] .

وهنا آن لنا معرفة تفسير قوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) ١١٠ آل عمران . حيث اختلفت الاراء حول كون الوصف بالخيرية ينطبق على المسلمين الاوائل دون الاجيال المتأخرة : أم أن الوصف يشملهم جميعا اذا ما حققوا شرط الله تعالى فيهم .

يرى الحافظ ابن عبد البر — استنادا الى قول بعض العلماء : كنتم بمعنى أنتم خير أمة . وقيل : كنتم فى علم الله تعالى ، ومعلوم أن مواجهة رسول الله ﷺ لاصحابه بقوله : أنتم خيرها اشارة بالتقدمة فى الفضل اليهم على من بعدهم[٤٠] .

---

(٣٨) محمد الحسنى : الاسلام الممتحن ص ٧٨ ط المختار الاسلامى ١٣٩٧هـ — ١٩٧٧م .

(٣٩) المصدر نفسه ص ٧٨ .

(٤٠) ابن عبد البر : الاستيعاب فى معرفة الاصحاب ق١ ص٩ تحقيق على البجاوى — مكتبة نهضة مصر بالفجالة .

وقد عرض الامام القرطبى فى تفسيره لاقـوال أخرى ، منها قـول مجاهد : كنتم خير أمة اذ كنتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر . وقيل : انما صارت أمة محمد ﷺ خير أمـة لان المسـلمين منهم أكثر ، والامـر بالمعروف والنهى عن المنكر فيهم أفشى .

كما أورد الحديث الذى أورده أبو داود الطيالسى فى مسنده ـ بسنده ـ عن النبى ﷺ انه قال (أتدرون أى الخلق أفضل ايمانا ؟) قلنا الملائكة قال : وحق لهم بل غيرهم قلنا : الانبياء ، قال : وحق لهم بل غيرهم ، ثم قال رسول الله ﷺ (أفضل الخلق ايمانا قوم فى اصلاب الرجال يؤمنون بى ولم يرونى يجدون ورقا فيعملون بما فيها وهم أفضل الخلق ايمانا)[41] .

كذلك استند الى الحديث (ان امامكم اياما الصـابر فيها على دينه كالقابض على الجمر للعامل فيها أجر خمسين رجل يعمل مثل عمله) قيل : يا رسول الله . من هم ؟ قال : بل منكم . وقال عمر بن الخطاب فى تأويـل قوله (كنتم خير أمة أخرجت للناس) قال : من فعل مثل فعلكم كان مثلكم .

ويرى القرطبى انه لا تعارض بين الاحاديث ، لان حديث الرسـول ﷺ (خير الناس قـرنى ثم الذين يلونهم) ـ على الخصـوص . ثم يستشهد بأحاديث أخرى ترجح ما ذهب اليه : مثل قوله عليـه الصـلاة والسلام (بدأ الاسلام غريبا وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء) : والحديث الذى ذكره الدارقطنى فى مسند حديث مالك (أمتى مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره) .

أما وجه المقارنة بين السابقين الاولين ومن جاء بعـدهم ، فان عمر

---

(٤١) تفسير القرطبى (الجامع لاحكام القرآن) ص ١٤١٤ ط دار الشعب بالقاهرة جمادى الاخرة ١٣٨٩هـ اغسطس ١٩٦٩م .

النبى ﷺ انما فضل لان أهله كانوا غرباء فى ايمانهم لكثرة الكفار وصبرهم على أذاهم وتمسكهم بدينهم ، وان أواخر هذه الامة اذ أقاموا الدين وتمسكوا به وصبروا على طاعة ربهم فى حين ظهور الشر والفسق والهرج والمعاصى والكبائر كانوا عند ذلك أيضا غرباء ، وزكت أعمالهم فى ذلك الوقت كما زكت أعمال أوائلهم[٤٢] .

وينتهى الامام القرطبى الى تقرير ان الاحاديث الواردة فى هذا الصدد تقتضى مع تواتر طرقها وحسنها التسوية بين أول هذه الامة وآخرها . ويذهب الرأى الايمان والعمل الصالح فى الزمان الفاسد الذى يرفع فيه أهل العلم والدين ، ويكثر فيه الفسق والهرج ، ويذل المؤمن ويعز الفاجر ويعود الدين غريبا كما بدأ ، ويكون القائم فيه كالقابض على الجمر ، فيستوى حينئذ أول هذه الامة بآخرها فى فضل العمل ــ الا أهل بدر والحديبية[٤٣] .

ومصداق ذلك أيضا فى كتاب الله فى أول سورة الجمعة (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) آية ٣ وفى سورة الحشر (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان) ١٠ وفى سورة الانفال (والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم) آخر السورة .

وبين قوله تعالى (باحسان) ما يتبعون فيه من أفعالهم وأقوالهم ، لا فيما صدر عنهم من الهفوات والزلات اذ لم يكونوا معصومين رضى الله عنهم) .

---

(٤٢) نفسه ص ١٤١٤ ولعله يقصد بتخصيص الحديث (خير الناس قرنى) اهل بدر والحديبية .

(٤٣) نفسه ص ١٤١٥ .

وأضاف القرطبى الى ذلك شطرا من قول الرسول ﷺ (وددت أنا قد رأينا اخواننا ..) فجعلنا أخوانه ، ان اتقينا الله واقتفينا آثاره[٤٤] .

ومع أن الاية الانفة وغيرها من الايات تصف الامة بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر (التوبة آية ٧١) ، فان ذلك لم ينس الامام الحسن البصرى (١١٠ هـ) أن ينبه المسلمين فرادى أيضا ، حيث ارتفع صوته منذ نحو ثلاثة عشر قرنا يقول (من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر : فهو خليفة الله فى أرضه : وخليفة رسوله ﷺ وخليفة كتابه)[٤٥] .

ان الحرص على تنفيذ معدلات (التنمية) . حتى لو فرض امكان تنفيذه يحمل فى طياته تحطيم الكيان الذاتى والنفسى للامة وتحويلها الى أمة مقلدة تابعة .

وأود التنويه مرة أخرى الى التحذيرات الشديدة التى وردت على لسان عالم اقتصادى خبير بطرق الغزو الحضارى الغربى من خلال قنوات التعليم والحملات الدعائية الموجهة للمستهلكين على اختلاف مستوياتهم الثقافية والاجتماعية .

وأوجه عناية القارىء الى هذه العبارة التى ينبغى أن تكتب بحروف من نور حيث يقول الدكتور جلال أمين : (انها تدرك — أى الشركات المسماة بمتعددة الجنسيات — تمام الادراك انها اذا أرادت أن تبيع فعليها أن تهزمنا نفسيا أولا . ومن ثم فان السلاح المضاد الذى يجب استخدامه

---

(٤٤) الجامع لاحكام القرآن لابى عبد الله محمد بن احمد الانصارى القرطبى ص ٣٠٧٧—٣٠٧٩ شوال ١٣٨٩هـ — ١٩٦٩م .

(٤٥) نفسه ص ١٢٨٩ .

ضدها ، اذا أردنا حماية استقلالنا الاقتصادى والسياسى ، يجب أن يكون فى الاساس سلاحا ثقافيا أيضا)[٤٦] .

ولكن مجتمعاتنا خلطت مع الاسف فى عصورها المتأخـرة بين التقليد الاعمى لانماط وسلوكيات الحضارة الغربية فى الملبس والمأكلو المسكن وبين اقتباس العلوموالمعارف المتطورة التى تؤدى الى التقدم الحقيقى فى مجال الانتاج الزراعى والصناعى والعسكرى حيث اكتفينا بالتقليد وحده ظنا منا أنها تؤدى الى العصرية والتمدن .

وامتد التقليد الى ما هو أخطر من ذلك وبيت القصيد فى الحضارات ومقومات الامم — أى الشئون الثقافية [٤٧] .

ولو تعلمنا الدرس من الصين لمـا حدث لنا ما حـدث من هـزيمة نفسية أمام الغرب وحضارته . وهى أشد ما يصيب الامم والشـعوب اذا ما تخلت عن معرفة عقائدها وأهدافها .

---

(٤٦) د. جلال امين : تنمية ام تبعية اقتصادية وثقافية ص ١١٩ .
ويرى أنه يجب اغلاق الباب أمام منتجات يريد البائع الغربى او الشرقى بيعها لنا على انها ثمرات التقدم الانسانى وهى ليست اكثر من افرازات طموحه الخاص أو حتى ، فى كثير من الاحيان أعراض أمراضه الخاصة ص ١٢٠ .

(٤٧) يفصل الدكتور جلال امين هذه الالوان من السلوك المقلد فيقول :
(اذا لبس شبابها — أى الولايات المتحدة الامريكية — السراويل الزرقاء الملاصقة للجسم ، ارتداها شبابنا وعدوها مظهر العصرية والتمدن . واذا تركوا شعورهم تغطى آذانهم تركناها تغطى آذاننا ، واذا أكلوا اقراص اللحم عديمة الطعم والخالية من اللحم وغطوها بسائل يشبه الطماطم أكلناها وافتتحنا لهـا مطاعم تتخصص فى تقديمها . واذا اقاموا مبانيهم الشاهقـة والطاردة للشمس والهواء واستعاضوا عنها بأجهزة تكييف الهواء ، فعلنا أيضا مثل ذلك وشعرنا بالفخر بما نصنع . وكما فعلنا فى الملبس والمأكل والمسكن فعلنـا فى شـئوننا السياسية والثقافية ..
د. جلال أمين (تنمية أم تبعية اقتصادية وثقافية ص ١٢٩) .

ويتلخص الدرس فى أنه لا ينبغى أن نسمح بالاستهتار بمبادئنا الدينية أو اثارة الشك حول ملاءمتها للعصر لان من يفعل ذلك فانه يسهم فى قتل نفسية الامة .

وعلى العكس فانه يجب استعادة المسلم لثقته بنفسه والقيمة الاجتماعية الكبرى لتمسك المسلم بعقيدته هى أن هذا هو أثمن شىء لديه[٤٨] .

ان الصينيين لم يسمحوا لاى مذهب غريب عليهم بأن يثير لديهم الشك فى تفوق نظرتهم الخاصة الى الامور .

هذا هو الدرس الذى ينبغى أن نتعلمه منهم — أى أن أساس بناء الحضارة هو اثارة الشعور القومى العارم والاعتقاد بالتفوق على الغير أو على الاقل برغبة قوية فى اثبات الذات وبأنها ليست بأقل قدرا من الامم الاخرى ، وكلها تجتمع فتفجر الطاقة النفسية .

ولا يسعنا أمام هذه التحليلات الصائبة الا تأييدها مع ضم صوتنا الى صاحبها حين يقول (ومن الغريب ألا نرى ان هذه الطاقة النفسية الكامنة لدى العرب والمسلمين لا يمكن تفجيرها الا عن طريق الدين) ثم يحذر من المطالبين باعادة تفسيره بقوله : حذار كل الحذر من أن تؤدى محاولاتنا لاعادة اللمعان الى الذهب الى احداث أى خدش به[٤٩] .

---

(٤٨) د. جلال امين : تنمية أم تبعية اقتصادية وثقافية ص ١٢٤ .
ويضيف الى ذلك أن هناك دولا أخرى تنادى بالعودة الى التراث ص ١٨٨

(٤٩) نفسه ص ١٢٦ وينظر اقتراحات المؤلف للتنمية وفن الاصول الصحيحة التى يذكرها تفصيلا ، بشرط الا تؤدى الى التحلل الحضارى وتشويه شخصية الامة حيث يرى ان عملية تعريب المجتمع العربى تسمى خطأ بالتمدين أو التحديث أو بناء مجتمع عصرى ص ٦٩ .

ونظن أننا أقنعنا المطالبين باعادة تفسير الدين بالكف عن محاولاتهم — ان صحت نواياهم — لاننا أثبتنا بعون الله تعالى فى الفصل السابق — كيف رفع أتباع البابية والبهائية والقاديانية نفس الشعار ولكن بكلمات مختلفة ، فهدموا أركان الدين بدلا من اعادة تفسيره .

فهل لنا جميعا أن نلوذ بمنهج السلف من جديد ؟

ان تجارب الشعوب الاخرى مثل الصين واليابان وألمانيا وغيرها فى تنافسها على التقدم واحتلال مكان الصدارة والنفوذ بين دول العالم ، قد تنبهت الى ضرورة المحافظة على مقوماتها الذاتية حتى لا تتميع فيسهل هزيمتها وفقدانها لكيانها .

وكانت الامة الاسلامية أسبق الامم فى معرفة هذه الحقيقة على هدى الشرع — قبل هدى التجارب — كما اهتم علماؤها بتحذيرها وانذارها كلما جنح البعض عن تعاليم الشرع ، لكى ترتقى مرة أخرى فتسلك طريق السلف انصياعا لاوامر الله تعالى ورسوله — صلى الله عليه وسلم — .

وقد استقرأ ابن تيمية الايات القرآنية والاحاديث النبوية الامرة بترك التشبه بالامم السابقة .

حيث استخلص فى النهاية ان مخالفتهم فى عامة أمورهم أصلح للمسلمين لان جميع الايات دالة على ذلك ، كذلك هناك من الايات ما يدل على أن مخالفتهم واجبة .

وبصرف النظر عن دلالة الوجوب عن غيرها فان مخالفتهم مشروعة فى الجملة[٥٠] .

---

(٥٠) ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ص ١٧ ، بتحقيق محمد حامد الفقى مطبعة السنة المحمدية ١٣٦٩هـ — ١٩٥٠م .

وسيأتى تعليله وبيانه للحكمة من المخالفة ابقاء على ذاتية الامة الاسلامية ومحافظة على كيانها المتميز عن الامم السابقة التى انحرفت عن الصراط المستقيم .

أدلة الكتاب والسنة :

يرى شيخ الاسلام ان دلالة الكتاب على خصوص الاعمال وتفاصيلها انما تقع بطريق الاجمال والعموم أو الاستلزام ، وتأتى السنة لتفسر الكتاب وتبينه ، وتدل عليه وتعبر عنه .

والتزاما بهذا الاصل يذكر آيات من الكتاب الحكيم ويتبعها بالاحاديث المفسرة لمعانى ومقاصد الايات .

قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم) المائدة ٥١ .

وقال سبحانه :

(لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الاخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه — الى قوله أولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم المفلحون) ٢٢ المجادلة .

وكذلك ما ورد فى السنة ، فقد كان النبى ﷺ يكره مشابهة أهل الكتابين فى الاصار والاغلال — حيث كان من صفته عليه الصلاة والسلام كما قال تعالى (ويضع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم) الاعراف ١٥٧ .

لهذا فانه زجر أصحابه عن التبتل وقال (لا رهبانية فى الاسلام) وأمر

بالسحور • ونهى عن المواصلة ، وقال فيما يعيب أهل الكتابين ويحذرنا عن موافقتهم (فتلك بقاياهم فى الصوامع) (٥١) •

واننا نرجح أن كتاب شيخ الاسلام (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم) يحمل بين طياته أبلغ الدلالات وأقواها فى تحذير الامة الاسلامية من تقليد غيرها ، ذلك لان الامة الاسلامية تميزت بخصائص تميزها عن غيرها من الامم وتجعل من التزامها بعقائدها وشريعتها أمة متقدمة بالمعنى الحضارى الصحيح حيث تتميز الحضارات كما قلنا بالعقائد والقيم والسلوك فى المقام الاول ثم تأتى فى المرتبة التالية المنتجات المادية

وقد نهى النبى ﷺ عن التشبه بالامم الاخرى ، فقد روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ (لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتى مأخذ القرون ، شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، فقيل : يا رسول الله ، كفارس والروم ؟ قال : ومن الناس الا أولئك) ؟

وقد عاصر شيخ الاسلام ابن تيمية ألوانا من تقليد فارس والروم فحذر منه ونبه اليه (فقد دخل منه فى هذه الامة من الاثار الرومية قولا وعملا ، والاثار الفارسية قولا وعملا : مالا خفاء فيه على مؤمن عليم بدين الاسلام ؛ وبما حدث فيه)(٥٢) •

ولا ندرى لو عاش معنا الشيخ فى عصرنا الحاضر ماذا عساه أن يقول ••

وعلى أية حال فانه يوضح المعالم الخاصة بهذه الامة استنادا الى

---

(٥١) المصدر نفسه ص ٤٨ •

(٥٢) ص٥ اقتضاء الصراط المستقيم المصدر نفسه ص ١٠

فهمه الى آيات القــرآن وأحاديث النبى ﷺ ، ويحلل الآثار الناجمــة عن التشبه بالامم الاخرى .

وكطريقة ابن تيمية فى عرض أفكاره يبدأ بشرح المقصــود بالصراط المستقيم بأنه يتضمن أمورا باطنة وأخرى ظاهرة . والباطنة مقرها القلب : كالاعتقادات والارادات وغيرها . والظاهرة : كالاقوال والافعال .

وهذه الاعمال الظاهرة قد تكون عبارات . وقد تكون أيضا عادات : فى الطعام واللباس والزواج والمسكن والاجتماع والافتراق والسفر والاقامة والركوب وما شابهها .

والقاعدة الكلية التى ينبنى عليها الحكم هى أن الامر بموافقة قــوم أو بمخالفتهم : قد يكون لان نفس قصــد موافقتهم أو نفس مــوافقتهم : مصلحة وكذلك نفس قصد مخالفتهم أو نفس مخالفتهم مصلحة .

وبتطبيق هذه القاعدة طردا وعــكسا فنحن ننتفــع بنفس متابعتنا لرسول الله ﷺ والسابقين من السلف الصالح من المهاجرين والانصار ، فى أعمال لو أنهم فعلوها لربما لا يكون لنا فيها مصلحة ، لان متابعتهم يورث محبتهم وائتلاف قــلوبنا بقــلوبهم ويدعــونا أيضــا الى مــوافقتهم فى أمــور أخــرى(٥٣) .

وهكذا ينبهنا ابن تيمية الى أصل جوهرى من أصول استمرار الحضارة الاسلامية وفقا لارتباطها بجذورها التى ازدهرت فى العصور الاولى بفضل ما حققه الاوائل من أعمال ، بحيث اننا نضمن عند متابعتنا لها ، من استمرار

---

(٥٣) ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم ص ١٣ .

هذه الحضارة ، فان أية حضارة ما هى الا ثمرة العقائد والاعمال ، وقد عبروا بهما عن القمة وبلغوا فيهما الذروة .

ويشرح ابن تيمية منافع الاعمال الصالحة فى ذاتها ويعلل الحكمة من المتابعة أو المخالفة وأثرها على النفوس البشرية .

ويستدل على ذلك بما هو مجرب ومحسوس فان اللابس لثياب أهل العلم — مثلا — يجد فى نفسه نوع انضمام اليهم . واللابس لثياب الجند المقاتلة مثلا ، يجد فى نفسه نوع تخلق بأخلاقهم ، ويصير طبعه مقتضيا لذلك (الا أن يمنعه من ذلك مانع)[٥٤] .

وعلى العكس من ذلك فان المخالفة فى الهدى الظاهر ، توجب مباينة ومفارقة توجب الانقطاع عن موجبات الغضب ، وأسباب الضلال والانعطاف الى أهل الهدى والرضوان ، وتحقق ما قطع الله من الموالاة بين جنده المفلحين وأعدائه الخاسرين . وكلما كان القلب أتم حياة وأعرف بالاسلام (ويستطرد ابن تيمية : لست أعنى مجرد التوسم به ظاهرا ، أو باطنا بمجرد الاعتقادات التقليدية ، من حيث الجملة كان احساسه بمفارقة اليهود والنصارى باطنا أو ظاهرا أتم ، وبعده عن أخلاقهم الموجودة فى بعض المسلمين : أشد)[٥٥] .

ويبلغ شيخ الاسلام الذروة فى تعليله لسبب المنع حيث يرجعه الى التأثير المتبادى بين الروح والجسم ، أو الانفعالات النفسية وأعمال

---

(٥٤) المصدر نفسه ص ١١ .

(٥٥) المصدر نفسه ص ١٢ .

وابن تيمية هنا فى تحليله للصلة بين الملابس والنفس البشرية اسبق من كارليل صاحب كتاب (فلسفة الملابس) . يقول كارليل (من ذا الذى رأى منكم احدا من اللوردات يحبه الناس بحبته وهو فى اسمال رثة واطمار بالية .. الخ) ص ١٩٦ ترجمة طه السباعى — مطبعة البشلاوى بمصر سنة ١٩٢٧م .

الجوارح الظاهرة ، اذ أن الامور الباطنة من اعتقادات واردات كالاقـوال والافعال من عبادات وعادات وغيرها ، هذه الامور الباطنة والظاهرة لابد بينهما من ارتباط ومناسبة (فان ما يقوم بالقلب من الشعور والحال يوجب أمورا ظاهرة ، وما يقوم بالظاهر من سائر الاعمال : يوجب للقلب شعورا وأحـــوالا)[٥٦] .

وتفسير ذلك ان طاعة الله تعالى وعبادته والخضوع لاوامره والانتهاء عن نواهيه تورث انشراحا فى الصدر وسعادة فى النفس ونورا فى القلب ، وبالضد من ذلك فان المعاصى تورث كآبة النفس وظلمة القلب وتسبب الغم والحزن والضيق .

وأصل ذلك فى وصـــف الفريق الاول قـــوله تعالى (أولئك سيرحمهم الله) ، والفريق الثانى قوله تعالى (ولهم عذاب مقيم) (اشارة الى ما هو لازم لهم فى الدنيا والاخرة : من الالام النفسية غما وحـــزنا ، وقســـوة وظلمة قلب وجهلا ، ان للكفر والمعاصى من الالام العاجلة الدائمة ما الله به عليم . ولهذا تجد غالب هؤلاء لا يطيبون عيشهم الا بمـــا يزيل عقـــولهم ويلهى قلوبهم ، من تناول مسكر ، أو رؤية مله — أى ملاهى — أو سماع مطرب ونحو ذلك)[٥٧] .

الزمن كمقياس للتقـــدم :

أما نظرية التقدم المرتبطة بدورة الزمن ، فقد تعرضت لامتحان شديد فى العصر الحديث ، وبعد توالى ظـــواهر تنبىء عن الازمات فى العـــالم الغربى المتقدم مثل (انتشار الرذيلة واتساع نطاق استعمال المخـــدرات

---

(٥٦) المصـــدر نفســـه ص ١١ .
(٥٧) المصـــدر نفســـه ص ٢١ .

وضلال الشبان فى متاهات التمرد على المجتمع واتخاذ الغريب من الملابس والازياء ، واتساع نطاق الجريمة المنظمة والارهاب) •

•• وما هى اذن الحقيقة الا خطوات مسرعة للتقدم نحو البربرية[٥٨] وبالعكس ، اننا نرى أن المجتمع البدوى أكثر تقدما اذا قيس بمقياس التقدم الاخلاقى المعنوى برغم تضحيته بالافراد أحيانا للمحافظة على كيانه العام من أى تحلل • وقد يوقفه هذا المسلك فى مكانه ثابتا ويمنعه من اجتياز خطوات نحو ما تسميه المجتمعات الغربية بالتقدم ، ولكنه يحتفظ بالصلابة فى تكوينه وحيويته ، ولهذا فهو فى العادة أطول عمرا وأقل مرضا وتعاسة من الجماعة المتقدمة ، وأفراده فى العادة أوفر نصيبا من السعادة اذ كانت السعادة هى الاطمئنان على النفس والاهل والمال وراحة الضمير وخلو البال)[٥٩] •

ان البدوى فى حياته المستقرة الهادئة أسعد حالا من الغربى المتقدم علميا الذى يجرى وراء سراب لن يصل اليه . ذلك لان عالم الغربى هو عالم صيرورة أبدية ، أى حدوث فانقضاء • انه يفتقر الى الهدوء والاستقرار (والزمن عدوه الذى يجب أن ينظر اليه دائما بمنظار الشك والريبة)[٦٠] •

واذا جازت المقارنة بين هذين النوعين من المجتمعات فلا يظن ظان أننا ندعو أو نحبذ طريقة الحياة البدوية أو البدائية • فان سعادة البشر الحقة فى رأينا تبلغ ذروتها فى الحياة الدنيا اذا ضممنا الى وسائل التقدم العلمى تحقيق درجات الرقى الاخلاقى الشامل بمدلوله الاسلامى المتضمن

---

(٥٨) د. حسين مؤنس — الحضارة ص ٣٥٨—٣٥٩ .
(٥٩) المصدر نفسه ص ٢٥٦ .
(٦٠) محمد اسد — الطريق الى الاسلام ص ١٣٩ .

الايمان والعمل الصالح كما فعل المسلمون الاوائل . وهم السابقون الاولون .

ويعضد ذلك ما نقله القرطبى عن ابن العربى فى تفسير الاية (والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار) من آية ١٠٠ التوبة .

ان السبق يكون بثلاثة أشياء :

الصفة وهو الايمان والزمان والمكان .

ثم يرجح سبق الصفات فيقول (وأفضل هذه الوجوه سبق الصفات ، والدليل عليه قوله ﷺ فى الصحيح (نحن الاخرون الاولون بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا فأوتيناه من بعدهم فهذا يومهم الذى اختلفوا فيه ، فهدانا الله له فاليهود غدا والنصارى بعد غد) فأخبر النبى ﷺ أن من سبقنا من الامم بالزمان سبقناهم بالايمان والامتثال لامر الله تعالى والانقياد اليه ، والاستسلام لامره والرضا بتكليفه والاحتمال لوظائفه ، لا نعترض ولا نختار معه ، ولا نبدل بالرأى شريعته كما فعل أهل الكتاب)(٦٠م) .

ثانيا : لا يصلح الزمن مقياسا للتقدم :

يقول السير جيمس :

(ان قوانين الطبيعة الاساسية ، بقدر ما نعرفها فى الوقت الحاضر ، لا تقول لنا لم يمر الزمن بلا انقطاع ؟ بل هى مستعدة لان تجيز احتمال بقائه ثابتا لا ينحرك بقدر ما تجيز احتمال رجوعه القهقرى ، ذلك أن تقدم الزمن الى الامام بلا انقطاع ، وهو جوهر الصلة بين العلة والمعلول ، انما

(٦٠م) القرطبى الجامع لاحكام القرآن ص ٣٠٧٦—٣٠٧٧ مطبعة دار الشعب ١٣٨٩هـ — ١٩٦٩م .

هو شيء أضفناه من تجاربنا الخاصة الى قوانين الطبيعة المحققة ، ولسنا ندرى هل هو متأصل فى طبيعة الزمن ، وان كانت نظرية النسبية تهم أن تسم الرأى القائل بتقدم الزمن تقدما مستمرا ، وبوجود الصلة بين العلة والمعلول تهم أن تسم هذا الرأى بميسم الوهم والخداع)[٦١] .

وبعد هذا التعريف المستفيض للزمن ، أيحق للانسان أن يتخذه مقياسا للتقدم أو التأخر ؟ اننا نمضى معه رغما عنا ، فكيف نميز بين خطواتنا ونحن نلازمه ويلازمنا ؟ ثم انه لابد أن تدور عجلته ليتحول الحاضر أمس ، وقد قيل : كل غد صائر أمسا) .

الزمن فى القرآن الكريم :

اننا فى عصر ثبت أن الزمن اضافى وأن فروق الحال والمستقبل فى الاشياء لا تكون طبقا لحقيقة تلك الاشياء ، بل طبقا لمشاهدتنا المحدودة[٦٢]

واذا اعتمدنا على القرآن الكريم لاستطلاع الايات التى تتناول الزمن ، نرى ورود الايات تارة للاشارة الى الحياة الدنيا بأنها مؤقتة وليست دائمة (ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين) ٣٦ البقرة .

أو الزمن الكونى :

(الله الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون . يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون . سورة السجدة .

---

(٦١) الكون الغامض ص ٣٣ لسير جيمس جنيز ترجمة عبد الحميد مرسى ومراجعة د. على مصطفى مشرفة ط الاميريه سنة ١٩٤٢ .

(٦٢) وحيد الدين خان — الاسلام والعصر الحديث ص ٢٧ ط المختار الاسلامى القاهرة ١٣٩٦هـ — ١٩٧٦م .

ويذكر فى بعض الايات كعلامات للاهتداء :

(وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحـونا آية الليل وجعلنا آية النهـار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا) ١٢ الاسراء . ولمعرفة مواقيت الصلاة والزكاة والصيام والحـج .

وقد ورد فى الحـديث :

... وانما الاعمال بخواتيمها ، والليل والنهـار مطيتان ، فأحسنوا السير عليهما انى الاخرة) المنذرى : الترغيب والترهيب جـ٤ ص ٩٦ وقال رواه الاصبهانى من رواية ثابت بن محمد الكوفى العابد .

وما أدق التشبيه فى الحديث لحث الانسـان على أخـذ نصـيبه من العبادات والاعمال للترقى فى الكمالات الانسانية وصولا الى جنة الخلد(٦٣)

وفى حـديث يوم النحر ، قال الرسول ﷺ : (ان الزمان قد استدار كهدئته يوم خلق الله السموات والارض ، السنة أثنى عشر شهرا منها أربعة حرم ..) الحديث . وفى الحديث تحديد لشهور العام والتنصـيص على أربعة حرم متفق عليه .

---

(٦٣) والحياة الدنيوية مزرعة الاخرة ، وعلى المسلم انتهاز فرصة عمره للاستزادة من الخيرات ما استطاع الى ذلك سبيلا حتى يبلغ أعلى الدرجات فى آخـرته .

اورد ابن رجب حديث الثلاثة الذين استشهد اثنان منهم ثم مات الثالث على فراشه بعدهما فرؤى فى النوم سابقا لهما ، فقال النبى ﷺ (اليس صلى بعدهما كذا وكذا صلاة وادرك رمضان فصامه ، فوالذى نفسى بيده أن بينهما لابعد مما بين السماء والارض) وقال ابن رجب : خرجـه الامام أحمـد وغيره (لطائـف المعـارف .. ص ١٥٦) .

أما الزمن بمدلوله التاريخي فقد أقامه القرآن على أساس ثابت سماه (سنة الله) تحذيرا وانذارا لبنى آدم ، فدمار الامم له تبريره الموضوعي ، والظلم مثلا سبب للانتقام الالهى . (وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه أليم شديد) هود ١٠٢ . (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) هود ١١٧ .

وكذلك بالنسبة للافراد ، فقارون وفرعون وهامان وغيرهم (نماذج بشرية عرضها القرآن موضحا أعمالهم ومبينا نهاية ما حصدوه ، تنفيذا لنفس السنة أو القانون الالهى)ومهما كانت الازمنة أو الاعصار التي تظهر فيها الامم أو الافراد ، لان سنة الله لا تتبدل ولا تتحول .

ثالثا : التقدم فى الاسلام :

اذا استبعدنا لفظ (التقدم) وما شابهه من ألفاظ كالتطوير والثوريه والتجديد وما اليها ، بسبب تزعزع مدلولاتها وذبذبة مفاهيمها ، جاز لنا استبدالها بما أقره الاسلام وحث عليه من اكتساب الفضائل ونبذ الرذائل لتمكين الانسان من تحقيق مقام الخلافة فى الارض . مجددا الضوابط والمعايير التى لا تتغير أو تتبدل بتغير الزمان والمكان .

وتضمنت الايات القرآنية الاوامر والنواهى واحتوت على الوعد والوعيد متوجهة بالخطاب الى فطرة الانسان تحسن العدل والصدق والعلم والاحسان . وتقبح أضدادها .

قال تعالى (ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) النساء ٥١ وقال عز وجل (ان الله يأمر بالعدل

---

(٦٤) د. محمد كمال جعفر : فى الدين المقارن ص ١١٤ ط دار الكتب الجامعية سنة ١٩٧٠م .

والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون) النحل ٩٠ .

ويقتضى الوقوف على بعض معانى التقــدم أن نستعرض آيات من الكتاب الكريم ونبذة من الاحاديث النبوية بادئين بالاول :

(أ) فى الكتـــاب :

ها هو كتاب الله بين أيدينا ــ وكذلك السنة ــ كلاهما يوضحان مراتب أحسن النماذج الانســانية ، ويحثان على الارتقــاء والسمو لاكتســاب الفضائل التى بدونها لا يصبح الانسان انسانا : قال عز وجل (وسارعــوا الى مغفرة من ربكم) ١٣٣ آل عمران . وقال سبحانه وتعالى : (فاستبقوا الخيرات) ومدح قوما بقوله (يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون) ٦١ المــؤمنون .

والنظر فى القرآن الحكيم يدلنا ــ فيما يرى الراغب الاصفهانى ــ على درجات الارتقاء الاخلاقى ويحثنا على التسامى . ففى طرق الارتقاء ودرجاته يذكرها على الترتيب الاتى :

فأولها أن يرتدع الانسان عن المآثم ويهجرها ويندم عليها ويعزم على ترك مقاومتها وذلك أول درجة التــائبين المطيعين . وثانيهــا أن يقــوم بالعبادات المفروضة عليه ، ويسارع فيها بقــدر وســعه . وتلك درجــة الصالحين . وثالثها أن يتحرى بعلمه الحقيقى تعاطى الحسنات من غــير تلفت من الى المحظورات بمجاهدة هواه واماتة شهواته المحرمة وتلك منزلة الشهداء . ورابعها أن يكون من هذه الاحوال المتقدمة برضى ، ظاهرا وباطنا بقضاء الله تعالى ، فلا يتزعزع تحت حكمه ولا يتسخط شيئا من أمره ، ويعلم أن الله تعالى أولى به من نفسه وتلك درجة الصديقين . وهذه المنازل الاربعة

المرادة بقوله تعالى : (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا)(٦٥).

أما عن مهاوى الانحدار ودركاته ، فقد وردت آيات كثيرة تحذر من انحدار الانسان وسقوطه الى مهاوى الرذائل : فمنها (ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين) ٢١ المائدة .

ويوضح لنا الاصفهانى ترتيبا تنازليا لدركات الانحدار والارتداد :

فأولاها الكسل عن تحرى الخيرات ، ويورثه ذلك الزيغ لقوله تعالى (فلما زاغوا أزاع الله قلوبهم) ٥ الصف . وثانيها الغباوة وهى ترك النظر ونقض العمل فيورثه ذلك رينا على قلبه لقوله (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) ١٤ المطففين . وثالثها الوقاحة وهى أن يرتكب الباطل ويراه فى صورة الحق ويذب عنه فيورثه ذلك قساوة القلب . (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة) ٧٤ البقرة . ورابعها الانهماك فى الباطل ، وهو أن يستحسنه فيحبه فيورثه ختما على قلبه واقفالا عليه . كما قال تعالى (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) ٧ البقرة . وكما قال (أم على قلوب أقفالها) ٢٤ سورة محمد .

فحق الانسان أن يراعى نفسه فى الابتداء ولا يرخص فى ارتكاب الصغائر فيؤديه ذلك الى ارتكاب الكبائر(٦٦) .

(ب) السنة :

لو أحصينا أحاديث الرسول ﷺ التى يحض فيها على الارتقاء والتقدم

---

(٦٥) الراغب الاصفهانى : الزريعة الى مكارم الشريعة ص ٦٨ تحقيق طه عبد الرؤوف سعد . ط مكتبة الكليات الازهرية بمصر ١٣٩٣هـ — ١٩٧٣م .
(٦٦) المصدر السابق ص ٦٤ .

لما كفتنا كتب ومجلدات ، ولكن يلاحظ المتتبع اياها : أن الرسول يتجه فى ترغيبه وترهيبه الى الانسان على الحقيقة — أى نفسه وروحه وقلبه — لانها أساس تقدمه ورقيه ، اذ لا تنهض حضارة من الحضارات ولا تضمن بقاءها الا بعد استكمال غذاء القلب والروح وشحذ الارادة وتهذيب الاخلاق ، وتجعلها فى المرتبة الاولى قبل مظاهر الحضارة المادية من اقامة مصانع وانشاء مدن وشق طرق وبناء مدارس وجامعات ومستشفيات .

وربما خيل للكثيرين — من المسلمين أنفسهم — أن السنة تعنى فقط بالجانب التشريعى من الاسلام من تحليل وتحريم واباحة ، أو الارشاد الى أنواع العبادات وكيفية اقامتها وأوقاتها وشروطها ومراتبها . ولكن الحقيقة أن هناك جانبا كبيرا فى السنة القولية والعملية متضمن ارشادات وتوجيهات فى الحياة الانسانية دقيقها وجليلها ، فى صورتها الفردية والاجتماعية فأشارت بذلك الى منارات التقدم الحقيقى لكى يهتدى بها الانسان .

وكان الرسول ﷺ — وسيظل — القدوة فيها كلها حتى أحبه أصحابه — رضوان الله عليهم — أكثر من حبهم لانفسهم . وسيبقى كذلك للمسلمين ما دامت الحياة .

قال عروة بن مسعود يصف أحوال الصحابة لقومه : (أى قوم ، والله لقد وفدت على الملوك ، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشى ، والله ما رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا ﷺ)(٦٧) .

وما أحوج البشرية عامة ، والمسلمين خاصة الى الاسترشاد بسنته

---

(٦٧) عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب — مختصر سيرة الرسول ﷺ ص ٣٠٦ ط السلفية بمصر ١٣٩٧هـ .

فى دروب الحياة ومساالكها المتشعبة ، اذ لم يترك الدنيا الا بعد أن تحدث وأوضح كل شىء •

ففى حـــديث جامع :

عن معاذ قال : أخذ بيدى رسول الله ﷺ نمشى قليلا ثم قال : يا معاذ، أوصيك بتقوى الله ، وصدق الحديث ، ووفاء العهـــد وأداء الامانة ، وترك الخيانة ، ورحم اليتيم ، وحفظ الجوار ، وكظم الغيظ ، ولين الكلام ، وبذل السلام ، ولزوم الامام ، والتفقه فى القرآن ، وحب الاخرة والجـــزع من الحساب ، وقصر الامل ، وحسن العمل ، واياك أن تشتم مسلما ، أو تصدق كاذبا ، أو تعصى اماما عادلا ، وأن تفسد فى الارض •

يا معاذ ، أذكر الله عند كل شجر وحجر ، وأحـــدث لكل ذنب توبة ، السر بالسر والعلانية بالعلانية(٦٨) •

والاحاديث النبوية فى الحث على مكارم الاخلاق ، والمرقى الانسانى وتقدمه ، لا حد لها ولا حصر ، ولكن حسبى أن سقت مثالا بما يناسب هذا الكتاب فى غرضـــه وحجمه •

والله ولى التـــوفيق ،،،

---

(٦٨) المنـــذرى — جـ٤ ص ١٠٧—١٠٨ الترغيب والترهيب . وقال رواه البيهقى فى كتاب الزهد .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين أما بعد .

المــراجــع

ـ القــرآن الكريم .

(أ)

ـ الاسلام فى القرن العشرين حاضره ومستقبله .

دار الكتاب العربى بيروت سنة ١٩٦٩م

ـ أسس الفلسفة

د. توفيق الطويل ـ مكتبة النهضة المصرية بسنة ١٩٥٥م .

ـ الاتجاهات الوطنية فى الادب المعاصر .

د. محمد محمد حسين ـ مكتبة الاداب ـ القاهرة سنة ١٩٦٨م .

ـ الاتجاهات الحديثة فى الاسلام .

محمد بهجة الاثرى ـ ط السلفية .

ـ أرنولد توينبى

عرض ودراسة لمعى المطيعى ـ ط دار الكتب العربى سنة ١٩٦٧م .

ـ الايمـــــان .

ابن تيمية ـ ط أنصار السنة المحمدية ـ القاهرة .

ـ أعـــلام الموقعين

ابن القيم .

ـــ الاعتصـــام للشاطبى •

ط دار التحرير سنة ١٩٧٠م •

ـــ الله فى الفلسفة الحديثة

جيمى كوكفير ـــ ترجمه فؤاد كامل ط مكتبة غريب بالفجالة ١٩٧٣م •

ـــ الاسلام وقوانين الوجود •

د• محمد جمال الدين الفندى ط• الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢م

ـــ ابن تيمية والتصوف •

د• مصطفى حلمى ط • دار الدعوة ـ اسكندرية •

ـــ الازهر موقف الامة الاسلامية من القاديانية ١٩٧٦م •

ـــ العرب والنموذج الامريكى •

د• فؤاد زكريا • ط دار الفكر المعاصر ـــ القاهرة سنة ١٩٨٠م •

ـــ الاســـلام والاقتصـــاد •

د• عبد الهادى على النجار ـــ الكويت سنة ١٩٨٣م •

ـــ الكون الغـــامض •

جيمس جنيز ـــ ترجمة عبد الحميد مرسى ط الاميرية سنة ١٩٤٢م •

ـــ الاســـلام والعصر الحـــديث

وحيد الدين خان ـــ ط المختار الاسلامى سنة ١٩٧٦ •

ـ الانسان الكامل كما يراه محمد اقبال .

مجلة البعث الاسلامى ـ الندوى ـ لكهنو الهند محـرم ١٣٩٧هـ ـ

١٩٧٧م .

ـ الاسلام والغرب والمستقبل .

أرنولد توينبى ـ تعريف د. نبيل صـبحى ط دار العروبة ـ بيروت

١٣٩٩هـ ـ ١٩٦٩م .

ـ آراء فلسفية فى أزمة العصر .

أدرين كـــوج

ـ الطـريق الى الاســـلام .

محمـــد أســـد .

ـ اقتضاء الصراط المستقيم .

ابن تيمية ـ تحقيق محمد حامد الفقى ط . السنة المحمدية ١٩٥٠م.

ـ الجامع لاحـكام القرآن لابى عبد الله القرطبى

شوال سنة ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م . ط . دار الشعب .

ـ الاسلام المتحن

ط . المختار الاسلامى ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م .

ـ الاسلام فى ظل مشاكل المجتمعات الاسلامية المعاصرة .

مكتبة وهبه سنة ١٩٨١م

(ب)

— البهـائية تاريخها وعقيدتها

الاستاذ عبد الرحمن الوكيل — ط السنة المحمدية بمصر سنة ١٩٦٢م.

— بغيه المـرتاد .

ابن تيمية .

— البداية والنهـاية .

ابن كثير .

(ت)

— الترغيب والترهيب للمنذرى

— التفسـير والمفسرون .

د. محمـد حسنين الذهبى — ط دار الكتب الحـديثة القـاهـرة

١٣٨١هـ — ١٩٦١م .

— تفسـير ابن كثير .

ط . دار الفكر لابن كثير .

— تاريخ الطبرى .

للامام الطبرى .

— تاريخ الفلسفة الحديثة

ط . دار المعارف سنة ١٩٦٩م

— تاريخ الفلسفه العربيه

برنرا ندرسل — ترجمـه محمـد فتحى الشنيطى ط . الهيئة المصريه

العامه للكتاب سنه ١٩٧٧م .

— تهافت الفكر المادى التاريخى بين النظر والتطبيق .

مكتبة وهبة القاهرة سنة ١٩٧٥م .

— تحت راية الفكر .

مصطفى صادق الرافعى — المكتبة التجارية ١٣٨٥هـ — ١٩٦٦م .

— تلبيس ابليس .

لابن الجـــوزى .

— تهـافت الفلاسـفة .

أبو حامـد الغـزالى .

— تحديد التفكير الدينى فى الإسـلام .

محمد اقبال — ترجمة عباد محمود ومراجعة د. مهدى علام — لجنـة التأليف والنشر سنة ١٩٦٨م .

— تاريخ الفكر الفلسفى فى الاسـلام .

د. محمد على أبو ريان ط . دار الجامعات المصرية سنة ١٩٧٠م .

— تنمية اقتصـادية وثقافية .

د. جلال أمين مطبوعات القاهرة ١٩٨٣م .

— التفسير الاسلامى للتاريخ .

د. عماد الدين خليل ط . دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٨م .

— التاريخ الاسلامى والمذهب المـادى فى التفسير .

د. محمد فتحى عثمان الدار الكويتيه سنة ١٩٦٩م .

ـ تفسير المنار لرشيد رضا .

مكتبة القاهرة سنة ١٩٦٠م .

ـ تاريخ الخلفاء

السيوطى.ط . التجارية ١٣٩٠هـ ـ ١٩٦٩م .

(ح)

ـ حاضر العالم الاسلامى .

شكيب أرسلان .

ـ الحركات الباطنية فى الاسلام

مصطفى غالب ـ ط . دار الكاتب العربى .

ـ حقيقة البابية والبهائية .

د. محسن عبد الحميد . ط . المكتب الاسلامى سنة ١٩٧٥م

ـ الحضارة من سلسلة عالم المعرفة .

حسين مؤنس . المجلس الوطنى للثقافة والفنون والاداب بالكويت

١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م .

ـ الحركات السرية فى الاسلام .

د. محمود اسماعيل ـ من سلسلة كتاب روز يوسف ـ مايو ١٩٧٣م

(ج)

ـ جمال الدين الافغانى .

د. محمود قاسم ط . الانجلو المصرية .

(خ)

ـ الخـــوارج •

د• مصـــطفى حلمى ـ ط • دار الأنصار القاهرة •

(د)

ـ دفاع عن الشريعـــة

منشورات العصر الحديث ـ بيروت سنة ١٩٧٢م ـ عـــلال الفاس

الدين ـ د• محمد عبد على دراز ـ دار القلم بالكويت • سنة ١٣٩٠هـ

ـ ١٩٧٠م

ـ دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين •

ط • دار الانصار ـ الشيخ محمد الغزالى •

ـ درء تعارض العقل والنقل

ابن تيمية • تحقيق د• محمد رشاد سالم ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م •

ـ دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية

هيـــوج اتكن ـ ترجمة د• محمود زايد ط• دار العلم للملايين بيروت
سنة ١٩٦٣م تقديم د• قسطنطين ذريق •

ـ دراسات عن البهائية والبابية

محمد كرد على ـ ط • المكتب الاسلامى سنة ١٩٧٧م •

(ر)

— الرد على الجهمية ٠

الدارمى منكتاب عقائد السلف ٠

(ز)

— الزريعة الى مكارم الشريعة ٠

تحقيق د٠ عبد الرؤوف ط ٠ الكليات الازهرية بمصر ١٣٩٣هـ —١٩٧٣م

(س)

— سقوط الحضارة ٠

كولون ولسون ٠

— الاسلام والثقافة العربية فى مواجهة تحديات الاستعمار وشبهات التغريب

مطبعة الرسالة ٠

— سر تطور الامم

جوستاف لوبون — ترجمة فتحى زغلول باشا مطبعة المعارف بمصر

سنة ١٩١٣م ٠

— الاسلام قوة الغد ٠

باول شمتز — الترجمة العربية ٠

— الاسلام الممتحن ٠

محمد الحسنى — ط ٠ المختار الاسلامى ١٣٩٧هـ — ١٩٧٧م ٠

— الاسلام على مفترق الطـــرق •

ترجمة د• محمد فرج تأليف محمد أسد ط• دار العلم للملايين بيروت

— سـلوك المـالك فى تدبير الممالك

ط • دار الشعب — القاهرة ١٤٠٠هـ — ١٩٨٠م •

— الاستيعاب فى معرفة الاصحاب •

تحقيق على البجاوى — مكتبة نهضة مصر بالفجالة •

(ش)

— شخصيات قلقة فى الاســلام •

د• عبد الرحمن بدوى • ط • دار النهضة العربية — القاهرة ١٩٦٤م•

— الشرح والابانة

ابن بطه •

— شرح العقيدة الاصفهانية •

ابن تيمية — ط • كردستان العلمية •

— الشيعة فى عقائدهم وأحكامهم

السيد الكاظمى القروينى — ط• الدار الزهـــراء — بيروت ١٣٩٧ هـ

— ١٩٧٧م •

(ص)

— الصـــفدية •

ابن تيمية — تحقيق د• محمد رشاد سالم — ط • الرياض ١٣٩٦ هـ

— ١٩٧٦م •

ـ صـون المنطق والكلام عن فنى المنطق والكلام .

السيوطى ـ تحقيق د. النشار وسعاد عبد الرازق ط . مجمع البحوث الاسلامية ١٩٧٠م .

ـ الصراع بين الموالى والعرب .

ط . دار الكاتب العربى بمصر سنة ١٩٥٤م

(ع)

ـ عوامل ضعف المسلمين .

سميح عاطف الزينى ـ ط . دار الكتاب اللبنانى .

ـ العـوائق

محمد أحمد الراشد ـ ط . مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧م .

ـ على مشارف القرن الخامس عشر الهجرى .

ابراهيم بن على الوزير ـ دار الشروق ١٩٧٩م .

ـ عقائد السلف .

تحقيق د. على سامى النشار و د. عمار الطالبى ـ منشأة المعارف سنة ١٩٧١م .

(غ)

ـ غياث الامم .

الجوينى ـ تحقيق د. مصطفى حلمى و د. فؤاد عبد المنعم ـ ط . دار الدعوة . اسكندرية ١٤٠٠هـ .

ـــ الغـــزو الفكرى فى العالم العربى

عبد الله عبـــد الجبار .

(ف)

ـــ الفكر والثقافة المعاصرة فى شمال افريقيا .

أنور الجنـــدى ـــ الدار القومية للطباعة والنشر ـــ القاهرة ١٣٨٥ هـ ١٩٦٥م .

ـــ فلسفة أوجست كونت .

ليفى بريل ـــ ترجمة د. محمود قاسم و د. السيد بدوى مكتبة الانجلو

ـــ الفكر الاسلامى فى مواجهة الافكار الغربية .

محمد المبارك ـــ ط . دار الفكر ١٩٧٠م

ـــ فتـــاوى ابن تيمية .

ط . الرياض .

ـــ فن الفســـلفة .

د. محمد بيومى مدكور ـــ ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٠م.

ـــ الفـــرق بين الفرق .

البغـــــدادى .

ـــ الفرقان بين الحق والباطل .

ابن تيمية ـــ ط. السنة المحمدية بالقاهرة .

ـــ الفصل بين الملل والنحـــل ـــ لابن حزم

ـــ فى الدين المقـــارن .

د. محمد كمال جعفر ـــ ط . دار الكتب الجامعية سنة ١٩٧٠م .

(ق)

ـ قــواعد المنهج السلفى •

ط • دار الانصــار ـ القاهرة •

ـ قصة الايمان بين الفلسفة والعقل والدين •

نديم الجسر ـ المكتب الاسلامى ـ بيروت ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م •

ـ القــرامطة ـ لابن الجوزى

تحقيق د• الصباغ ـ ط • المكتب الاسلامى •

ـ الاقتصاد الاســلامى ـ مقوماته ومنهاجه •

د• ابراهيم دسوقى ـ ط • دار الشعب •

ـ القــاديانى والقاديانية •

ط • دار السعودية للنشر بجــدة سنة ١٩٧١م •

ـ القــاديانية نشأتها وتطورها •

ط • مجمع البحوث الاسلامية بالازهر ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م •

(م)

ـ مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين

أبو الحسن الاشعرى ـ تحقيق الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد
مكتبة النهضة المصرية ـ ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م •

ـ المصحف المفسر

الشيخ عبد الجليل عيسى ـ ط ٠ دار الشروق ١٣٩١هـ ٠

ـ المـدخل الى الثقافة الاسلامية ٠

د٠ رشاد سالم ـ دار القلم بالكويت ١٩٧٧م ٠

ـ المـذاهب الاســلامية ٠

الشيخ محمد أبو زهرة باشراف وزارة التربية والتعليم بمصر ٠

ـ مختصر سيرة الرسول ﷺ ٠

ط ٠ السلفية بمصر سنة ١٣٩٧هـ ٠

ـ الملل والنحل ٠

الشهرستانى ـ ط ٠ مكتبة الانجلو المصرية ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م ٠

ـ المنار فى الصحيح والضعيف

ابن القيم ـ تحقيق أبو عزة ٠ مكتبة المطبوعات الاسلامية ـ حلب ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م ٠

ـ مختصر دراسة التاريخ

توينبى ٠

ـ معايير علم الاجتماع ٠

لروجيه باستيد ـ د٠ محمود قاسم ط ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م ٠

ـ موقف الاسلام من المعرفة والتقدم الفكرى ٠

د٠ محمـود عبد الله ٠

ـ موجز تاريخ الدين واحيائه ـ للمودودى ٠

ط ٠ الفكر الحديث ـ لبنان ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٨م ٠

ـ ملف اسرائيل ـ أحلام الصهيونية وأضاليلها .

رجاء جارودى ـ منشور بالاهـرام بتاريـخ الخميس ١٧ مارس سنة ١٩٨٣م

ـ مختصر دراسة التاريخ .

ط ١٩٦٤م ترجمة فؤاد محمد شبل ـ جامعة الدول العربيه .

ـ منهج علماء الحديث والسنة من أصول الدين

د. مصطفى حلمى ط. دار الدعوة بالاسكندرية .

ـ منهاج السنة لابن تيمية

تحقيق د. رشاد سالم .

ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين .

أبو الحسن العـدوى .

ـ المخططات الاستعمارية لمكافحة الاسلام .

الدار السعودية بجدة سنة ١٣٨٤هـ د. الصواف .

(ن)

ـ النظم أو المؤسسات الاجتماعية .

هاري المربارنز .

ـ نظام الخلافة فى الفكر الاسلامى .

د. مصطفى حلمى ـ ط . دار الدعوة بالاسكندرية .

ـ النبوءات ـ ابن تيمية .

ط . السلفيه ومكتبتها ـ القاهرة ١٣٨٦هـ .

ـ النصيريون •

السيد عبد الحسينا لعسكرى ـ ط • شركة الشعاع للنشر بالكويت ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م •

(ل)

ـ لطائف المعــارف فيما لمواسم العام من الوظائف لابن رجب الحنبلى •
ط • مكتبة الرياض الحديثة ـ الرياض •

(و)

ـ وحدة الفكر الاسلامى •

مقدمة للوحدة الاسلامية الكبرى ـ ط • دار الاعتصام ١٩٧٥م

(ى)

ـ يا مسلمى العالم اتحدوا •

عبد الفتاح عبد الحميد ـ دار الانصار القاهرة سنة ١٩٧٦ •

الفهـــــرس

الموضـــــوع	صفحة

الموضـــوع	صفحة

الموضــــــوع	صفحة

الموضـــــوع	صفحة

تصـــويب :

ـــ حدث خطأ فى الايه ص ٦٥ وصحتها :

(وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ..)

ـــ و ص ١٥ بالهامش ينظر الفصل الثانى

ونترك باقى الاخطاء البسيطة لفطنه القارىء ونعتذر عنها .

رقم الايداع
١٩٨٣ — ٤٧٥١